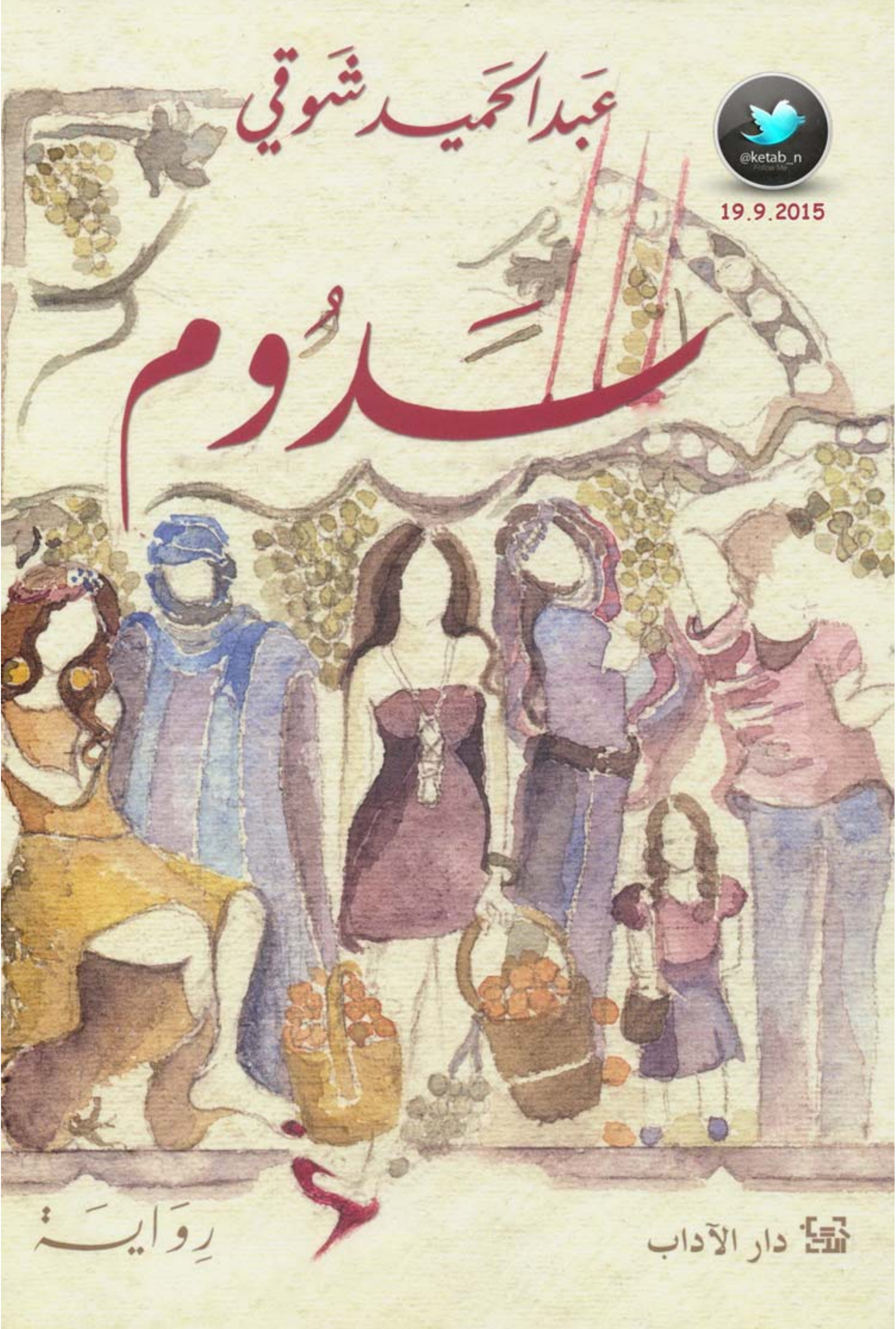

عَبد الحَميد شَوقي
سَدُوم
رِوَايَة
دار الآداب
@ketab_n
19.9.2015

عبد الحميد شوقي

سـدوم

رواية

دار الآداب ـ بيروت

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سـدوم

عبد الحميد شوقي / روائي مغربي
الطبعة الأولى عام 2015
ISBN 978-9953-89-480-5
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

Twitter: @ketab_n

يمكن أن نمكر مع قولة باسكال الشهيرة:

Le cœur a ses raisons que la Raison ignore

بأن نصوغها كالتالي:

Le corps a ses raisons que la Raison ignore

مع الاعتذار الكامل لصاحب «الخواطر».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ـ ١ ـ

اللوحة التي أقف أمامها ساعات طويلة في المرسم. اللوحة السديم التي تولَد لحظة بلحظة، وتتشكّل خفقة بخفقة. اللوحة الألم المضغوطة بين دخان سيجارتي الشقراء وقهوتي المُرّة السوداء التي تبرد سريعًا. اللوحة الحياة الموت الدهشة اجتثاث الذكرى الأليمة. أرق الزمان المتقيِّح في المسامّ. دائمًا أراه وأرى جسدي المرتعش. المراهقة التي ضجّت مفاتنها فجأة، ونفر نهداها الصغيران كأرنبين في حديقة سعيدة. أسمع ماما من داخل الصالة الفسيحة تناديني: كاميليا.. كاميليا.. بسرعة.. يجب أن تفطري قبل الذهاب إلى البعثة..

ماما التي لا تريد أن تكبر، بجدائلها متدرّجةِ التمشيط، وخصلاتها متنوّعة الألوان؛ بسراويلها الإيطاليّة الراقية وأحذيتها ذات الكعوب العالية المستوردة في الغالب. ماما وهي تضع رِجْلاً فوق رِجْل على الفوتويّ الجلديّ الأنيق، وتتكشّف فخذاها البضّتان تحت جوبها القصيرة.

Twitter: @ketab_n

تتناول عصيرها على مهل وتتصفّح آخر الموديلات الفرنسيّة والإيطالية والأميركيّة. سيجارتها موضوعة دائمًا في مصفاة سوداء طويلة، تعطيها نوعًا من الرونق والكبرياء وهي تدخّن. أدخل بملابسي الرياضيّة التي لا تفارقني عندما أكون في الفيلّا. شعري متشابك وعيناي منفوختان من النوم. تنظر إليّ ماما وهي لا ترفع رأسها عن المجلّة: كاميليا.. لم تغيّري ثياب النوم بعد.. نو.. كامي.. ستتأخّرين عن البعثة..

لا أجيب. أتناول قهوتي مع شطيرة من جبن ومربّى وأنا واقفة. تتأفّف ماما: نو.. كامي.. تعلّمي أن تأكلي بنظام وأناقة.. سيغضب بابي..

بابا في العادة يصحو قبلنا في السادسة صباحًا. يذهب لممارسة الرياضة في الغابة المجاورة. هو من هواة المشي. يتمشّى يوميًا ساعة بأكملها ويعود إلى الفيلّا. يأخذ حمّامه الصباحي ويفطر قبلنا. أسمعه، وأنا خارجة من غرفتي، يقول لماما: باي شيري.. إذا لم أعد في الغداء لا تنتظروني..

يرمي لها قبلة في الهواء، ويأخذ سيّارته المرسيدس السوداء، ويغيب.

أتراجع قليلاً إلى الخلف. أضع السيجارة في المنفضة وأترك دخانها يملأ المرسم. أتأمّل الحياة التي بدأت تدبّ في اللوحة. وراء الألوان عالم بأكمله. الأسود ليس دائمًا حزينًا وكئيبًا. الأسود هو لغز النفس ذاتها. هو الماوراء الذي يمنح كلّ شخصيّة فرادتها وعبقها الخاصّ. دائمًا في لوحاتي، هناك خلفيّة سوداء تحتضن الوجوه والأمكنة والتعبيرات. يوم تكلّمت على الأسود، قال لي سليم بنيس،

Twitter: @ketab_n

طبيبي النفسي، بأنّ الأسود هو لون الرحم، دلالة الحنين إلى ما قبل الولادة، والالتحام بجسد الأمّ. وأنا ممدّدة على السرير في عيادته، لا أرى غير لوحة ناقصة تبحث عن التشكّل والخروج. لم أكن أنا، ولم تكن الألوان أطيافًا غامضة من رحم احتضنني، لكنّه كان مجبرًا على القذف بي خارجة نحو عالم مجهول.

أنهي فطوري سريعًا. أسوّي شعري وهندامي أمام المرآة، وأحرص دائمًا أن أضع عطرًا فرنسيًّا راقيًا. أحبّ العطور الفرنسيّة. في كلّ مرّة، كنّا نذهب أنا وماما وبابا إلى باريس في إجازة، كنت أقف مفتونة أمام محلّات بيع العطور. كنت أقول لطبيبي النفسي إنّ العطور لا تعني سوى إرادة الإنسان على تحديد موقعه المتلاشي للانتصار على الموت. لست أدري لماذا كانت تقترن في خياشيمي رائحة الموت بكلّ شيء عفن وكريه. كنت أنظر إلى الفرنسيّات بنوع من الإعجاب كيف ينفقن حياة بأكملها على عطور لا تدوم إلّا لزمن قصير. لم أكن أعرف أنّ عمر الإنسان نفسه لا يدوم إلّا زمنًا قصيرًا.

أضع المحفظة فوق كتفي، وأنزل الدرج نحو الصالة الفسيحة، حيث تجلس ماما التي تفضّل ألّا تخرج إلى عملها إلّا بعد أن تتصفّح مجلّات الموضة بشكل دقيق. ترفع رأسها نحوي وتبتسم بشكل هادئ وجميل.

ماما صبيّة جميلة وفاتنة ومثيرة. لا أحد يصدّق وهو يرانا، أنّها ماما وأنّني ابنتها. يعتقدون أنّنا شقيقتان. ربّما ذلك يرضي جمال ماما وغرورها، لكنّه يعني بالنسبة لي أنّني لن أظلّ صبيّة مثلها.

Hé Kamélia.. pourquoi tu mets pas ton tablier? tu pars à la Mission..

Twitter: @ketab_n

أخرج الوزرة من محفظتي.

ـ لا تخافي ماما.. هي معي.. سأرتديها قبل الدخول إلى البعثة..

ـ أوكي كامي ...بون شانس..

وتعود إلى مجلّاتها.

في حديقة الڤيلّا الواسعة، أحيي عمّي تومي البستاني المرح. أحبّ أن أناديه تومي عوض اسمه الحقيقي التهامي. يفرح كثيرًا ويحتار هل يحضنني أم يلزم حدوده كمستخدم عندنا. كنت أحبّ ضحكته البسيطة. أتقدّم نحوه وهو يمسك بأنبوب الماء لسقي الحديقة. أضع فمي في الأنبوب وأشرب. كانت تلك الحركة تجعلني أفرح بنفسي كثيرًا وأحبّ عطوري بشكل أكبر. عند البوّابة، أجد السائق في انتظاري. عمّي روحي، كما أحبّ أن أدلّعه، عوض اسمه الحقيقي الرياحي. أجلس قربه فيحسّ بالإحراج. لا يا ابنتي. مكانك في الخلف. أنت ابنة السيّد. أشبك أصابعي في شعره وأضحك. سيغضب سيّدك أكثر لو أخّرت ابنته عن موعد دراستها. أسرع عمّي روحي. ونترك الڤيلّا وراءنا.

كنت أدرس في البعثة الفرنسيّة. لم أكن أشعر أبدًا بأيّ اغتراب أو صراع، وأنا أجد نفسي بين أبناء فرنسيين وأبناء مغاربة متفرنسين وأبناء مغاربة يهود. كانت اللغة الفرنسيّة وطنًا ومنفى، كينونة للشمس والحرّيّة والذات. كان العذاب الأكبر عندما ننتقل من اللغة الفرنسيّة إلى اللغة العربيّة. لم نكن نحسّ بطراوة المفردات وماء الصيغ اللغويّة ودفق الكلمات. كنّا نحسّ بشرخ في الحنجرة. تتأوّه الحبال الصوتيّة لتنتج عواصف من غبار الرياح الشرقيّة. حتى في الڤيلّا، لم نكن

Twitter: @ketab_n

نتحدّث غير الفرنسيّة. كان بابا يقول: العربيّة في دمك، مهما ابتعدت عنها، فهي لغة الأمّ. لكنّ الفرنسيّة هي مكّوك العالم الجديد. ولكي نمتطيه، لا بدّ من قتل الأمّ. بابا لم يكن متنكّرًا للغة العربيّة مثل ماما، ولذلك كان يكلّمني بها كلّما أُتيحت لنا الفرصة.

في مدارس البعثة الفرنسيّة، تعلّمت اللغة والشعر والفلسفة والموسيقى والتشكيل والحرّيّة والحبّ والسجائر. كنّا ندخّن في الكافتريا ونمارس الحبّ على عادة الفرنسيين كطقس يوميّ مشاغب. كان لكلّ واحدة منّا عشيقها من الطلبة. نختلي ببعضنا، ونكتشف أسرار الجسد وحرائق القبلات ونتبادل الرسائل.

لكن لماذا تبدين حزينة جدًّا، وأنت مارست كلّ هذه الأشياء؟ يقول سليم بنيس، طبيبي النفسي. أغمض عينيّ. أضيع في صمت تاريخيّ. أغوص في ظلام جسدي المرسوم كبلّور فضّي. أسمعه يردّد: هنا لا مجال للخجل والشعور بالذنب. في هذه الغرفة تندفن الأسرار. لا شيء يتسرّب. أنا هنا لكي أعينك على اكتشاف أسباب أزماتك النفسيّة. قولي أيّ شيء يخطر ببالك بمعزل عن كلّ حسّ سليم أو قيمة أخلاقيّة.

تأتيني صورته. كأس الكونياك في يده، وسيكاره الكوبي في اليد الأخرى. جالس على الفوتويّ الأسود في الصالة الفسيحة بروب النوم الأرجواني. بابا في كامل فتوّته ووداعته ورشاقته. أحبّه عندما يكون في هذه الحالة الحليمة. تمنحه الخمرة هالة راقية. يتخلّى عن هموم أشغاله ويتفرّغ لنا، أنا وماما. لم أره يومًا بدون كتاب. ورثت عنه هذه العادة الجميلة. كان مهووسًا بالأدب الروسي في العهد القيصري. لم يملّ أبدًا من قراءة روايات دوستويفسكي بالتحديد. أوه، كاميليا، يومًا ما ستدركين لماذا أقرأ دوستويفسكي.. ياه.. ياه..!

Twitter: @ketab_n

يشرب على مهل وينفث دخان سيكاره الكوبي في فضاء الصالة الفسيحة. معه قرأت «الجريمة والعقاب».. «الإخوة كرامازوف».. «مهانون ومذلّون».. «المقامر».. «الشياطين».. «مذكّرات من منزل الأموات». تأتيني صورته. واقفة أمامه بكامل ملابسي المدرسيّة. عيناي حائرتان ويدي على فمي. كنت صغيرة ومراهقة. رفع رأسه نحوي ونهض. احتضنني بحنان أبويّ رقيق. لم يكن فقط بابا. كان صديقي أيضًا. أحاطني بذراعه وقادني إلى مكتبته.

ربع الڤيلّا يكاد بابا يكون خصّصه للكتب. تجوّلنا بين صفوف الكتب: كتب فرنسيّة.. إنجليزيّة، وبعض الكتب العربيّة القليلة. أمّهات الروائع في الأدب العالمي: الروسي.. الفرنسي.. الألماني.. الإنجليزي.. اللاتيني.. الآسيوي، خصوصًا الأدب الياباني والصيني. رأيته يبتسم والكأس لا تفارق يده: هذه ليست كتبًا، بابا. هذه حيوات. حضارات. ذاكرات أبديّة. أرواح لا تموت.. كان يقول لي: ليس من حقّنا أن نحرق أو نمزّق كتابًا بدعوى أنّه رديء ولا شرعيّة له في عالم الكتابة، وإلّا ما جدوى كلّ هذه السنوات التي نقضيها ونحن نقرأ؟

فهمت قصده. تحسّست بطني. لكنّ بصري انخفض رغمًا عنّي. رفع وجهي بأصابعه الطويلة ثم قبّلني. أحسست بعظمة بابا. لا تخافي كاميليا.. يمكن أن نصلح كلّ شيء. لقد تقدّم الطبّ كثيرًا، ولن تتعرّضي لأيّ خطر. سمعت نحنحة على الباب. التفتُّ، كانت ماما بكامل أنوثتها المثيرة. بدت شاحبة وساهمة. لكنّها ابتسمت لي. سمعتها تقول: هل هو طالب معكم في البعثة؟ بالكاد أجبتها: نعم. ثم انسحبت إلى غرفتي باكية.

هل كانت اللوحة تعبيرًا عن حياة لم تكتمل، عن إجهاض، عن

Twitter: @ketab_n

طفل كان ممكنًا وأصبح مستحيلاً؟ اللوحة الألم العذاب الأرق. أقفُ أبديّةً بأكملها في المرسم وأنا أنظر إليها. هل كنت أرسم ذاتي؟ هل كنت أخلِّد مراهقة أجهضت؟ لماذا أحسّ دائمًا بتناقض فاجع بين الحياة والرسم؟ بقدر ما ترشح الحياة وتسيل وتتجدّد، أجد اللوحة ثابتة في إطار، ترفض أن تجدّد ألوانها وأبعادها وشخوصها.

يوم أخبرت أسلين بقصّة الحبَل، لم تستغرب، على النقيض تمامًا من سامية وأحلام اللتين اندهشتا بقوّة. كنّا قد خرجنا للتوّ من مقهى شاتوبريان، نسير في شوارع أكدال الراقية. أسلين لم تهتمّ بالقصّة في حدّ ذاتها. كانت تحاول أن ترسم صورة لبابا الذي تقبّل الأمر في البداية، وصمت، ثم اعتكف في غرفة المكتبة بعد ذلك أسبوعًا بأكمله قبل أن يوافق ماما على فكرة الإجهاض. أقوى من الموت. أقوى من رعب العدم. كان يطوّقني بذراعيه الأبويّتين ويحاول أن يضحك: كامي.. نحن لا نعيش في الجنّة.. نحن في عالم الناس.. في الحياة بكلّ زخمها وقوانينها البيولوجيّة.. أنت أنثى ومراهقة، وليس على الجسد قيد. أعرف علاقات الطلبة فيما بينهم.. غرام. أسرار. تدخين. شرب. ليالي حمراء. ما وقع قد وقع. أنت ما زلت صغيرة، لكنّنا سنعالج الأمر. قفزت سامية نحوي مثل لبؤة: لكنّه كان.. كان..!

قرأت الفزع نفسه في وجه بابا وماما عندما قذفتهما بالحقيقة: هو صديقي بالبعثة.. لكنّه...

تقدّمت ماما نحوي بكلّ رقّة مدينيّة: لا عليك كامي.. كلّ الطلبة في البعثة من أوساط راقية جدًّا..

هل كنت أحاول تدمير رقّتها المدينيّة الزائفة عندما قلت بصوت

Twitter: @ketab_n

خفيض اسمه: إزرا؟

انسحب بابا إلى أعمق قرار في محيطاته النفسيّة. كان يبحث عن موطئ لقدميه الغائصتين في رماد المفاجأة المأساويّة. ارتفع صوتي قليلاً: اسمه الكامل: إزرا حاييم..

عندها اختفى بابا في مكتبه وأغلقت ماما عليها غرفة نومها. سمعت أحلام تقول لأسلين ونحن نتجاوز شارع فرنسا نحو ڤيلّات السويسي الصامتة: كنت أعتقد أنّ اليهود اختفوا من المغرب منذ الاستقلال..

Twitter: @ketab_n

ـ ٢ ـ

تعبتْ أحلامكَ من سريري
وجهك لم يكن واضحًا
كالمكان الأليف.
حين صحوتُ
لم يكن للصباح عطرُ ثيابي
وفي اهتراء المسافات المكرورة
أعدتُ اشتهاءك كالرغيف
وساعة الحائط
وغروب الشمس على الرصيف..

بجسده نصف العاري ونظراته الحارقة، كان يقف أمام النافذة يدخّن في شراهة. الراهب شخص غير عاديّ. يرى الأشياء في وضوح

Twitter: @ketab_n

قاس، ويتّجه رأسًا نحو غاياته الفاضحة. كنت ما زلت ممدّدة في السرير. قضينا ليلة مجنونة في غرفة فندق متوسّط التصنيف، بعد أمسية شعريّة جاء إليها خصّيصًا لكي يسمعني. حين انتهيت من القراءة، جلست قربه. مدّ يده وتلمّس فخذي بكلّ وقاحة. لم أصرفه. نظرت في عينيه لكي ألفت انتباهه إلى حضور الآخرين. تمادى في حركاته:

ـ الليل يا سامية يعاتبني، ويقول لي سلّم على سامية..

ضحكت بخبث، وأنا أمسك يده وأبعدها عن فخذي:

ـ لا تبدأ وقاحتك منذ الآن.. وفّرها لما بعد..

كنّا ندخّن ونشرب في المرقص بعد العشاء. ميلاد.. الراهب.. أسلين.. كاميليا.. أنا، وبعض النقّاد وعشّاق الشعر.

الراهب هادئ دومًا. تلك نقطة قوّته ومركز جذبه. عيناه عميقتان، وضحكاته تلغي كلّ إمكانيّة للوصول إلى أعماقه. يدخّن كثيرًا ويحبّ الشراب أكثر. دائمًا أنيق. قمصان إيطاليّة زرقاء ولازورديّة في الغالب. لا يرتدي غير سراويل الجينز الأميركيّة بأحذية رياضيّة أو أحذية شبابيّة. أحسّ أنّ أسلين تلتهمه بنظراتها. أغار منها. لكنّي لا أستطيع الإفصاح عن ذلك. ولكي أستفزّه، أتوجّه بالكلام إلى ميلاد:

ـ تعرف ميلاد.. شعرك جميل.. لكنّه لا يتجاوز حدود الرؤية الأخلاقيّة العامّة..

يضحك ميلاد كطفل في مدرسة:

ـ يعني سامية أنّني عندما أتغزّل لا أقول للأنثى أشتهي أن أنام معك..!

يأتي صوت الراهب واثقًا:

Twitter: @ketab_n

ـ أيّها الشعراء.. مهما فعلتم ستظلّون مراهقين..

يضحك الجميع. أحلام التي لا تتكلّم إلّا فيما تحته لذّة وجنس، تتدخّل:

ـ وأنتم أيّها الروائيّون تولدون شيوخًا وتموتون عجزة. حين تقتلون الشاعر فيكم، يتحوّل سردكم إلى مجرّد مواعظ.

يفرغ الراهب كأسه. الجميع يتحوّل إليه:

ـ سيّدتي أحلام.. ألبرتو مورافيا لم يكن واعظًا في رواياته، وكذلك هنري ميلر والماركيز دو ساد.. هؤلاء أشعلوا غابات الرغبة في المتخيّل الإنساني.

لم تتدخّل كاميليا. كانت صامتة. هي هكذا دومًا منذ تعرّفت عليها. لا تتكلّم إلّا رسمًا بالألوان. لكن تعليقاتها القليلة والقصيرة، تكون دائمًا عميقة وفي الصميم. يحاول الراهب في كلّ حواراتنا أن يستفزّها:

ـ إيه كاميليا.. يبدو أنّك في حاجة لحامل لوحات وأصباغ لكي تتكرّمي علينا بالكلام..

رغم أنّنا في الغالب نكون أنيقات إلى حدّ الإباحيّة، إلّا أنّ أناقة كاميليا شيء آخر. بساطة وتناسق وحضور. تملك كاريزما نفتقدها نحن. ربّما يكون لتكوينها الأوروبي في البعثة الفرنسيّة دوره المؤثّر في ذلك. لكنّ الجميع كان يجدها مختلفة بشكل راق ونافذ. تطفئ سيجارتها في المنفضة وتسوّي جدائلها الطويلة خلف ظهرها. تبتسم بهدوء في وجه الراهب، وتجيب بفرنسيّة باذخة:

- cher Raheb, si je suis silencieuse c’est que je trouve que

Twitter: @ketab_n

vous manquiez tous, poètes et romanciers, de liberté et de finesse.

تصفّق أسلين بعفويّة. في حين يسود صمت غير عادي:

ـ برافو كامي.. معك حقّ. لذلك أجدني أكثر تحرّرًا على الركح، لأنّ جسدي لا يملك وسيلة أخرى تعوّضه عن التعبير الحقيقيّ.

لكنَّ ميلاد، الذي يبدو الأصغر فينا، لأنّ ملامحه لا تعكس عمره الحقيقي، يقف فجأة ويصرخ كأنّه يلقي قصيدة شعر:

ـ اسمعوا هذا الهراء.. الشعر سيّدتي كاميليا.. سيّدتي أسلين، هو روح الوجود. أوّل تفاعل بين الإنسان والعالم، تمّ التعبير عنه شعرًا. ارجعوا إلى الأساطير والمزامير والملاحم القديمة. لكنّ السرد والتمثيل والتشكيل هي أشكال تقنيّة معقّدة، لا تعكس غير ابتعاد الإنسان عن كينونة العالم.

هي هكذا أمسياتنا دائمًا. على هامش كلّ ملتقى إبداعي، نصرُّ أن نلتقي جميعًا. نسهر.. ندخّن.. نشرب.. وكثيرًا ما نصحو، وقد وجدنا أنّنا لم نختر رفيق السرير. كانت أسرارنا التي لا يعرفها غيرنا.

عندما صحوت ذلك اليوم، ووجدت الراهب نصف عار أمام النافذة، يدخّن ويتأمّل صخب الصباح، قلت له بشكل استفزازي:

ـ غريب.. لم تكن أنت..؟!

ضحك كسكّير حكيم، وأرسل شَعرَه الأسود الفاحم الطويل إلى الخلف:

Twitter: @ketab_n

ـ كنت تحلمين بميلاد. .

تذكّرت القصيدة التي أُلقيت بالأمس:

قلتُ:

كم يكفي من عراء

لأوصل حكمتي ضفاف شفتيك. .؟!

قلتِ:

هو كان بيننا بقهوته المُرَّة

بطفله الثمل في الأعماق

وكلُّ الأساطير الموغلة في أزجاله

توقّف نزوتي في منتصف النزيف. .

كأنّ الراهب يقرأ ما في أعماقي. وجدته يردّد الأبيات نفسها وهو واقف أمام النافذة يتأمّل صخب الصباح:

ـ تعرفين سامية. . أنتِ في هذه القصيدة قطّة حقيقيّة في لحظة تزاوج يحيط بك قطّان ذكران، لا أحد فيهما ينهزم ليتركِكِ للآخر. . كنتِ قريبة من عالم الروائيين. .

غادرت الفراش عارية تمامًا. أحسستُني مثل قصيدتي. لا أريد أن أخفي شيئًا. دخلت الحمّام واغتسلت. سمعت الراهب يسخر على طريقته المعهودة:

ـ لو كنتُ مكانك لما اغتسلت. . دعي عرق الرغبة المتوحّشة يتسلّل من لحمك إلى قلمك. .

ـ أيّها الفاجر. . ستقتلني أسلين حتمًا لو علمتْ أنّك نمت معي.

Twitter: @ketab_n

ـ لكن ما أعرفه هو أنّ أسلين هي عشيقة النوري.. فما دخلي أنا..؟

خرجت من الحمّام بالفوطة. شعري مبلّل، ونصفي العلويّ عار. تأمّلني الراهب كشرّير طيّب:

ـ من أجل هذا النصف الجسدي المبلّل، سأنزل لأطلب لك قهوة.

عاد بقهوة سوداء ذات رائحة أخّاذة. قبّلني وهو يضع الفنجان أمامي:

ـ أيّها الفاسق.. أسلين تحبّك.. بل الصحيح أنّها تحترق لكي تنام معك.

شربت قهوتي على مهل. سمعته يردّد:

كلّ العشيقات اللائي نمن فوق سطوري

لم يجدن غير أناملي

لزجر الآلهة..

اعتصرت شفتيه وتلمّظت رضابهما، ثم فركت أذنه وأنا أبتسم:

ـ تتلوّى فوق جسدي طوال الليل، وفي الصباح تسرق شِعْري.. أيّها الراهب الفاجر..

وجدتُني أقف أمامه وقد تخلّصت من الفوطة. كنت عارية تمامًا. وانسابت بقيّة الأبيات من فمي:

أيّها الراهب

كيف تقتلني كالأغنيات البذيئة؟!

Twitter: @ketab_n

سألْتِني.

قلتُ لكِ:

لماذا كان جميلاً في غيابه؟

قلتِ:

لأنّه كان أقلّ شحوبًا

من خاطرة في الخريف..

هل كان ميلاد مثل خاطرة في الخريف..؟ هل كان أقلّ شحوبًا..؟ أقلّ شحوبًا ممّن..؟ من الراهب؟ من النوري؟ من الآخرين الذين يثرثرون كثيرًا ويتجشّأون بكلّ عفويّة وينفجرون شبقًا ولذّة، ولا يرون للأخلاق أفقًا آخر بمعزل عن وحل الشوارع وروائح أجساد المومسات المتصبّبات عرقًا وقرفًا وأنانيّات الذوات؟ كنت أستغرب. كيف يمكن لشخص هادئ وصامت وغامض النظرات أن يخلق عالمًا من الحركة والشبق وتأوّهات القطط في فصول التزاوج!

عندما غادرنا الغرفة معًا، التفت نحوي:

ـ خرجنا للتوّ من عالمي الروائي الحقيقي لكي ندخل عالم المجتمع الزائف.

وضاعت سخريّته في دخان سجائره. وأنا كنت أستعجل العودة، لأنّني تأخّرت كثيرًا على نبيلة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ـ ٣ ـ

«إشراقات جماليّة». . أحلام تعود إليكم كلّ أسبوع عبر إذاعة الرباط الوطنيّة.

يبدأ المخرج العدّ العكسي من العشرة إلى الصفر، ثم ينطلق البرنامج. أغمز مهندس الصوت لكي أطمئنه على صفاء الصوت، فيرسل لي قبلة على الهواء. تعوّدت أن أقدّم «إشراقات جماليّة» كلّ أربعاء في تمام الساعة العاشرة ليلاً. كنت قد تخرّجت منذ أكثر من عشر سنوات من المعهد العالي للصحافة. وعبثًا حاولت أن أجد لنفسي موطئ قدم في الصحافة المكتوبة، لكن كلّ الجرائد اعتبرتني «طفلة» لا تصلح لذلك. كنت أحاول أن أقدّم نفسي كصحافيّة متحرّرة وبشكل غير تقليدي، لا أكتب سوى في موضوع واحد ووحيد: لماذا يعتبر الإنسان الكائن الجمالي الوحيد في العالم؟

جبتُ تقريبًا، طوال سنواتي الجامعيّة بكلّيّة الآداب بالرباط، قسم اللغة العربيّة وآدابها، وأثناء سنوات التكوين بالمعهد العالي للصحافة،

Twitter: @ketab_n

كلّ الروائع الإبداعيّة المكتوبة التي أنتجها الذوق الإنساني، من ملاحم الإغريق إلى «مئة عام من العزلة» لغابرييل غارسيا ماركيز. كنت أبحث عن إجابة منطقيّة لسؤال غير منطقي: لماذا اعتبرت الذائقة الإنسانيّة عبر العصور هذه الأعمال جميلة جدًّا وتستحقّ الخلود؟

في معهد الصحافة، لم يسمح لي أن أقوم بمثل هذا البحث، لأنّه بعيد عن عالم الصحافة التي لا تهتمّ بالجمال والعمق الفكري والذوق، بقدر ما تهتمّ بالوصول إلى أكبر عدد من القرّاء لتوسيع انتشارها والزيادة في مبيعاتها. لكنّني لم أتخلّ عن مشروعي.

أتذكّره، ذلك الروائي الساحر، غامض الأعماق. جئت لتغطية حدث توقيع روايته الجديدة: «الضياع في أحضان الراهب». كانت النسخة بين يدي، وكان اسمه واضحًا على الغلاف: مصطفى شفيقي. استغربت. منذ صدور الرواية، وأنا لا أسمع غير اسم واحد: الراهب، حتى اعتقدت أنّ هذا هو اسمه الحقيقي. حاولت أن أجد علاقة ما بين لقبه وعنوان الرواية. إحداهنّ قرأت الحيرة في عيوني، فابتسمت لي: هو هكذا غامض.. يشبه قدرًا يونانيًّا..

حاولت أن أبتسم لأردّ على تطفّلها. مدّت يدها نحوي:

ـ أسلين..

لم أفهم. وجدت لكنتها غريبة بعض الشيء، لكأنّها لكنة الأطلس المتوسّط. أومأت برأسها بالإيجاب وكأنّها قرأت ما بخاطري:

ـ نعم أمازيغيّة.. أسلين حيزان، خرِّيجة معهد التمثيل ومشروع ممثّلة فاشلة.

وجدت روحها خفيفة وكأنّها تشبه موّالاً ينحدر من جبل العياشي نحو منابع أمّ الربيع. قدّمت لها نفسي كذلك:

Twitter: @ketab_n

ـ أحلام زهيد.. مشروع صحافيّة ستفشل..

وضحكنا.

تقدّمت إليه بنسختي. رفع رأسه نحوي يسألني عن اسمي لكي يوقّع لي الكتاب:

ـ أحلام زهيد.. صحافيّة بلا أمل وعاشقة للجمال..

تعمّدت ألّا أضيف إلى عبارتي أيّ شيء يفسّر دلالة الجمال. وضع القلم من يده ولفّ شعره الأسود الطويل خلف قفاه. انحنى على النسخة، وكتب: إلى أحلام التي رسمت في خدّيها جمال الأحلام.. الراهب..

لم يكن متّسع من الوقت لكي أتعرّف عليه أكثر. الواقفون خلفي ينتظرون دورهم لتوقيع نسخهم. رأيت أسلين عند الباب تشير لي بحركة الوداع.

عندما عدت، غرقت في عالم الرواية. كانت هناك في غرفة الغسيل على السطح. صورتي البعيدة. طفلة، لم أتجاوز العاشرة من عمري. الصيف خانق. لا أضع على جسدي إلّا ثيابًا خفيفة وشفّافة. أبي لم يعد من العمل بعد، وأمّي تغطّ في نومها في غرفة المطبخ الرطبة. تعوّدتْ أن تَقيل بعد الغداء في المطبخ. الإرهاق والحرارة وامتلاء البطن، عوامل تهدّها تمامًا، فتستسلم سريعًا لقيلولتها الأبديّة الطويلة. كنت وحيدةَ والديَّ. أجد قيلولة أمّي ثقيلة جدًّا، كما أنّ غياب والدي يترك فراغًا صامتًا في حرارة الصيف. أتسلّل نحو غرفة الغسيل على سطح المنزل. أجده هناك. كمال ابن جارتنا خالتي زهوة. هو في مثل منّي تقريبًا. يتدلّى من الجدار الفاصل بين منزلنا ومنزلهم، ويأتي إلى غرفة الغسيل. نجلس على الأرضيّة الإسمنتيّة

Twitter: @ketab_n

الباردة. نمثّل.. نلعب، ونغسل وجوهنا بالماء، ثم نتسلّل إلى أسرارنا الصغيرة. أعبث بشفتيه، ويلاعب نهديَّ الصغيرين اللذين بدآ يتفتّحان. نلعق عرق جسدينا ونتعانق مثل عاشقين حقيقيين. أمثّل عروسًا ويمثّل عريسًا. ثم نتمدّد على الأرضيّة الباردة مثل زوجين في شهر عسل. عندما أسمع نحنحة أمّي في الأسفل، أعرف أنّها تستعدّ للخروج من «بياتها» الصيفي لما بعد الظهيرة، فأنهض. يسرع كمال نحو الجدار للعودة إلى منزلهم. نتواعد على الالتقاء في اليوم الثاني.

لم أكن أعرف أنّ لي جسدًا خاصًّا بي ومستقلًّا بأسراره الحارقة عن العالم، إلّا حين كنت أسمع أمّي وهي تردّد على مسامعي النشيد الكنائسي نفسه: كبرتِ يا أحلام.. تستّري.. عيب.. لا تلعبي بأعضائك.. سأكويك.. أنت الآن بنت.. وزين البنت حياؤها وتستّرها..

مع كمال على سطح منزلنا، وفي ملوحة العرق الفائر من لحمنا، كنت أطرح على نفسي سؤالاً مخنوقًا: لماذا علينا أن نخفي أعضاء جسدنا وهي جزء منّا؟ لماذا علينا ألّا نسمّي أعضاءنا التناسليّة بأسمائها الصريحة..؟

حتى مع كمال، عندما أرفع تنّورتي القصيرة، كنت أقول له ضاحكة: هل تريد أن ترى عشّ الطيور؟ كان يندهش وهو يقف أمام كهف الأسرار المظلم. يقف مصابًا بالرعب أن يتجاوز بحصانه إلى داخل الكهف. لكنّه كان يجيبني بعفويّته الطفوليّة: هل تريدين أن تري الثعبان الطويل الذي يتسلّل إلى العشّ لأكل الفراخ؟ ونسقط من الضحك. وربّما نغفو قليلاً من فرط الحرّ.

استيقظت ذات صباح. كانت أمّي تبكي وهي تضمّ خالتي زهوة

Twitter: @ketab_n

إلى صدرها. لم أر مشهدًا حزينًا من قبل مثل هذا المشهد. كان كمال يمسك بجلّابة أمّه ويتخفّى وراءها. في عينه احتراق مفاجئ. سمعت خالتي زهوة تقول لأمّي: والله الغربة قاسية ومريرة.. وهذه بلاد الروم.. لا أعرف لسانهم وعاداتهم.. لكنّها لقمة العيش..

هاجرت خالتي زهوة إلى فرنسا وهاجر معها كمال. كان والده قد سوّى كلّ الأوراق الرسميّة من أجل ما يسمّى بالتجمّع العائلي. لم أصعد إلى غرفة السطح في اليوم الأخير. ولم أخرج لوداع الجيران وهم يمتطون سيّارة برقم أجنبي. ولم أر كمال من يومها.

التقيت أسلين بعد حفلة توقيع رواية الراهب. صرنا صديقتين. كنت غارقة في عالم الرواية، مدفوعة بالبحث عن جواب لإشكاليّتي الأبديّة: أين يكمن سرّ الجمال في الأعمال الإبداعيّة الذي يحقّق لها الخلود؟

في أحد مقاهي الكورنيش بالرباط، وجدتني أسلين. كانت برفقة مجموعة من الشباب الممثّلين الذين يبحثون عن مكان تحت الشمس. حيّتني من بعيد، وتقدّمت نحوي:

ـ أوه أحلام بونجور..

ـ بونجور أسلين.. أيّة صدفة جميلة..!

جلست بقربي. كانت مرحة جدًّا. وجهها يوحي بالانشراح والبهجة. رأت الكتاب في يدي:

ـ سيتعبك هذا الرجيم..

طلبنا عصيرًا وقهوة إيطاليّة. وضعت الكتاب وتطلّعت إليها. تابعت حركاتها بشكل لا يخلو من الإعجاب. حركاتها فوضويّة بشكل

Twitter: @ketab_n

جميل، ونظراتها تخلق في كلّ لحظة تعبيرًا مفاجئًا:

ـ لماذا وصفته بالرجيم..؟

بسرعة أنهت عصيرها، لكنّها تناولت كأس قهوتها بشكل غريب. قرّبته من أنفها. تشمّمت رائحة البنّ، ووضعت أصبعها في الرغوة الطافية على سطح الكأس، ولعقتها على شاكلة أنثى تتعمّد الاستفزاز. كان صوتها يملأ الجوّ بنوع من الصخب الأليف. وراء لكنتها الأطلسيّة جبال ومروج وثلوج ومواويل أزليّة.

ـ أعتقد أنّكِ قرأت بودلير وإدجار آلن بو..

حرّكتُ رأسي بالإيجاب. تابعتْ كلامها:

ـ إذن فهمت لماذا أسميته بالرجيم..

سمعت السيّارة تغادر حيّنا القديم. الجارات يبكين ويتفوّهن بكلمات غير مفهومة. عرفت أنّني لن أرى كمال أبدًا. لن أراه لأنّني سمعت أمّي تقول وهي تمسح دموعها:

ـ على الأقلّ تخلّصت من كراء المنزل، ومن هذه الحومة البئيسة.. أمّا أنا..

انغلق جسدي. ذبلت أسراره وسقطت تفّاحاته على الأرض. لكنّ الجاذبيّة لم يتمّ اكتشافها.

في طريقي إلى الإعداديّة، كنت أمرّ أمامه يوميًّا. يوم هاجرت عائلة كمال، لم تجد ملوحة العرق الفائر في جسدي من يلعقها. عندما كنت أصعد إلى غرفة الغسيل بالسطح، لم أكن أجد ثعبانًا مخاتلاً يتسلّل من أعلى صرّة ذكوريّة نحو عشّ الطيور المختبئ خلف سليبي. كمال كان احتراق الرغبة في المسامّ. كان التفّاحة المحرّمة التي

Twitter: @ketab_n

جعلتني أنفصل عن جنّة البنوّة الآمنة، لأثب نحو مستقبل الذات المستقلّة بكلّ آلامها وصراعاتها ونقائضها. وأنا أمسّد ثعبان كمال بيدي، كنت أضحك فاسحة عفويّتي لسؤال سيحرقني فيما بعد: لماذا لا أمتلك ثعبانًا مثلك يا كمال..؟ كان وجهه يحمرّ. بالكاد أسمع جوابًا خافتًا: في عشّك يرقد ثعبان تسلّل قبل مجيئي..

وظللت أنتظر خروج الثعبان الراقد في عشّي. نسيت كمال، وانقطعت أخباره تمامًا، حتى غيّرت وجهة مساري من الابتدائيّة إلى الإعداديّة. لم أعد أتوجّه غربًا. صرت أتوجّه شرقًا. لم تكن الإعداديّة بعيدة عن منزلنا، لكنّني كنت أسلك الطريق نفسه يوميًّا للوصول إلى المؤسّسة. ورأيته هناك. في كلّ صباح، كنت أجده أمام باب منزلهم القصبي المغطّى باللبلاب، يشرب قهوة سوداء لا تتغيّر أبدًا، ويردّد أغنية فريد الأطرش نفسها التي لا تتغيّر أبدًا كذلك: «الحياة حلوة.. بس نفهمها..». بدا لي في الوهلة الأولى بطلاً هاربًا من سينما «النصر» في البلدة. نحيف بقامة طويلة وسحنة قمحيّة تميل إلى بعض السمرة. عيناه ضيّقتان وأنفه رقيق حادّ، لكنَّ شفتيه واسعتان وشعره أسود جافّ. دومًا يلفّ حول عنقه شالاً طويلاً بلون أزرق نيلي مثل طوارق الصحراء. أثارني لأنّه كان يعيش وحيدًا مع أمّه العجوز التي كانوا يسمونها «خالتي حبيبة»، ولأنّه كان يجلس أمام باب بيتهم القصبيّ البسيط المغطّى بلبلاب كثيف يكاد يحجب واجهة المدخل. لم يكن يهتمّ بأحد. كنت أراه يوميًّا يجلس أمام حجر ضخم، يحمل بيده مطرقة وإزميلاً. في البداية لم أكن أفهم شيئًا. كنت أستمتع بطرقاته على الحجر ودندناته الطربيّة. في طريق العودة، أجد الحجر قد بدأ يتّخذ شكل رأس بشري أو حيوان برّي. في عينيه الضيّقتين، كنت أحسّ أنّه يطرق باب الثعبان الراقد في عشّي الخفي. تعوّدت فيما بعد

Twitter: @ketab_n

أن أرى أمّه العجوز خالتي حبيبة، تصرخ في وجهه: اترك هذا المسخ وابحث لك عن شغل حقيقي.. الله يهديك يا إسماعيل..

هكذا عرفت اسمه، وعرفت أنّ اسمه الشائع في الحومة، وفي البلدة كلّها هو: إسماعيل ولد حبيبة، أو ولد حبيبة بكلّ بساطة.

كان نحّاتًا إذن. في عطل نهاية الأسبوع، كنت أراه يقود عربة صغيرة تحمل صخورًا يأتي بها من مكان ما لم أكن أعرفه. وجدت شبهًا بينه وبين الراهب، سوى أنّ الراهب ينحت على ذاكرة، وهو كان ينحت على حجر. تعرَّق جسدي من جديد. شممت رائحة لحمي الأنثوي، وتحرّكت فراخ عشّي.

لم يكن ينظر إليّ وأنا أمرّ أمامه، وأنا أتعمّد تسوية ضفائري أو خلع وزرتي وإعادة لبسها من جديد، وأنا أنحني لأعيد احتذاء صندالتي الجلديّة. كنت أصغرَ من أن يراني. لكنّه كان أكبر من قدرتي على تأجيل الرغبة. أخببته عن بعد، وعشت قصّة حبّي له كما لو كانت حقيقيّة. كانت خالتي حبيبة امرأة شعبيّة مخيفة ذات زعيق يزلزل الحومة بأكملها. وهو كان ذا هدوء رواقيّ. لقد أحببت فريد الأطرش وأحببت أسمهان، لأنّي احترقت بدندناته وهو ينحت ويشكِّل ويخلق من الجماد جمالاً مفقودًا على أرض الواقع. ربّما لهذا السبب عملت طوال حياتي على إيجاد جواب لإشكاليّتي المزمنة عن الجمال الإبداعي.

أفيق من شرودي. أجد الكورنيش صاخبًا بالمصطافين. رائحة البحر وحرارة الصيف وملوحة جسدي، تعيدني ثانية إلى رواية الراهب. هذا الرجيم الذي أعادني إلى عشّ الطيور الخفي.

لم يمرّ وقت طويل حتى تعرّفت عليه. كان برفقة أسلين في مقهى «المثلّث الأحمر». قدّمتني له:

Twitter: @ketab_n

ـ أحلام زهيد.. صحافيّة..

لم تكمل كلامها. وقف ومدّ يده بنوع من الهدوء الساخر:

ـ صحافيّة بلا أمل.. وعاشقة للجمال..

وضعت أصبعي على شفتي. تصنّعت نوعًا من الدهشة:

ـ لم أكن أعرف أنّ للروائيين ذاكرة من فولاذ..

طلب لي عصير باناشي، قبل أن يكمل كلامه:

ـ هل تعرفين آنستي أنّ الذاكرة هي المادّة الأولى للروائيين..؟!

ـ مثلما أنّ أحاسيس الذات الداخليّة هي المادّة الأولى للشعراء. لو كانت معنا سامية لما قالت أقلّ من ذلك..

عقّبت أسلين، وهي تحتسي عصيرها. ارتخيت بظهري على الكرسي، وقلت للراهب:

ـ قرأت يومًا رأيًا لعبد الله العروي يقول إنّ أساس الرواية هو كيفيّة تدبير الزمان.

كان الزمان حاضرًا بيننا. كان في عقده الثاني أو أكثر قليلاً، ولم أكن أتجاوز الرابعة عشرة من عمري. عبثًا حاولت لفت انتباهه بشتّى الطرق، لكنّي لم أنجح في إخراجه من صمت الحجر الذي كان يتحوّل تحت مطرقته وإزميله إلى حياة ناطقة. كلّ صديقاتي بالقسم كنّ يعبن عليّ تعلُّقي بفنّان غامض يفوقني سنًّا. لكنّني أحببته، أو هكذا صوّر لي الثعبان الراقد في عشّ الطيور. ما زلت إلى الآن كلّما عشقت شيئًا، أردّد أغنية فريد الأطرش: الحياة حلوة.. بس نفهمها.. حتى رواية الراهب، كنت أقرأها وأنا أضع في أذنيّ «كيت» يصلني بآيبود خزّنت فيه روائع الأغاني العربيّة. وظللت أحبّه على طريقتي الخاصّة. يوم

Twitter: @ketab_n

رأيت معه فتاة أخرى جميلة وذات طول فارع ورشاقة تدلّ على رقّة مدينيّة، جننت وأصبت بالذهول. كانت تجلس قربه أمام البيت القصبي، تضع رِجْلاً فوق رِجْل. ترتدي بنطلونَ جينز ضيّق على غير عادة بنات البلدة هنا. تشرب معه القهوة وتضحك بكلّ طلاقة وهي تتأمّل منحوتاته. كانت ضحكاتها تملأ الشارع الضيّق المارّ أمام بيتهم. كلّ الحكايات التي تصوّرتها انهارت. كلّ المغامرات التي خضتها معه تلاشت فجأة. كنت أراه يأخذني إلى سينما «النصر» أو إلى المشتل الكبير أسفلَ النهر، وإلى حقول الدوالي الفسيحة في الضواحي. أنا أضحك وهو يغنّي: الحياة حلوة. يتشمّم جدائلي الطويلة ويضع سبّابته على شفتيَّ المرتعشتين، وأنا أنتظر أن يتفطّن إلى عشّ الطيور لإيقاظ الثعبان الراقد. اندفعت نحوه ورميت محفظتي على الأرض. كنت أقول له:

ـ أيّها الخائن.. انتهى كلّ شيء بيننا.. تخونني أنا مع هذه الشيخة المزوّقة..

لا أتذكّر سوى عينيه الضيّقتين. ربّما صعقته المفاجأة. لم يقل شيئًا. كنت أفرّ مثل لبؤة جريحة. عندما ابتعدت، سمعت إحدى صديقاتي تقول لي:

ـ أيّتها الحمقاء.. إنّها صفيّة أخته.. أستاذة جامعيّة بالرباط.. الجميع هنا يناديها: صوفيا..

Twitter: @ketab_n

ـ ٤ ـ

كنت أبحث عن أفق يفوق الوطن. البلد العميق المنقوش في كهوف تاسيلي وصحراء ليبيا الكبرى ورأس يوبا الثاني المنحوت من نحاس. في الكتَّاب، كان الوطن يبدأ عند حوافر الجيش الزاحف خلف عقبة بن نافع، وفي «ليسيه طارق» بآزرو، كانت بلاد «تامزغا» تمتدّ من أراضي الباسك إلى واحات سيوة بمصر. كنت أعيش غربتين: بين العرب والفرنسيين. لكن تامزغا لم تكن مجرّد ردّ فعل إثني على ما سمّاه التاريخ الرسمي بالفتح العربي، ولم تكن مجرّد تماهٍ زائف مع الحضارة الهندأوروبيّة. كانت بلادًا بأكملها مزروعة في اللسان الأمازيغي وإيقاعات أحيدوس ومواويل أحواش والحماسة الحربيّة في الرقصات الريفيّة. كان أستاذ اللغة الفرنسيّة في ليسيه طارق يقول لي:

ـ اسمعي آنسة أسلين. . هناك حقيقة لا يمكن إنكارها، وهي أنّ الأنثروبولوجيا الفرنسيّة الأولى تمّت بدوافع كولونياليّة. لا مجال للجدال في ذلك. لماذا لا يمكن أن نقول بالمثل إنّ الكتابات العربيّة عن البربر هي كذلك كتابات استعماريّة. كلّ محتلّ يكتب التاريخ بعقليّة

Twitter: @ketab_n

المنتصر الذي لا تهمّه حقيقة المنهزم. لكنّ الشيء الوحيد الذي يمكن الاتّفاق عليه هو أنّ الإضافة التي قدّمتها الكتابات الكولونياليّة هي أنّها لم تستند إلى كتب ابن خلدون أو الناصري، وإنّما إلى الواقع الفعلي المعيش للأمازيغ.

كان القسم يصمت. لكلام الأستاذ الفرنسي وقع الهدوء والمنطق والعمق. فيما بعد، عرفت أنّ الكتّاب الكولونياليين الأوائل ذهبوا إلى عمق البلد العتيق؛ إلى الأحراش والقرى والمداشر الأمازيغيّة النائية. تعلّموا اللهجات الأطلسيّة والسوسيّة والريفيّة، مثلما تعلّموا العادات والتقاليد والعقليّة التي من خلالها يرى الأمازيغي العالم. كانت هذه هي نقطة القوّة التي جعلت لهذه الكتابات مكانة معيّنة.

كنت أصعد آزرو بتلالها وجبالها وأحراشها وصف الأرز المتناثر على طرقاتها، وأجد شبهًا أزليًا بين لكنة الحطّاب ومواويل الراقصات وبياض الثلج الناصع فوق جبال الأطلس المتوسّط.

قرب الموقد في بيتنا المبني من طوب أحمر وخشب وقرميد أرجواني محدَّب. أجده متفرّغًا لشايه الأبدي الذي لا ينتهي. «يبّا» (أبي) الذي لم يكن يتجاوز الأربعين من عمره، عندما كنت في العاشرة. ضامر، بملامح بيضاء منكمشة من تأثير المناخ الثلجي القاسي. يدفّئ يديه ويداعب «يمّا» (أمّي) بدندناته الأطلسيّة. أخي، طارق، الذي يكبرني بعشر سنوات، لا يكفّ عن الثرثرة. يتحدّث في كلّ شيء، وعن أيّ شيء. عن الثلج الذي يحاصر المدينة ولا يتوقّف أبدًا. عن نصيبنا القليل من حطب التدفئة الذي خصّصته السلطات لبيتنا. عن الخطابات الفرنسيّة في «ليسيه طارق». عن البعد البهيج في رقصة أحيدوس. هو منشرح بطبعه إلى حدّ النزق. لا يتوقّف عن الحركة والثرثرة. تنساب الأمازيغيّة من فمه كما تنساب الثلوج الذائبة

Twitter: @ketab_n

من جبل العياشي. وأنا أنظر في واجباتي المدرسيّة، أجد لذّة في الاستماع إلى عويل الرياح في الخارج وطقطقة الحطبات في الموقد. «يمّا» ترتدي دومًا ملابس بيضاء وصفراء، وتلفّ رأسها بحزام أرجواني ذي أهداب لامعة. تتفرّغ للموقد والحفاظ على درجة من الدفء في المنزل. ورغم أنّ «يمّا» صامتة وهادئة على عكس أخي طارق، فإنّها تتدخّل في كلّ مرّة لكي تعيد ولدها إلى هدوئه.

ـ إيه طارق.. من يسمعك يعتقد أنّك أنت الذي انتصرت في معركة «الهري».

فجأة يتوقّف الزمان. أرفع رأسي نحو «يبا». أجده مقذوفًا في مكان غير المكان، وزمان غير الزمان. لم يكن «يبا» مع موحا أو حمو الزياني في معركة الهري. هو سمع عنها فقط. توارثها مثلما تتوارث الأجيال ذاكرة الأسلاف. لم تكن تلك معركته، يقول طارق أخي.

أطوي الدفاتر المدرسيّة. أحسّ أنّ جوّ القسم في «ليسيه طارق»، يمتدّ حتى هنا بمنزلنا. يقف طارق أمام بارودة الفروسيّة المعلّقة في الحائط. أسمعه يردّد:

ـ مات والسلاح في يده.

لا يجيبه غير الصمت وعويل الرياح في الخارج. أنتبه إلى الزرابيّ الحمراء والحنادير الملوّنة بالأبيض والأحمر والزعفراني، والقدور الطينيّة المعلّقة في المطبخ، وصورة جدّي «حيزان» بلحيته الإثنولوجيّة ورزته الملفوفة فوق الأذنين وجلّابته البيضاء وتجاعيد وجهه التي تشبه تقاطيع الحقول المتدرّجة في الأطلس المتوسّط، وأحاول أن أصل إلى مذاق الشاي بين شفتيْ «يبا». يكمل طارق:

ـ لكنّه لم يستطع أن يمنحنا حتى حرّيّة اختيار أسمائنا الشخصيّة.

Twitter: @ketab_n

في مقهى التيرمينوس المقابل لمحطّة القطار الرباط ـ المدينة، كنت ضائعة بين سخرية الراهب ورومانسيّة ميلاد ووضوح النوري البارد. حتى كاميليا بدت غير متفاعلة مثل سامية. وحدها أحلام أحسّت بقرارة وجداني. ربّما لأنّها تنتمي إلى منطقة تعبق برائحة الأمازيغ.

الراهب ينفث دخان سيجارته الشقراء، ويشرب بيرته على مهل، ويحاول أن يرسم فضاء عامًّا للحكاية.

ـ تقولين كان أبوك يريد أن يسمّيك «كاهنة»..

أشيح عن سخريّته اللطيفة، ولا أجيب. يتكفّل النوري بالإجابة عنّي:

ـ التسمية من الحقوق التي تدخل ضمن الحرّيّات العامّة التي تكفلها الدولة المدنيّة العصريّة. «كاهنة» اسم كبقيّة الأسماء.

ميلاد الشاعر الذي لا يتكلّم إلّا عن الانزياحات اللغويّة، يشاركنا الحوار:

ـ المشكلة ليست في «كاهنة» كاسم، بل في دلالته. كلّ اسم ينزاح عن دلالته الأولى، لكنّه يظلّ مثقلاً بحمولة تاريخيّة وذاكرة حيّة، وأنتم تعرفون «الكاهنة الداهية»..

كأنّما تستيقظ كاميليا من شرودها.

ـ لا.. أنا لا أعرفها.

ـ طبعًا صديقتي. لكنّك تعرفين إزرا حاييم..

تردّ سامية بنوع من النرفزة.

يطفئ الراهب سيجارته في المنفضة، ويطلب بيرة أخرى:

Twitter: @ketab_n

ـ تعرفون أنّ الروائي الفاشل يشبه العالِم الفاشل..

تبرق عينا أحلام:

ـ بدأنا بالفلسفة سيّدي الراهب..

ـ أقصد بالعالِم الفاشل، العالم غير المبدع الذي ينصت للطبيعة ويصف التجربة كما هي، ويقف عند حدود الملاحظة المباشرة الأولى. الروائي الفاشل هو كذلك شخص يعيد ترديد التمثّلات الاجتماعيّة كما ترسّخت في مخيّلته من سنين، بحيث يرفعها إلى صفّ البداهات. على الروائي أن يرى فيما وراء الأشياء والعلاقات الظاهرة.

من خلال الأدخنة المتصاعدة في فضاء المقهى، كنت أراه. أخي طارق، وهو يضرب الأرض برجليه ويرطن بأمازيغيّة ممغربة:

ـ «يبا».. لا تسمح لهم أن يفرضوا عليك ما يريدونه من أسماء رسميّة..

و«يبا» يستمع ويحاول أن يستوعب. كنت أحمل اسم عائشة منذ ولادتي حتى بلوغي العاشرة. رجع طارق من الجامعة بفاس، حيث كان يتابع دراساته العليا، وقال لـ «يبا»:

ـ هل أنت الذي اخترت اسم عائشة لأختي..؟

وحكى له والدي ما جرى.

ذهب لتقييدي في سجلّات الحالة المدنيّة. قال له الضابط، بعد أن تفحّص الوثائق المطلوبة:

ـ ما الاسم الذي اخترته لبنتك؟

أجابه «يبا» بكلّ عفويّة:

Twitter: @ketab_n

ـ تمالوت..

ضحك الضابط بشكل ساخر:

ـ ما هذا التخلّف؟ ليس عندنا في سجلّ الأسماء الرسميّة مثل هذا الاسم.. لم لا تسمّيها مثلاً زينب أو فاطمة أو عائشة..؟

لم يقل «يبا» شيئًا، لأنّه أصلاً لم يفهم شيئًا. تكفّل الضابط بتقييدي في رسم الحالة المدنيّة تحت اسم عائشة.

سمع طارق الواقعة كلّها. ضرب كفًّا بكفّ، وقال:

ـ غدًا سنذهب إلى المحكمة لتغيير اسم عائشة..

لم تُقبل الدعوة على الفور. كنّا نسمع التبرير نفسه: على الاسم ألّا يكون منافيا للذوق العامّ..

كان طارق يردّ عليهم:

ـ كثير من الأسماء العربيّة منافية للذوق الأمازيغي العامّ.

لكنّنا أصررنا. رفضوا اسم «كاهنة» بشدّة. قالوا إنّ الاسم مرتبط بالكهانة والعرّافة والطقوس الوثنيّة والمسيحيّة. لكنّ الحقيقة أنّ الاسم كان يُحيل على الكاهنة الداهية، البطلة الأمازيغيّة التي تزعّمت مقاومة العرب القادمين من الشرق لاحتلال الشمال الإفريقي. لكنِ «يبا» وطارق تمكّنا في الأخير من فرض «أسلين» كاسم لي بديلاً عن عائشة.

امتدّت سهرتنا إلى ما بعد العاشرة ليلاً. شربنا من البيرة ما يكفي لكي نعيد بناء التاريخ والوطن من جديد. سبقتنا كاميليا، وأدّت ثمن المشاريب. لم تكن حالتنا تسمح أن نتجوّل في شارع محمّد الخامس ليلاً، أو أن ندخل مرقصًا ليليًّا لإكمال السهرة. ذهبنا إلى الفندق نفسه. وجدتُني في الغرفة نفسها مع النوري. تعرّفت عليه قبل أشهر. قدّمته لي كاميليا:

Twitter: @ketab_n

ـ نور الدين نجيب.. سينمائي مهاجر.. مُقيم بباريس.. لكنّه دائم التنقّل بين لبنان ومصر وسوريا ودول الخليج والدول المغاربيّة. نحن ندعوه: النوري..

كانت فرنسيّته راقية. لكنته الباريسيّة ذات وقع مخملي. بسيط في مظهره الخارجي، لكن حركاته توحي بعمق أصيل. كان قد شرب كثيرًا، لكنّه لم يفقد تركيزه وسلامة عباراته. تحت ماء الحمّام الساخن، كنّا عاريين تمامًا، ونحاول فقط التخلّص من عرق السهرة وروائح السجائر. وجدته قويّ البنية دون أن يفقد رشاقته. شعر صدره الأسود يغري بالسفر المجوني، ولحية ذقنه القصيرة تفضح ميوله السينمائيّة. عندما مرّر كيس الصابون على ظهري، تنمّلتْ مفاصلي. سمعت رطانته الرقيقة، وكأنّه يصوّر شريطًا في بريّة مجهولة. كنت كنزة الأوروبيّة بكلّ مفاتنها الأمازيغيّة المثيرة، وكان المولى إدريس، الفارس الجريح الهارب من موقعة فخّ على ظهر حصان محتضر. لم أجد غضاضة وأنا أرى فيه فارسًا عربيًّا. ربّما هي «الأنماط القديمة» التي تشكّل «اللاشعور الجمعي» التي تكلّم عليها غوستاف يونغ. في السرير، كان يكلّمني عن مشروعه السينمائي المقبل: الذهاب إلى المغرب العميق. قلت له: هل تقرأ ما بداخلي؟ حرّك رأسه بالنفي، وقال لي: ما قلتِه بالسهرة وضعني أمام رؤية جديدة. مللت أفلام الثرثرة والزواج والطلاق والإرث وصراع الأمّ والكنّة وبخور الساحرات.

فاجأنا الفجر ونحن ما زلنا ندردش تحت الفراش. تذكّرت أحيدوس التي تمتدّ إلى ما بعد الفجر. هي مضاجعة من دون سرير، لقاح الذاكرة والواقع. كانت حرّيّة الجسد الأنثوي أهمّ شيء فقده الأمازيغ في بلاد «الشرع».

Twitter: @ketab_n

التقينا على مائدة الفطور نفسها. وجوه متعبة، لكنّ الأجساد حرّرت مسامّها من كلّ الوصايا. حينها عرفت لماذا ارتبطت اللغات الأوروبيّة بالجسد، عندما سمعت النوري يقول للراهب:

Je me sens bien dans ma peau..

التفت الراهب نحو ميلاد وغمز بعينيه:

ـ كنت أعتقد أنّني الأبيقوري الوحيد..

أشعل النوري سيجارة شقراء، وعقّب على كلام الراهب:

ـ لا تتنطّع أيّها الراهب.. أنت روائي تعبّر عن إباحيّاتك باللغة والخيال. هل كنت ستمتلك الجرأة نفسها لو كنت مخرجًا سينمائيًّا لا تمتلك سوى الصورة الحيّة والجسد الفعلي وسيلتين للتعبير..؟!

لم يقل الراهب شيئًا. تدخّلت أنا:

ـ تعرفون.. مقياس الحداثة هو التحرّر الجسدي. نحن حضارة كلام فقط. ما إن يتعلّق الأمر بالجسد حتى ينتفض تحت جلودنا ألف جلّاد وجلّاد. لقد اخترت التمثيل لكي أواجه هذا التحدّي.

صفّق ميلاد ساخرًا:

ـ لقد بدأتِ بكسب الرهان منذ الآن..

ضحك الجميع من غمزه. أمّا أنا فقلت منشرحة:

ـ أيّها المبدعون.. لا حقّ لكم في ألّا تكونوا متحرّرين من كلّ شيء.

علّق الراهب:

ـ ربّما يكون التحرّر هو معيار الجمال الإبداعي الذي تبحثين

Twitter: @ketab_n

عنه. في السهرة القادمة سأعدم هذا المخرج المخنّث.

وباسني على شفتيّ قبل أن يلتفت إلى الأخريات:

ـ اتّفقنا.. لا حقّ لنا في ألّا نكون متحرّرين..

أوقفه ميلاد قبل الخروج:

ـ هل تصدّقوني حين أقول لكم إنّ أبا نواس هو شاعر استثنائي في الأدب العربي..؟!

بكلّ هدوئه المستفزّ، ردّ الراهب بسخريّته المريرة:

ـ شاعر استثنائي.. لأنّه كان الشاعر الوحيد غير الفحل.. وبلغة العصر: شاعر أومو homo مثليٌّ...

ـ ألا يدخل ذلك ضمن التحرّر الجسدي الذي نتحدّث عنه..؟

قالت أحلام..

أكمل ميلاد:

ـ لأنّه الشاعر الوحيد الذي لم يتعرّض للاضطهاد رغم مجونه وخمريّاته الفاضحة. معظم الفقهاء والحكّام كانوا يحفظون شعره عن ظهر قلب في مجالسهم الخاصّة، لأنّ شعره كان إفصاحًا عن حقيقة الجسد التي لا يمكن إنكارها.

التفت ميلاد نحوي. أشار إلى سامية بيديه:

ـ أحبّ هذه الشاعرة لأنّها تكتب بجسدها، ولهذا أجد نصّها حيًّا، مثيرًا ومتدفّقًا. لكن أنتِ أسلين ستمثّلين بجسدك. سيكون قلمَك المادّي المرئي والمتجسّد أمام آلاف العيون الحاقدة الغاضبة الموتورة والمكبوتة جسديًّا وعرقيًّا، فهل ستكونين مارلين مونرو المغرب..؟

Twitter: @ketab_n

خفضت رأسي، وقلت:

ـ أكيد لا. لكنّي لن أتنازل عن حقّي في تحرير جسدي من كلّ رؤية لاهوتيّة أو أخلاقيّة.

Twitter: @ketab_n

ـ ٥ ـ

ليالي الأرق البيضاء. الشخوص التي تنفلت من قلمي، وممّا أخبّئه من أقدار. عشرات الكتب المتناثرة فوق مكتبي. ليس للوقت إيقاع. تتحوّل الساعات إلى ثوان، وتتجمّد الثواني كأزليّة إلٰهيّة. في داخلي أصوات تغنّي؛ أماكن تعبق بعرق الدواب والناس؛ أسرار تحترق حالما تصل الغلاف الجوّي المحيط بالوعي. تتلوّى سامية فوقي كقطّة من نار، ونحن في سفريات لا تنتهي. تلعق صدري بشهوة كاوية:

ـ أيّها الراهب.. وددت لو أعرف ما يختبئ خلف هذه الملوحة الراشحة في جسدك..!

أمدّ يدي أسفل بطنها، أتلمّس كهفها الساخن:

ـ لا شيء سامية.. الملوحة شراع الراهب للوصول إلى سواحل قارّتك المجهولة...

أحاول أن أتذكّر كي أنسف رهاب الورقة البيضاء. هي طريقتي

Twitter: @ketab_n

دومًا عندما أجلس للكتابة. أتذكّر فقط لحظاتي المنفلتة مع نساء أعرفهنّ، وعابرات تتلاشى وجوههنّ في الصباح عندما يغادرن الشقّة. تضمّني سامية بكلّ قوّة وتتأوّه عندما أعبث بمجاهيل كهفها. أفصّل على جسدها روايتي القادمة. خلف كلّ تأوّه مشهدٌ، ووراء كلّ رعشة شخوص تحاول الانفلات من شرنقاتها. عندما تمسك سامية بقضيبي أنتفض. وسامية لا تخلو من دعابة وسخرية:

ـ هذا هو السارد.. لو قتلته الآن سينهار كلّ عالمك الروائي..!

ربّما لم تكذب سامية. أجد الرواية مضاجعة حقيقيّة. معظم الروايات العربيّة هي مجرّد عوالم أخلاقيّة متأدّبة، تشبه مراهقًا يقول لوالديه: أريد أن أتزوّج على سُنَّة الله ورسوله، عوض أن يقول لهم الحقيقة: أريد أن أضاجع أنثى للحصول على اللذّة. لذلك تبدو الكتابات العربيّة بدون أورجازم. هي احتكاك جسدين صغيرين لم يصلا بعد مرحلة البلوغ.

لا أشعر بنور الفجر يتسلّل عبر النافذة. ضائع بين أدخنة سجائري وبيرة الهينكن. كيف أكتب؟ كيف أبعث الحياة فيما أكتب؟

قالت لي سامية: عمّاذا تبحث أيّها الراهب.. كلّ النساء طوع «ساردك»..؟

وتقرص قضيبي بأظافرها الطويلة. أتصنَّع الدهشة: كلّ النساء..؟! هل تجديني هارونَ رشيد عصريًّا..؟

تغمض سامية عينيها، وأسكت أنا. هذا يشبه «اتّفاقًا جماعيًّا» بيننا: لا غيرة.. لا وصايا.. لا نفاق.. كلّنا أسياد أسرارنا الصغيرة: أنا.. سامية.. كاميليا.. أسلين.. أحلام.. النوري.. ميلاد. ولعوالمنا عنوان واحد: ملوحة الجسد.

Twitter: @ketab_n

أسوِّد كثيرًا قبل أن أكتب حرفًا واحدًا. أستعين دائمًا بأغاني البلوز الأميركيّة. أجد فيها فرحًا يشبه المساءات المطريّة لطفولتي، رغم مسحة الحزن «الأزرق» المسيطرة عليها. أغاني البلوز في هدوئها الشجيّ وارتباطها بنبض المكان المترسّب في الدم، تقترب كثيرًا من إيقاعات كناوة في الجنوب المغربي. لكن لا أعرف لماذا ننظر لكلّ شيء مرتبط بالمكان والذاكرة نظرة دونيّة؟

قالت لي: سأضيع في أحضانك أيّها الراهب. تذكّرت ملامحها البيضاء وقامتها المتوسّطة وعينيها الماكرتين كقافية جاهليّة، وهي تلقي قصائدها في الصالون الشعري بمدينة الدار البيضاء. كانت برفقة أحلام وكاميليا. قلت لها: ليس في أحضان الراهب غير سارد يتلوّى بحثًا عن فرائس بين شخوصه الروائيّة. أوحت لي ملاحظتها بفكرة روايتي الجديدة. كانت تبحث عنّي في نظراتها الماكرة. لم أعقّب على قصائدها. سمعت أحلام تقدّمها لي: سامية حوران.. شاعرة من..

لم أدعها تكمل. عقّبت بنوع من الدعابة: من الأعماق الحارقة..

ازداد مكر عينيها. انتهى الصالون الشعري، وتعشّينا سويّة. عندما افترقنا، ظلّت صامتة. سلّمت بفتور عندما افترقنا. غافلت كاميليا وأحلام، وعدت إلى المطعم. وجدتها صامتة كما تركتها. اقتربت منها، وبجرأة دونجوانيّة قبّلتها على شفتيها، ثم انصرفت.

في طريق العودة، سمعت صوتها على المحمول: ماذا فعلت أيّها الراهب.. لقد أحرقت شجرة لتنبت غابة..؟!

في الأيّام التي جمعتنا فيما بعد، حكت لي وقائع من طفولتها حتى انتهت إلى بنتها نبيلة. في حكيها، كانت معالم روايتي تتشكّل في

Twitter: @ketab_n

الوجدان والوعي. كانت ماكرة جدًّا. حين حدّثتني على المحمول عن وقع القبلة على جسدها: أنا أشبه الأميرة النائمة في الغابة. الأميرة التي كانت تنتظر الفارس الذي سيزيل التفّاحة المسمومة العالقة في حنجرتها لتستفيق. كانت قبلتي ترياقًا للسمّ المنتشر في جسدها. لقد أيقظت التنّين، أو ربّما فتحت علبة الباندورا. منحتني ملاحظاتها الماكرة رؤية مختلفة لعملي الروائي: لماذا لا أجعل جسدي علبة باندورا تنفتح فجأة وبشكل عنيف..؟

ـ بهذا الشكل سأحبّك أكثر أيّها الراهب..

وتلاعبت بقضيبي. سامية شاعرة صريحة. تكتب مثلما تضاجع أو مثلما تغنّي، وتضاجع أو تغنّي مثلما تكتب. أحببت فوران جسدها. كلّما نمنا في سرير واحد، يولد مشهد غير منتظر لروايتي الجديدة. «أعرف أنّني سأظهر في روايتك قحبة لا تخفي غابة فرجها..!»، تقول لي. أذكّرها بأحد أفلام مارتن سكورسيزي القديمة، حيث نرى فرجًا عملاقًا يملأ الشاشة ثم ينتفخ ليدخل فيه مجموعة من الأشخاص، وكأنّه يبتلعهم. تعيدني هي إلى جوّ الرواية: «عمّاذا تبحث أيّها الراهب..؟!».

عمّاذا أبحث..؟ سؤال سامية لم يكن سؤالاً بسيطًا. كان آثمًا في مكره. قال لي النوري: «لن تكون جديرًا بعالم الروائيين إذا لم تتخلّص من جبّة الفقيه فيك..!». كنّا بصدد الحديث عن مشاريعنا الإبداعيّة، وكنت أكلّمهم عن روايتي الجديدة. قالت له أحلام: لا تخف على الراهب.. لقد تعرّى من زمان.. كاميليا التي تظلّ دومًا مُقِلّة في الكلام ويكون لكلماتها فعل الشذرة الملتهبة، رفعت كأس الكونياك في اتّجاهي، وتعمّدت خفض صوتها: هل تستطيع أن تصل في بوحك الجريء إلى درجة جان جاك روسّو في اعترافاته..؟ قرع النوري كأسه

Twitter: @ketab_n

بكأسها وردّ: كما قال أندري جيد: بالعواطف النبيلة نخلق أدبًا رديئًا.

أمام الورقة البيضاء، أبدو شخصًا آخر. من يتكلّم في داخلي؟ جسدي.. وعيي.. عائلتي.. أقراني.. الناس في بلدتي.. الفقيه المتجهّم في رؤاي..؟ من..؟ سامية الماكرة هي أقدرُنا على قراءة الأعماق، تلقي بجدائلها في الهواء، وفي حركتها سؤال مباغت: هل تعرفون لماذا شكّلت «الخبز الحافي» استثناء في الكتابة المغربيّة؟ نصمت، لأنّنا نادرًا ما نتحدّث عن مبدعين مغاربة. يجيب النوري: لأنّ وراءها ترجمة بول بولز والطاهر بنجلون. تضحك سامية: ربّما.. لكن هناك ترجمات سابقة لأعمال مغربيّة لم تحقّق هذا الاستثناء.. أيّها السادة، لقد كان محمّد شكري طفلاً لم يضع سوطًا على جسده وتركه يحكي بكلّ حرّيّة. وبما أنّ الجسد ليس ميتافيزيقيًّا أو خارج الواقع، فقد سافرنا معه في حواري طنجة وفنادقها الرخيصة وصعاليكها الذين يسرقون فتات الخبز في الموانئ ويضاجعون بعضهم، والطفل الذي يصرخ في كلّ لحظة: كم أتمنّى موتك أيّها الأب السافل..!

جمعت أوراقي وانتهى سحر الليل والفجر. لم تعد تغريني الورقة البيضاء. على علبة الباندورا أن تنفتح. معظم المتن الروائي العربي الذي قرأته حتى الآن، كان مسكنة روحيّة وخنوعًا أخلاقيًّا. كان هروبًا عن أوشام الجسد المالحة التي تقطر حكيًا.

الحدوس الأولى للرواية تتشكّل. لكن كم يلزمني من مطرقة لأحطّم مصطفى شفيقي، وأنثر شظايا أوشامه في الفراغ الروائي المرعب..!؟

في دانسينغ «الليل والنهار»، كان قابعًا هناك في صخب الراقصين ومجون السكارى وأدخنة الساهرين. وحيدًا في صمته، يتسلّل إلى منزلهم خلسة كمرتدّ عن ملّة متشدّدة. هل أنت أنا أيّها الطفل

Twitter: @ketab_n

الصامت؟ ما الذي فعلته..؟ لم أكن أتجاوز السابعة من عمري حين فاجأتني أمّي ملتصقًا بجسد صديقي جلال. كنّا عاريين تمامًا، نتبادل أدوار الفعل والانفعال. لم نكن نعرف سوى شيء واحد: إغراءات الجسد هي لعبة الأطفال. صفعت أمّي جلال بكلّ قوّة حتى تهاوى. بالكاد ارتدى ملابسه. أمّا أنا، فلم تسمح لي بذلك. أبقتني عاريًا، ونزلت بي من السطح إلى المطبخ. وضعت سفودًا على النار حتى احمرّ، ثم وضعته أسفلَ صرّتي. لم أصرخ، لأنّني لم أشعر بأيّ شيء. أغمي عليّ في الحال. عندما استيقظت وجدت أثر السفود الحامي على جسدي، وحملته وشمًا لا ينمحي.

رقصت ودخّنت وسكرت وتكلّمت حتى حدود الفجر. لم تكن الشلّة معي. كان «هو» معي في كلّ مكان. أسفلَ الصرّة؛ في غور الذاكرة؛ في عيون الأمّ التي تحرق الرجولة؛ في جسد جلال العاري وهو يلتصق بي صعودًا وهبوطًا. كان في مسامي؛ في عَرَقي؛ في كوابيسي؛ في خُواري الحيواني فوق أجساد اللائي عبرن سريري. أيقظتني يومًا كاميليا. كنّا معًا في فراش واحد بفيلّاها الراقية بأكدال. ناولتني كأس ماء بارد وأحاطتني بذراعيها العاريتين. حينها أحسست بعبق الأنثى الذي لا يشبه كيَّ الأمّ. بكيت بحرقة على نهديها المتحفّزين. تركتني أبكي وأبكي حتى انهدّ جسدي. أخذت وجهي بين يديها، وقالت لي:

- صالِح الطفلَ المحروق في داخلك..!

اندهشت. عبثت أناملها الرقيقة بشعري. كوابيسك قالت كلّ شيء. لكلّ جسد كوابيسه المخيفة.. أسرّتْ لي.

ليلتها نمت في حضنها مثل طفل غير محترق. لم أطلب جسدها. كنت أحيا في روائحها الأنثويّة والإنسانيّة.

Twitter: @ketab_n

ـ ٦ ـ

أنت من طينة الحسن بن هانئ. لم تكذب سامية. كانت تعتقد أنّني شاعر خمرة وامرأة وليل فقط. شِعرك حانة بأكملها، تستطرد سامية. كنّا في رحلة شتويّة بمدينة إيفران. دعتنا أسلين لنزور مناطق الأطلس المتوسّط. بقدر ما كان المناخ قاسيًا ببرده وثلجه، بقدر ما كانت المنطقة ذات هدوء شاعري. قلت لأسلين: الآن أعرف لماذا تتّسم رقصات أحيدوس بكلّ هذا التأمّل الحالم. أشارت إلى أشجار الأرز والسرو التي تغطّي المكان بأكمله، وإلى القمم المجلّلة بالثلوج والمياه المنحدرة من الأعلى، وقالت: لو كنت تعرف الأمازيغيّة لتمتّعت بكلّ هذه المشاهد الخضراء في أشعار الأمازيغ. ظللت مندهشًا. من آزرو إلى إيفران إلى إيموزار، كنت منغمسًا داخل قصيدة رعويّة عذراء. لم يترك الراهب الفرصة تمرّ. قال بسخريّته اللاذعة: كيف تتعرّى الأمازيغيّات في طقس بارد، وتتحجّب العربيّات في طقس قائظ..؟ طلبنا من سامية أن تقرأ بعضًا من أشعارها، ونحن نقف في «راس الما»، غير قادرين على لمس المياه المتدفّقة من فرط برودتها.

Twitter: @ketab_n

قالت سامية: بل نطلب ذلك من ميلاد.. هيّا يا نواسي المغرب..! التفتُّ نحوها شبهَ غاضب، وقلت لها: ما سرّ ولعك بتلقيبي بالنواسي..؟ صفّقت أحلام وضحكت كاميليا، بينما قرفصت أسلين تنتظر أن أبدأ. قرأت. لكنّني لم أجد تناغمًا بين المكان وبين ما قرأت. قلت: الأفضل أن تغنّي لنا أسلين بعض المواويل الأطلسيّة القديمة.

غنّت أسلين ورقصنا معها. أحسسنا بفرح يرشح من نبض الأعالي. في الليل، تحلّقنا حول مواقد النار في شاليه صغير اكترته أسلين لنا. كانت سامية ملتصقة بي، وكاميليا نائمة في أحضان الراهب، بينما كانت أحلام منهمكة في وشوشة غير مسموعة مع النوري. وحدها أسلين، كانت تسهر على تجهيز العشاء ودفع الحطب داخل الموقد وإعداد الشاي والبيرة. الدفء داخل الشاليه يعطي لصوت الريح وسقوط الثلج مذاقًا أسطوريًّا. الشاليه صغير ومبنيٌّ من حجر وخشب وقرميد أحمر. حجرتان صغيرتان وصالون دائري صغير كذلك ومطبخ بسيط وحمّام، ثم حديقة خارجيّة تبدو عليها علامات الإهمال. سمعت سامية تقول لي بصوت خفيض: أعرف لماذا كانت قراءتك اليوم باردة..! وغمزت بعينيها. قلت لها: ربّما لأنّ الجوّ بارد. ازدادت التصاقًا بي، وازداد صوتها انخفاضًا: ربّما لأنّ اللغة هي الباردة..

سامية ذات ملاحظات عميقة وماكرة. أحسّت أنّ لغتي العربيّة المحمّلة برمال الصحراء وجفاف البدو عاجزة عن الوصول إلى خضرة الأشجار وماء الأعالي ونمير الينابيع في الأطلس المتوسّط. وافقتها على ملاحظتها. كانت البيرة تتكفّل بإخراجي من تحفّظاتي. وجدتني في الفراش ألعق نهديْ سامية وأتلوّى فوق خصرها الرشيق. كانت

Twitter: @ketab_n

رائحة البيرة تنبعث من فمها بشكل مهيّج. قلبتها على ظهرها، وقبّلتها من الرقبة حتى القدمين، وعلتني مثل مهرة في حالة حرارة جنسيّة. أيّها النواسي.. قالت لي.. كيف تجرؤ على الفحولة..؟ لم أفهم. لكنّها صمتت عندما وصلتُ إلى قمّة الأورجازم. تراخت فوقي بكامل جسدها. أردت الانفكاك عنها، قالت لي: بليز.. لا تخرجه.. دعني أتحسّس عرقًا يكتب قصائدي. بقينا ملتصقيْن. لم نسمع سوى مفاصل جسمينا، ولم نشمّ سوى روائح عرقنا. ثم فجأة تركتْ جسدي وتمدّدتْ جانبي. أحسست أنّها تريد أن تقول شيئًا: هيّا تكلمي.. vas - y.. crache le morceau.. كما يقول الفرنسيّون. التفتت نحوي. كان وجهها صادقًا في نظراته: لماذا تتعمّد أن تكون غامضًا، ميلاد..؟ قالت لي. أجبتها: كيف أكون غامضًا وقد ظلّ قضيبي رهينة بفرجك..؟! قرصتْ أذني: لا أقصد ذلك أيّها الفاجر.. وماذا تقصدين يا مريم العذراء..؟ قلت لها. سوّتْ شعرها إلى الخلف، وقالت لي: أحسّ وراء شِعرك ونظراتك شيئًا ما، ليتني أصل إليه. في الغد أعطيتها أجندة مذكّراتي، وطلبت منها ألّا تقرأها إلّا حين نعود من إيفران.

تعوّدت أن أراه يعود متعبًا من الشغل. كان أبي معاوِنَ بنَّاء. يشتغل بأجر زهيد في اليوم. يخلط الإسمنت، يحمل الأحجار والطوب والأخشاب، يحفر الأساسات، ويستحمل عصبيّة البنَّاء المعلّم البذيئة، حيث يشنّ عليه حربًا من السبّ والقذف بسبب أو بدون سبب. يخرج من السادسة صباحًا ولا يعود إلّا في السادسة مساء. يستريح يومًا واحدًا في الأسبوع كلّ أربعاء. يذهب إلى السوق ويقتني بعض ما يلزمنا: زيت.. سكّر.. طحين.. بهارات، وقناني فارغة لا تملّ أمّي من طلبها. كانت تملأها بالحوامض المرقّدة والزيتون المخلّل،

Twitter: @ketab_n

وتضعها على رفوف المطبخ. كانت أمّي تبدو شابّة وجميلة وغير لائقة بأبي الكهل البئيس. أراها طوال اليوم تعتني بزينتها وأناقتها. رغم فقرنا، لم تنس أمّي أبدًا أن تضع «العكر» الأحمر الرخيص على شفتيها، وأن تنظّف أسنانها بالسواك، وتكحّل عينيها. كانت أختي ربيعة التي تصغرني بسنتين تشبهها في كلّ شيء.

تلتفت سامية نحو ابنتها نبيلة التي تنام جنبها ملتصقة بخاصرتها: ما الذي يخفي هذا الشاعر القلق..؟ وتقلّب صفحات المذكّرات بين يديها. ماما.. هل ميلاد يحبّك..؟ تسأل نبيلة. تنتبه سامية فجأة، وتضع الأجندة على صدرها: هل تعرفين أنّني لم أتخيّل مثل هذا السؤال.. تبتعد نبيلة عن خاصرة أمّها: فلماذا تصاحبينه..؟ لماذا يعطيك أسراره لتقرئيها..؟

تبحث سامية عن جواب: ربّما لأنّنا شاعران.. ربّما..

أبي يزداد انكماشًا وشيخوخة، وأمّي تزداد فتنة وإثارة. في كلّ مساء، عندما يعود أبي منهدًّا من شغله، لا ينتبه إلى جسد زوجته الفائر. لا يسأل ما إذا كان «العكر» الأحمر الرخيص هو سبب ألقها، رغم الفقر الذي يخيّم على منزلنا الحقير في الحومة المنتنة برائحة المجاري وروث البهائم وخراء الساكنة وجيف الحيوانات السائبة والمزابل التي تكتسح المجال في كلّ يوم. كنت دائمًا أسمع ما يشبه الغمز الماكر عندما أمرّ أمام أقراني: ولد زينة.. وزينة زوينة.. وولدها ولد الزنا..! ولا أفهم.

كنت أعود من المدرسة مذعورًا وخائفًا، أشبه حَمَلاً ضيّع رائحة أمّه. أجد ربيعة وقد سبقتني إلى المنزل، ولا أجد أمّي. أبي لا يعود قبل السادسة مساء بعشرين دقيقة أو أقلّ. كنت أعرف ذلك من خلال

Twitter: @ketab_n

مسلسل «الأزليّة» في الراديو، الذي كان يبدأ في الخامسة وينتهي قبل السادسة بربع ساعة تقريبًا.

لا أحد ينسبني لأبي. لا أحد يذكر اسم أبي. وحتى عندما يتناسى أهل الحومة نسبتي لأمّي، ينادوني: «ولد البناي». أنا ابن بنّاء، بل مجرّد مساعد بنّاء بئيس، بلا اسم، بلا ملامح، بلا حضور.

في السادسة، يعود أبي مسحوقًا كأيّة حصاة على الطريق تدوسها آلاف الأقدام والقوائم والعجلات. لأتفه سبب تثور أمّي في وجهه: لماذا لا تترك ملابس البناء في ورشة الشغل؟ لماذا لم تحضر معك الخبز؟ ماذا ستأكل الآن؟ هل أنا خدّامة في بيتك الحقير؟ الله يتوب عليّ من هذه العيشة! وأبي واقف في خنوع لا يقول شيئًا. تعوّد على موّال البؤس اليومي. يتثاقل في مشيته ليدخل المطبخ. أسمعه يشرب شايًا باردًا ويقرض خبزًا بائتًا، ثم يعود ليسقط من تعبه في فناء المنزل، وينام كأيّ حيوان تافه.

في أيّام القيظ، كنت أرى أمّي تدخل المرحاض العفن لتغتسل. كان المرحاض بلا باب. فقط ستارة من قماش بال يتدلّى ساترًا ما يوجد بالداخل. أغافل ربيعة، وأتسلّل مثل قطّ لأسمع صوت الماء ينزل على جسد أمّي. أسمعها تغنّي وهي تستحمّ. ربّما لهذا السبب تجرّأت على الاقتراب من المرحاض. كان غناؤها مثيرًا ومستفزًّا، ويشبه الغناء الذي نسمعه من الشيخات في الأعراس الشعبيّة. هي لم تكن تغنّي. كانت تحتفل بجسدها. كانت تدلّع لحمها كأنّها تغري مجهولاً لا يراه إلّا هي.

بدأت أقترب من الستارة. كانت شفّافة جدًّا. صعقت عندما رأيت أمّي عارية تمامًا لأوّل مرّة. كانت صبيّة مغرية تتلوّى وهي تمرّر كيس

Twitter: @ketab_n

الصابون بين نهديها وتحت إبطيها وأسفلَ صرّتها وبين فخذيها وجذعها وخاصرتها، ليصل قدميها. في تلك اللحظة، كنت أنسى كلّ شيء، وأجد لأمّي عذرها الأنثوي حين تسبّ أبي. كانت صبيّة منذورة للفتنة والحياة. وكان أبي جُعَلاً منذورًا لتكوير فضلات البهائم. تمنّيت أن أظلّ صغيرًا لأحافظ على لذّة الذهاب مع أمّي إلى الحمّام الشعبي. ولكنّني تجاوزت الثالثة من عمري. حتى ذاكرتي لم تعد تحتفظ بأيّ شيء عن حمّام النساء. تعوّدت على التلصّص على جسد أمّي. حتى وهي ترتدي ملابسها الداخليّة، كانت دائمًا مثيرة ومشهّية. الآن وقد كبرت، صرت على قناعة بأنّ أمّي كانت على علم بشيطنتي، ولم تفعل شيئًا. كنت أرى نظراتها الخبيثة التي توحي بأنّها تعرف ولكنّها تمكر. لقد تواطأنا على اللعبة من دون أن نتّفق صراحة على ذلك.

أراها مضرّجة في دمائها. أختي ربيعة تصرخ وتولول، وأبي ذاهل عن العالم. في يده سكّين مطبخ يقطر دمًا.

لم يعد أبي في السادسة كما اعتاد. طرده المقاول الكبير المشرف العامّ على البناء، وعاد مباشرة بعد الثانية زوالاً. كنت في المدرسة. حصّتنا الزواليّة تنتهي في الثالثة. عندما دخلت، وجدت أمّي تصرخ في وجه أبي مثل لبؤة شرسة: نعم.. هو صاحبي وسيّدك.. ولا أخجل أن أقولها.

لم أرَ الشخص الآخر الذي تتكلّم عليه. رأيته يهرب أمام أبي حين باغته في المنزل مع أمّي. انهار أبي. أُصيب بالخرس، وأمّي تقفز لتنشب عينيها وزعيقها في روحه: هل تعتقد أنّ دريهماتك البئيسة هي التي تعيلنا؟ الله يخلف على «هذا».. وأشارت إلى مؤخّرتها ومقدّمتها. نعم لولا «هذا».. وتصرّ على تثبيت أصبعها في «مقدّمتها».. لمتنا من الجوع قبل أن نولد.. ولما ذهب ابنك وبنتك إلى المدرسة.. ثم

Twitter: @ketab_n

تصرخ وتزعق وتضرب البيت بقدميها جيئة وذهابًا.

لكنّها كانت مضرّجة في دمائها. السكّين في يد أبي، وربيعة تصرخ. الجيران يملأون فناء المنزل، ويحاولون تهدئة الأجواء. سمعت سيّارة البوليس وسيّارة الإسعاف تدخلان الحومة. وغاب أبي عن الأنظار. شيء واحد أذكره: عينيْ أبي. البوليس يخرجه مصفّدًا، وعلى يديه بقع دم. كانت عيناه تنظران إليّ. لم يكن فيهما ضراعة أو انكسار أو أسف. كان ينظر إليّ بلا معنى، وأنا كنت أتحاشى عينيه وأنظر في الأرض. ما حدث فيما بعد كان أقسى. رفض جدّي وجدّتي أن يتبنّيانا، أنا وأختي ربيعة. كانا فقيرين معدمين، هرمين وبلا سند. ولم يكن لنا أعمام. أخوالنا رفضوا حتى استلام جثّة أمّي وحضور دفنها. هكذا دخلنا الخيريّة وتربّينا فيها. لم تمض سوى ثلاث سنوات حتى جاءت امرأة بدينة بأسنان من نُقرة إلى الخيريّة بأوراق رسميّة، وتبنّت أختي. بينما ظللت أنا في الملجأ الذي تحوّل إلى دار أطفال، حتى حصلت على البكالوريا.

دخلت الخيريّة باسم مولود مودي. لكن إحدى المربّيات انتبهت إلى قدراتي الكتابيّة، كما انتبهت إلى وسامتي، فسمّتني «ميلاد». كانت شابّة لا تتجاوز الثلاثين، وقريبة الشبه من أمّي. لكنّها كانت ذات صرامة تربويّة منتجة. عندما قرأت إنشاءاتي المدرسيّة، أحسّت بما يختفي في كتاباتي من تميّز غير عادي. أحضرت دواوين وروايات عربيّة وعالميّة مترجمة وبالفرنسيّة. وأصرّت أن أكون ذات يوم: ميلاد الشاعر.

في كلّ النهارات والأماسي الصاخبة، كنت شاعرًا فقط. لكن لقائي بسامية جعلني شاعرًا بطعم جسدي. قالت لي يومًا: أنت تشبه الحسن بن هانئ. كانت تقصد أنّني شاعر اللذّة والخمرة. لكن

Twitter: @ketab_n

ملاحظتها كانت تعني دلالة أخرى: كان أبو نواس ابنًا لامرأة تشتغل مومسًا في ماخور ببغداد. وتربّى الشاعر مأزومًا بين تأكيد فحولته وميوله المثليّة. كان الشعر وسيلته للتسامي بتعبير فرويد.

لم تستطع سامية أن تكمل قراءة اليوميّات. أغلقت الأجندة وأطفأت ضوء الغرفة. كانت نبيلة تتصبّب عرقًا وهي تلتصق بخاصرتها.

Twitter: @ketab_n

ـ ٧ ـ

وجهي الآخر في المرآة. أقف ساكنًا بملامح تعكس جزعًا. لكنّي طفل في المرآة. طفل يركض في كلّ الاتّجاهات حافي القدمين، بشورت قصير محسور فوق الركبة، وتوني رياضي بلون باهت. أسمع المنادي في كلّ حارات البلدة الصغيرة ينادي: سينما.. سينما.. أولاد بوريشة.. الهنود.. دجينكو.. البطل هورا.. هركيل.. وأتبع المنادي وهو يدفع عربة صغيرة تحمل لوحة خشبيّة عليها أفيشات أفلام وموادّ تجاريّة كالصابون والشامبو. لا أمل من اللهاث وراءه. سينما الحائط احتفال غير عادي في البلدة. خروج من بؤس المجال إلى أوسع ما يمكن أن تقود إليه الصورة من متخيّل!

في المعهد العالي للسينما بباريس، كانوا يعطوني كاميرا صغيرة لأصوّر بكامل حرّيّتي ما أريد. كنت لا أصوّر غير الحواري الضيّقة ذات الطرقات المحفّرة والمنازل الواطئة التي لا تغلق أبوابها أبدًا. كان أستاذي المشرف على تقييم أفلامي القصيرة الصامتة، يقول لي: تعرف نور الدين.. ستكون من نوعيّة المخرجين المباشرين.

Twitter: @ketab_n

أراه يدخّن سيكاره الكوبي بافتتان. يتفرّج على الصور لقطة لقطة، ويقف عند تفاصيلها الجزئيّة الدقيقة، التي ربّما لم ألتفت إليها وأنا أصوّر، ثم يكمل ملاحظاته: لاحظ نوري.. بقدر ما صوّرت حيًّا شعبيًّا بئيسًا بقدر ما نقلت حياة حقيقيّة إلى الشاشة.. لاحظ.. هنا أطفال حفاة يلعبون.. نساء ينفضن الأفرشة من النوافذ.. أمطار تغنّي مع العمّال العائدين من أشغالهم.. عربات يدويّة تندفع أمام مياومين شاردين..

كنت أنزل ريف الجنوب الفرنسي لأصوّر ذلك. أجد أحياء المهاجرين المغاربيين شبيهة بالبلدة.

أنتظر حلول الظلام. تتجمّع البلدة كلّها في ساحة الخرّوب. أطفال.. نساء.. شيوخ.. موظّفون.. متسوّلون.. أغنياء.. الكلّ يهرول نحو الساحة مدفوعًا بسحر غريب. تقف سيّارة السينما أمام حائط أبيض عريض لمنزل من منازل ساحة الخرّوب. وتشتغل الكاميرا بمحرّك كهربائي ذي زعيق عال لكنّنا لا ننتبه إليه. تنبعث حياة من أضواء وألوان في الحائط، ويسود صمت. لا يتكلّم غير أبطال الفيلم. لم نكن نتفرّج على شاشة الحائط فقط. كان الفيلم ينزل من الشاشة إلى الساحة. خالتي مونة العجوز ذات التجاعيد المخيفة، تفاجئ زوجها التهامي الأعرج ملاصقًا لعاشورا المومس، يأكلان حمّصًا وزريعة ويضحكان. ترتمي عليه خالتي مونة العجوز وكلّها شرّ: حصّلتك آلعيرج الماسخ.. خدّام تْمسَّخ مع عاشورا القرعا.. حصلت آ خانز القزيبة.. آدوي آتّويم..!! تهجم عليهما. يسقط التهامي الأعرج أمامها، وتفرّ عاشورا المومس. يتدخّل الكبار للحيلولة بين العجوزين، ثم تعود الساحة إلى هدوئها. أرى خالتي مونة تجرّ زوجها الأعرج، وهو يسقط وينهض أمامها كمحكوم بالإعدام ذاهب إلى المقصلة.

Twitter: @ketab_n

عندما التقيت كاميليا بباريس، كانت تعرض لوحاتها في **سان دوني**. وجدت لوحاتها مأزومة الغموض، كأنّها تبحث عن حياة لم تتحقّق. قدّمت لها نفسي: نورد الدين نجيب.. مشروع مخرج سينمائي من المغرب..

دعتني إلى الكافيتريا على هامش المعرض. شربنا كونياك، وقدّمت لي نفسها: كاميليا.. رسّامة ولدتْ بالمغرب.

عبّرت لها عن بعض انطباعاتي عن لوحاتها. كانت تستمع في كبرياء دون غرور. جلستها بالكافيتريا تكشف عن ألقها الداخلي. تدخّن على مهل، وتشرب بتلذّذ، وتطيل النظر عبر نوافذ الكافيتريا. عندما انتهيت من ملاحظاتي، قالت لي: قلت لي مشروع مخرج سينمائي.. أجبت: نعم. قالت: من أيّة مدينة بالمغرب..؟ أجبتها على الفور: من بلدة صغيرة.. مباشرة وخفيّة.. ومن دون سقف تاريخي.. أحاول أن أستعيدها في أفلامي.. هذا هو مشروعي السينمائي.

البلدة المباشرة. البلدة الخفيّة. البلدة التي تنام ألف سنة ضوئيّة، وتستيقظ فجأة على صوت المنادي وهو يعلن قدوم سينما الحائط. الفرح المباغت. الحياة المستعادة. التفاصيل الصغيرة التي تعلو على كلّ عقيدة أو أخلاق. الطفولة المتعرّقة الحافية التي تدوس الأزقّة المغبرّة لتصنع أحلامًا من كلمات وصور وألوان وحكايات. تلك البلدة المترسّبة في جلدي مثل الشعيرات الصغيرة التي تصبح ذهبيّة أكثر عندما نمسح عرق ذروعنا. هي بلدتي الصورة واللقطة.

أكمل سهرتي مع كاميليا في شقّتها **بسان ميشيل**. هي كذلك أنثى مباشرة وخفيّة مثل بلدتي. ندخّن. نشرب، وتدفعني إلى أن أراقصها

Twitter: @ketab_n

على فالسات «الفصول الأربعة» لفيفالدي. أعتذر. لكنّها تصرّ: هل فقط لأنّك من بلدة صغيرة وبلا تاريخ، محرّمٌ عليك أن تتذوّق الموسيقى الرفيعة..؟ نحن مختلفان كاميليا.. أجيبها. تطوّقني بذراعيها وترمي شعرها فوق كتفي وتهمس: نحن مبدعان بكلّ بساطة. ونضحك.

في الغد، يُعيد كلّ واحد منّا بطريقته الخاصّة ما رآه بالأمس. في المدرسة الابتدائيّة، نسافر بخيالاتنا بعيدًا بعيدًا. نتعصّب لأبطال دون آخرين. نكره مشاهد دون أخرى. نلعن الأشرار في بارات الويسترن. هكذا نقحم ذواتنا في سيرورة الأفلام. لو كنت مكان البطل هورا لأفنيت الصعاليك المصاحبين للشريف عن آخرهم. لماذا لم تنتبه البطلة لخادمتها الخائنة وهي تدسّ لها السمّ في الكأس؟ كنّا نصرخ من ساحة الخرّوب، ونحن نحذّرها، ولكنّها لم تنتبه. ونسافر بعيدًا بعيدًا حتى تُعيدنا عصا المعلّم القاسية إلى واقعنا.

سنوات باريس كانت قارسة كالميسترال. وجدت المعنى، ولم أجد زخم الصورة. وجدت الطريق الملكي، لكنّه لم يكن طريقًا متربًا، محفّرًا، وموحلاً، ورماديًا كالطرقات الضاجّة في دمي. كيف أجعل الكاميرا تتغلغل في نسغ الذاكرة؟ كيف أحيي الموتى، وأبعث الجمر المتخفّي تحت الرماد؟

كان أستاذي الفرنسي في الإخراج السينمائي، ينبهر بما يسمّيه «الحياة الخفيّة» التي تتكلّم في المشاهد وزوايا اللقطات التي آخذها. كان صادقًا في انبهاره. دعاني مرّة إلى بيته بالمقاطعة الرابعة بباريس، نهج ملوك صقليّة. قدّم لي زوجته إيميلدا. كانت شقراء، طويلة، ضامرة. تبدو عليها ملامح الشباب ونضارة الجمال، رغم أنّها كانت تتجاوز الأربعين: مسيو نوري.. طالب بالمعهد العالي للسينما.. قسم

Twitter: @ketab_n

الإخراج. صافحتني بكلّ لياقة وهدوء يليق بالباريسيين: شرف لي أن أتعرّف على موهبة واعدة مثلك مسيو نوري.. قالت وهي تدعوني للجلوس في الصالة الفسيحة وسط المنزل. كلّ الشرف لي مدام نورماند. ابتسمت وقالت لي: دعني فقط إيميلدا. ليلتَها شربنا فودكا روسيّة أصليّة، وأكلنا سباغيتّي مهيّأة على طريقة النابوليين بالجنوب الإيطالي. أشرفت بنفسها على كلّ شيء. لم يكن في المنزل الفسيح الراقي أيّ خدم. كان المنزل يصدح بفراغات متناسقة: فوتويات جلديّة سوداء موضوعة في الوسط بشكل دائري، وأمامها طاولة من زجاج غميق، وبعض المزهريّات التي تزيّن زوايا الصالة، فيما الحيطان مزيّنة بلوحات لرامبرانت وماتيس وبول غوغان. كنت دومًا أتساءل وأنا أرى أمّي لا تنتهي من شغل في البيت إلّا لتبدأ شغلاً آخر: ألا توجد لحظة فراغ واحدة في ديكور المنزل ولا في أجندة أمّي؟ الأسرّة والكراسي والطاولات والعلب الخشبيّة والكرتونيّة في كلّ مكان. وحتى عندما تريد أمّي أن تتخلّص من شيء، فإنّها ترميه في غرفة المتلاشيات بالسطح، في انتظار استعمال ما محتمل. حتى اللغة لا تحتمل الفراغ. الحياة اليوميّة مثقلة بالخطاب والزعيق والسباب والابتهالات الدينيّة. لا توجد جملة واحدة صامتة.

في عينيها الزرقاوين حضارة بأكملها من جمال وألق وصمت. وجدتها متعالية على عالمي، على أرصفتي، على اتّساخ طرقاتي. لم يكن بينها وبين سينما الحائط أيّة علاقة. ومع ذلك، كان فيها شيء من الفتنة والسحر. ربّما طريقتها في الكلام، ربّما شفتاها المبلّلتان، ربّما هندامها الذي يعكس أنثويّة جارفة. استلّتني من خواطري: جيل.. أقصد زوجي جيل نورماند.. تكلّم على أفلامك القصيرة بإعجاب كبير. كانت كلماتها رقيقة وواضحة وبلا مخاتلة. لم أستطع أن

Twitter: @ketab_n

أجيب. بسطت راحتيّ معًا كتعبير عن الامتنان وعدم القدرة على إيجاد جواب ملائم في الوقت نفسه. تدخّل جيل نورماند: تعرفين إيميلدا.. تذكّرني أفلامه القصيرة بأفلام الجنوب الإيطالي ما بين الحربين.. هناك عفويّة واتّصال حميمي ووضوح مباشر..

حكيت لهما عن سينما الحائط في بلدتي الصغيرة. كانا منبهرين وفي حالة اندهاش حنون. صبّت إيميلدا كأسًا لي. يداها طويلتان كيديْ سبّاحة أولمبيّة. التفتت ناحية زوجها: كنت دومًا تقول: لا تُفقِدوا السينما هويّتها الإنسانيّة.. لا تغرقوها في الصناعة وتكنولوجيا التفاعلات الخاصّة. نفث جيل نورماند نَفَسًا من سيكاره الكوبي. بدا عليه نوع من الشجن: إي وي إيميلدا، للأسف ابتعدت الصورة عن الإنسان وأحاسيسه وانفعالاته. صار كلّ شيء عبارة عن خدع سينمائيّة.

لم تكن تلك مشكلتي، قلت لهم. إنّها مشكلتكم أنتم، لأنّكم تجاوزتم كثيرًا من العوائق التي تقف في وجه قيام سينما حقيقيّة. استفسرتني إيميلدا عن ذلك. قلت لها: ما هي لغة السينما الأولى؟ أجابت: طبعًا الصورة. استطردتُ: وما هي وسيلة إيصال الصورة؟ اتّفقنا جميعًا أنّها جسد الممثّل أو الممثّلة. قلت: هنا تكمن مشكلتي. وتحدّثت مطوّلاً. كيف نطوّع جسد الممثّل أو الممثّلة لكي يكون في خدمة الصورة أو اللقطة خارج كلّ اعتبار أخلاقي؟

بدا أنّني كنت أتكلّم لغة حجريّة، مثل من يستعمل لغة الباسكال في نظام المعلوميّات، في حين أنّنا نتكلّم الآن لغة الويندوز والماكنتوش. قلت لهما: الصورة حيّة وتعكس جسدًا حقيقيًّا لممثّل أو ممثّلة من لحم ودم. ردّت عليّ إيميلدا: وما العيب في ذلك؟ قلت لها: سيّدتي، ما زال الجسد عندنا مقدّسًا، وعندما تُظهر ممثّلة مفاتن

Twitter: @ketab_n

جسدها، تُنعت في الحال بالعاهرة، وقد يُقام عليها الحُرْم أو الحدّ. الجسد عندنا طفلٍ نخاف عليه من أسراره، كوّة نغلقها لكي لا يطلّ منها الجيران، حرملك لا يدخله إلّا السلطان ببطشه وعنفه الشهوانيّ. لم أر في ملامحهما اندهاشًا أو انزعاجًا. كانا يعرفان كلّ شيء. قالت لي إيميلدا ملاحظة لن أنساها أبدًا: عبِّر عن واقعك كما هو، صوِّرْ هذا الجسد في خَفَره وقيوده ومحرّماته. أزلْ ملابسه الداخليّة قطعة قطعة، وسترى. سيبدو جسدًا مألوفًا كأيّ جسد في شاطئ صيفيّ.

أزلت ملابس جسدها الداخليّة قطعة قطعة. كنت على مهلي، وكانت محروقة الشهوة. في غرفة نومها الفسيحة، كانت الإنارة خفيضة. أباجورة مشكّلة على هيأة قطعة آثار فرعونيّة. إيديث بياف على الجهاز الرقمي تغنّي non je ne regrette rien. تركتني أفعل ما أريد. تكرّرت زيارتي لمنزل أستاذي جيل نورماند كثيرًا. لكنّه في الكثير من الأحيان، لم يكن يأتي معي. كان يقول لي بكلّ عفويّة: لقد سألتْ عنك إيميلدا. كنت أجدها في الصالة الراقية نفسها تنتظرني بفودكا وفالسات شتراوس عن فيينا. يمتدّ الحكي من السينما إلى الذاكرة إلى الأنثروبولوجيا واختلاف الثقافات. أباغتها تنظر إليّ مأخوذة بطريقتي في النطق: رغم أنّك لا تضغط حرف الراء، ففرنسيّتك باريسيّة بنكهة أثريّة. أتصنّع الغضب: هل أنا في نظركِ مجرّد قطعة أثريّة معروضة أمام فضولكِ الغربي..؟ وتعتذر: نو.. نو.. نوري.. أعتذر.. لم أقصد.. أردت أن أقول بأنّ نطقك يرشح بالبهارات. تقترب منّي أكثر فأكثر: تعرف نوري.. علاقتي بجيل تشبه علاقة سيمون دو بوفوار بجان بول سارتر. أتصنّع عدم الفهم: يعني أنّها مجرّد علاقة ثقافيّة باردة,. تحاول إيميلدا أن تتصنّع ابتسامة متشيطنة، وهي تضع كأس الفودكا الذي تشرب منه في فمي: يعني ذلك عزيزي

Twitter: @ketab_n

أنّنا مستقلّان. إيميلدا لا تحكي كثيرًا. تحبّ أن تشرب وتنصت وتتذوّق. تأخذ يدي بين يديها، وتمرّر أناملها الرقيقة برفق على ظهر راحتي. حياتنا تشبه سينما الخدع البصريّة التي تبهر المُشاهد، ولكنّها لا تنفذ إلى روحه. أحسّ بنوع من الخدر. أضمّها إليّ: وأنت تبحثين عن سينما حيّة وحميميّة ومباشرة. تتمدّد في حضني: أخيرًا فهمت أيّها الجمل الآسيوي..!

أكتشف جسدها تحت الضوء الأرجواني الخفيض. ضامر ومتناسق وذو نفوذ. عطور الشانيل تقتحم خياشيمي. تنثني لتجلس على ركبتيها، وأظلّ واقفًا. تفكّ أزرار بنطالي بأظافرها المصبوغة بالفستقي. وتسقط التفّاحة.

في ساحة الخرّوب، لم أكن أحلم سوى بالجرْي وعدم انتهاء الليل. كنت أعرف أنّ إناث الشاشة عصيّات على خيالي، ولكنّي لم أتصوّر أنّ جسدي سيرشح بالبهارات الجنوبيّة فوق سيّدة تأبى أن تجعل الحياة مجرّد إيقاع رتيب لدولاب الحضارة العملاق. أتمدّد عاريًا في السرير، وتتمدّد إيميلدا فوقي. تزحف بلسانها الأفعواني من أخمص قدمي مرورًا بفخذي إلى موطن الأسرار، ثم تصعد بلزوجة لسانها فوق بطني وشعيرات صدري وشفتيَّ. يتغلغل لسانها عميقًا داخل فمي، ويشابك لساني، وتنزل على مهل نحو صدري وبطني وموطن فحولتي حتى تنتهي إلى قدمي. وأنا أكتم صراخي. يعلوني احمرار الطفل الذي وقع في المصيدة. تمسك قضيبي، تداعبه بأطراف أصابعها الطويلة المصبوغة بالفستقي، وتحكّه على فخذيها وشفتيْ فرجها. وأشتعل وأشتعل، ولا حريق ولا دخان ولا شواظ. تستلقي متعرّقة بجانبي. تأخذ وجهي بين كفّيها وتبتسم c'est pas grave mon bébé. أخفض بصري وأبحث عن ملابسي. لكنّها تمنعني برفق: دعنا نتمتّع

Twitter: @ketab_n

باللحظة والموسيقى، تقول لي. أسمع جورج موستاكي يهمس في صمت: non je ne suis pas seul avec ma solitude.. وأنا أقول لنفسي: الاتّصال أم الانتصاب..؟ أيّ الطريقين ستختار السينما..؟ كان احتكاكنا الأوّل. لم تقل شيئًا. ظللنا نلتقي في منزلها. في الكثير من الأحيان، كان أستاذي جيل نورماند يسهر معنا، ويكتفي بكؤوس قليلة من الفودكا، ثم ينهض ويقول لنا بكلّ عفويّة: طيّب أترككما.. ليلة سعيدة. يقبّل إيميلدا على فمها وينصرف. أحاول أن أتحاشى النظر إليه. أحسّ بالخسّة والحقارة. تعيدني هي إلى انفلات اللحظة: لا عليك.. هو يعرف كلّ شيء.. أنتفض من المفاجأة، وأنهض من مكاني. تجذبني من ملابسي: اجلس.. هو سعيد من أجلي، لأنّه يحبّني..

لم أفهم شيئًا. تعوّدنا على سرّنا. أشتعل، لكنّني لا أحرق. مرّة قالت لي: هو قَدَري.. لا أجد نارًا تحرق كياني.. حاولت أن أستفسر. لكنّها صمتت. زادت من حجم الصوت في جهاز السي دي الرقمي، ونامت على الفوتويّ.

فيما بعد قادتني إلى عالمها الآخر. كانت متطوّعة في جيش الخلاص لمساعدة المتشردين SDF (بدون سكن قار). في ليالي الشتاء القاسية، كنت أصحبها إلى الأرصفة الباردة والحدائق المثلجة ومحطّات الميترو؛ نوزّع الأغذية والأغطية والمشروبات والهدايا على المتشرّدين: بيض.. سود.. حمر.. صفر.. من كلّ الأجناس. كنت أسألها: لماذا تتركين مكتبك الفسيح في كلّيّة الطبّ وتنزلين إلى الشارع لمساعدة المتشرّدين من كلّ الجنسيّات..؟ كانت تجيبني دومًا: إفعلْ بحيث تتّخذ الإنسانيّةَ غايةً لفعلك الأخلاقي..

عندما كان يفاجئنا خميس حبش في ساحة الخروب نتفرّج على

Twitter: @ketab_n

سينما الحائط، كان يعدمنا رعبًا: حصلتو دابا.. يا الله.. اللي عندو شي فرنك يجبدو.. لم يكن ينتظر أن نخرج له الغنيمة. كان يكلّف صعاليكه بتفتيش جيوبنا. الكثير منّا كانوا فقراء، لا يملكون غير بعض قطع «البلي». كان يسلبها منّا، ويتفنّن في لطم وركل صاحبها وسبّه: دين أمّك.. ما عندك فلوس..؟! ومنين شريت هذا البلي..؟ كان الضحيّة يبكي ويتوسّل لله ورسوله والأمّة أن يحموه. لكن خميس حبش لا يعرف المبادئ. على الحائط فيلم، وفي الساحة فيلم. وكثيرًا ما كان يختطف من لا حماية له، ويقوده إلى الخلاء رفقة عصابته، ليفضحه في الغد، فيصبح الضحيّة فجأة بلا فحولة.

أظلّ حائرًا أمامها. تنتهرني بشدّة. لا يجب أن نضيّع وقتًا. درجة الحرارة الآن خمسة تحت الصفر. في كلّ لحظة، يمكن أن يموت مسنّ أو مريض. أتذكّر القاعدة الأخلاقيّة. في حصّة الفلسفة، كثيرًا ما كان الأستاذ يتكلّم على كانط بحماسة راقية. مع كانط انتقلت الأخلاق من المدينة والمجتمع والعقيدة إلى الإنسانيّة. بكلّ حنوّ، تجلس إيميلدا قرب سيّدة مسنّة. تعبث بشعرها وتطوّق منكبيها وتداعبها: هه.. فلورا روز.. أما زلت تحبّين شوكولاتةَ أعياد الميلاد..؟ ترفع العجوز رأسها بالإيجاب، وتردّ: وعدني جاكوب أن يجلبها لي عند عودته، وما زلت أنتظره. تضمّها إيميلدا إلى صدرها. هي مصابة بألزهايمر.. تقول لي. كان جاكوب ابنها الوحيد. ذهب إلى حرب الخليج الأولى في الجيش الفرنسي، ومات هناك. قبل يوم من وفاته، كلّمها على الهاتف ووعدها أن يجلب لها علبة شوكولاتة عندما يعود في إجازة رأس السنة. عندما علمتْ بموته، لم تصدّقْ. فضّلت شرود ألزهايمر على فداحة الواقع.

كانت إيميلدا تنام في بعض الليالي القاسية مع المتشرّدين. في محطّات الميترو. في عربات القطارات القديمة. في بعض الأوراش

Twitter: @ketab_n

اليدويّة المهجورة. كانت تأخذني معها، وليس معنا غير بعض الأفرشة والأغطية وزجاجات الروم. كنّا نأكل معهم من الأطعمة نفسها التي يوزّعها جيش الخلاص أو المتطوّعات المدنيّات وموظّفو التضامن الاجتماعي. لم نكن نحسّ بالعطف عليهم فقط، كنّا نصطكّ من البرد مثلهم، نصغي لغرغرة أمعائنا الباردة مثلهم، ننفخ في أكفّنا لندفّئها مثلهم. يأتيني وجهه الحليم في الصالة الأنيقة بالروب الأرجواني والشبشب الصوفي. كأس الفودكا في يد، وفي اليد الأخرى «البحث عن الزمان الضائع» لمارسيل بروست. جهاز السي دي يصدح بمقطوعة بولنيك: «الصوت الإنساني». وهي ممدّدة بالكامل على الصوفة تصغي معه. في عينيه رقّة حرمان ووداعة ضياع. وأنا بينهما لا أفهم شيئًا. كانت «الإنسانيّة» الكانطيّة بالنسبة لي ألّا أتعرض لقساوة خميس حبش. وكان «الصوت الإنساني» أن أصغي إلى المنادي وهو يعلن قدوم سينما الحائط. أحاول أن أرتقي إلى فعلها مع المتشرّدين، وتسامحه مع علاقتها بي.

فشلت في أن أكون مخرجًا حقيقيًّا، واكتفيت بدوري كأستاذ للإخراج في المعهد العالي للسينما، يقول لي. لم يكن لي حدس المبدع الحقيقي وشساعة الرؤية التي تتحوّل بفعل العنصر اليدوي إلى عمل يليق بكبرياء المبدع وجدارة المفكّر. كنت أجدها دومًا إلى جانبي كأمّ حقيقيّة. إيميلدا هي أمّ أكثر ممّا هي زوجة. كانت تدرك ذلك من خلال نظراتي كلّما عدت خائبًا إلى المنزل غيرَ قادر على التوفّق في إخراج فيلم سينمائي فعلي. في السرير أجد روائحها أموميّةً. أجد أنفاسها حميميّة، كما لو كانت من دائرة المحرّمات عليّ. لم تقل يومًا شيئًا. لم تشتك. لم تتذمّر. كانت تستقبلني، كلّما عدت، باللازمة الأموميّة نفسها:

Twitter: @ketab_n

Jules, mon bébé tu es revenu..!

أصغي إليه. الانكسار في عينيّ، وكأس الفودكا مرتعشة في يدي. هو كذلك يوحي بالأبوّة، منذ تعليقاته الأولى على أفلامي التجريبيّة. دومًا أجد كلماته قريبة من القلب، مثل كلمات راهب في قدّاس أسبوعيّ. كلماته ذات نبرة متناغمة. لا أعرف لماذا أحسّ في كلامه دومًا وكأنّني أسمع سقوط المطر في السيمفونيّة الخامسة لبيتهوفن. أنت تمتلك ما يفتقده كثير من أصدقائك الطلبة بالمعهد. أصمت أنا، ويضيف: أنت تمتلك انسيابيّة الانتقال من الفكرة إلى العمل. سيكون لك شأن نوري. سينما الاتّصال المباشر الحميمي.. واو..!

لم يخجل من فشله السينمائي والزوجي. ترك إيميلدا تبحث عن سعادتها الفعليّة. كان يفرح بحماسها الإنساني وهي تتطوّع للنوم مع المتشرّدين في ميتروات باريس وطرقاتها الباردة. وترك جسدها لي. لكنّي فشلت في «الاتّصال» المباشر والحميمي بجسدها. لم أمنحها الدفء الذي يقيها صقيع باريس. عيناها كانتا تشتعلان بألف رغبة ورغبة، وكنت فارسًا بلا سيف. بلا مجد. بلا قدرة على الغزو.

حين يشتدّ البرد، ويكتسح الصقيع ما بين فخذي، وتفشل إيميلدا في حرق العوائق المتصلّبة في عروق قضيبي، كنت أراهم هناك في حيّنا القديم بزنقة خنيفرة. أمّي وأختي دليلة وخالتي بهيجة التي لا تبرح كرسيّها المتحرّك. في عيون أمّي تراجيديا لا تنتهي: اختفاء أخيها زهير. كان خالي الذي اختفى فجأة قبل سنين، ولم تكن أمّي وخالتي قد تجاوزتا بعد سنّ المراهقة.

عندما تحترق أمّي، كان صمت شرس ينهب نظرات خالتي. لكنّه كان صمتًا يضجّ بالحكايات.

Twitter: @ketab_n

ـ ٨ ـ

شوپان على الجهاز. نغمات البيانو كأنّها طالعة من نبض الأرض. الأصابع المحروقة التي لم تعد قادرة على العزف، تحوِّل احتراقها إلى ما يشبه زخّات مطر في البيانو. أولى الكلمات تأتي عفويّة: المطر. يقترب منّي بكرسيّه الدرّاج وبصوته الخفيض: تحبّين المطر..؟ يسألني. تنثال النغمات. شوپان حزين بقدر ما يبعث الفرح في الأعماق. نعم أحبّ صوت المطر، أجيب. ممدّدة على الأريكة الإكلينيكيّة. يداي متشابكتان فوق بطني، وشعري فوضوي على الوسادة. في العيادة، أباجورة ومكتب بكرسيّ جلديّ ضخم ومزهريّات حبق موضوعة بعناية في الزوايا. فوق المكتب، صورة مكبّرة لأوروبي بلحية على هيئة مفكّر. أنظر إليها مطوّلاً بنوع من الافتتان. صورة فرويد، يقول لي سليم بنيس. أتذكّر أولى الحصص في التحليل النفسي بالبعثة الفرنسيّة. الجهاز النفسي.. اللاشعور.. الإيحاء.. عقدة أوديب.. أتساءل: لماذا يبدو لي الطبيب النفسي مثل راهب دنيوي واضح لا يرتدي مسوحًا سوداء ولا يرسل عظاته عن الجنّة والنار كما

Twitter: @ketab_n

في قدّاس أسبوعيّ؟ ولماذا احترقت أصابع شوپان لكي تمنحنا فرح الرحيل في الأعماق..؟

أوكي كاميليا.. حدّثيني عن المطر.. أنظر في وجه سليم بنيس. محايد كالطبيعة، وعميق كالمجهول، وواضح كاللذّة. عمّي روحي يقودني بسيّارة العائلة إلى البعثة في يوم ماطر. يقطع المسافة الفاصلة بين مسكننا بأكدال نحو المؤسّسة في هدوء. أناوله شريط كاسيت، وتصدح الأغنية: tombe la neige.. tu ne viendras pas ce soir.. أحبّ بحّة **سالفاتور أدامو** كثيرًا. أحسّ في صوته ملح البحّار وغروب الشمس فوق الغابات. أضرب عمّي روحي على ظهره. أشركه معي في فرح الأغنية: هيّا عمّي روحي.. غنّي معي.. هيّا.. بليز. أحبّ ضحكته البسيطة وتعليقاته الرعناء: آه يا بنتي.. هل يمكن للقرد العجوز أن يغنّي..؟! ونضحك معًا، حتى عندما يقول سالفاتور أدامو: et mon cœur s'habille en noir.

أنزل من السيّارة ولا أفتح مظلّتي. أترك المطر يراقص شَعري. نادرًا ما أحببت حضور حصص الأدب العربي. لكن عندما سمعت الأستاذ يردّد أبياتًا من قصيدة لشاعر عراقي ظلّ عالقًا بذاكرتي، اسمه السيّاب، بدأت أتقرّب من اللغة العربيّة في خجل. اندهشت من قدرة شاعر عراقي، يسكن الجنوب الصحراوي القفر، أن يصل شِعْره إلى عمق المطر الطبيعي. أجد الشلّة في انتظاري بالردهة الطويلة التي توجد فيها القماطر الحديديّة، حيث نضع أغراضنا. يضحكون من هيئتي المبلّلة. أسرع إلى المرحاض وأنشّف شعري. تبدأ الحصص في تمام الثامنة صباحًا بالضبط. أعشقه عبر النافذة. مطري أنا. أتماهى به. أحلّ في زخّاته. أتسرّب عميقًا في الأتربة والجذور، وألامس انسياب الحياة.

Twitter: @ketab_n

في استراحة العاشرة، نذهب إلى الكافيتريا. نهرول كي لا نضيّع أيّة ثانية. نُخرج علب المارلبورو والونستون من محافظنا الصغيرة، وندخّن بشراهة. أنا وسالي وإيديث ولينا. يجلس الشباب أمامنا مزهوّين بفتوّتهم وسبقهم الذكوري التاريخي، وهم يضحكون من طريقتنا الأنثويّة في التدخين، إلّا هو. كان شخصًا آخرَ.

يرجع الصمت مرّة أخرى مثل البداية الأولى. بيني وبين العالَم بيانو شوپان ولوحة لا تكتمل. بقدر ما أغرق في أقصى نقطة بداخلي، بقدر ما أشمّ رائحة الاحتراق في يديْ عازف يصرّ على الاحتفال والفرح. أسمع صوت طبيبي، كأنّه يأتي من لا مكان: أكملي كاميليا.. لماذا كان شخصًا آخرَ..؟

تغيب الصورة. الشرخ الذي بدأ ببيانو شوپان وقادني إلى المطر وشلّة البعثة الفرنسيّة، يتوقّف فجأة عندما جلست أمامه أدخّن في الكافيتريا.

لا أجده. لا أرى صورة أمامي. في أعماقي صخرة صلبة اصطدم الشرخ بها، ولم يكمل خطّه الجراحي. أسمعه يقول: لا تطفئي سيجارتك كاميليا.. واصلي التدخين.. أنظر حولي. في غرفتي ذات الفوضى الجميلة، أستلقي على ظهري فوق السرير. ماما في الصالة السفليّة الفسيحة تتابع فيلمها الأميركي المفضّل: العرّاب لفرنسيس فورد كوبولا، في جزئه الثالث، حيث أصبح آل باتشينو كهلاً. وبابا في مكتبته لا يملّ من قراءة دوستويفسكي. أحسّ هدوءًا فسيحًا على مقاس الفيلّا الكبيرة. لكنّي هذه المرّة أحسست أنّ سيجارتي بالكافيتريا أوسع من عالم مسكننا الرّحب. لماذا لم ينظر إليّ..؟ لماذا كان يتحاشى نظراتي طوال الاستراحة..؟

Twitter: @ketab_n

سالي تدخّن في حضن روكي. إيديث وشارلي منخرطان في قبلة لا تنتهي. لينا وإيدي يتبادلان كأسيْ قهوتهما بكلّ عشق. أنا وهو نشاز. أرسل دخاني في وجهه، لكنّه لا يرفع عينيه عن كتابه. حضوره مستفزّ في هدوئه. كلّ الكافيتريا غارقة في دقائق عشقيّة تُحسب بالثواني، وهو ذاهل عن العالم.

المطر وحده كان حليمًا بي. أسمع صوته كما أسمع أنفاسي الآن، وأنا أمام شخص يضعني في عالم لا يليق بي أن أكون فيه. انتبهت وأنا أرسل دوائر دخاني نحوه، أنّني أنا الذي أضعه في عالم متعال لا يستحقّ أن يكون هو فيه.

تذكّرت النكتة التي حكتها لي لينا عن شخص دخل مقهى وبيده سيجارة غير مشتعلة. كان يبحث عن ولّاعة. جال بنظره في فضاء المقهى. رأى ولّاعة موضوعة فوق طاولة شخص غريب. قال بينه وبين نفسه: سوف أطلب منه الولّاعة، ولكن ماذا لو رفض، وقال لي: لماذا لا تمتلك ولّاعة خاصّة بك وتعفيني من فضولك..؟ ربّما لأنّك فقير أو ربّما لأنّك شخص فضوليّ ومزعج، أو ربّما تريد أن تلفت الانتباه إليك، أو ربّما تريد مضايقة الآخرين فقط..؟ أو.. أو..؟ وهكذا استمرّت هواجسه. في الأخير تقدّم نحو الشخص الغريب، وقال له: «شفت.. ذيك البريكة غي زيدها ف راسك» (احتفظ بتلك الولّاعة لنفسك..!).

لم أنزل من غرفتي في ذلك اليوم. بقيت مصرّة على الاعتكاف. سمعت بابا من مكتبته يقول لماما بطريقته الودود: صوفي.. لا تضغطي أكثر.. لقد كبرت كامي.. ونحن لا نريد أكثر من ذلك..

أوكي كاميليا.. كلّنا لا نريد أن نكبر. هذا قانون غريزي، لأنّنا

Twitter: @ketab_n

نخاف الموت. نخاف العدم.. لكن أحيانًا، أو في كثير من الحالات النفسيّة المرضيّة، لا نريد أن نكبر لخوفنا من شيء ما حدث لنا.

من أريكتي الطويلة بعيادة سليم بنيس، أطلّ عليه. أطلّ على الذاكرة. ينفتح ثقب في الماضي، ويواصل خطُّ الشرخ سيرَه من كلمة «مطر» إلى كهوفي الغائرة. بين رشفة قهوة وشفطة سيجارة، أقول له بفرنسيّة مستفزّة:

Alors le monsieur est pudique..!

يرفع عينيه نحوي. لا يأتيني انفعال أو ردّ فعل. تمضي هنيهة قبل أن يقول لي بكلّ هدوء:

C'est sympa de ta part..

رواقيّته قاتلة كحبّ مستحيل. لا يشبه المتصوّفة، بل هو رواقيّ. الصوفيّ يقطر شوقًا وعشقًا وخمرة إلٰهيّة. يقضي عمره منجذبًا نحو محبوب كوني غامض يحلّ في جبّته، ويبدع شعرًا دراماتيكيًّا، لأنّه بقدر ما يبحث عن المثال الإلٰهي المفقود، بقدر ما يكون شعره جسديًّا وشهوانيًّا. أمّا الرواقيّ، فيضع العالم بين قوسين، ويعلّق أحكامه، ويستكين إلى حالة من الرضا والانسجام مع العالم، لأنّه قَبِل بالعالم كما هو، بكلّ ما فيه من موت وحياة ومآسٍ وأمراض، لا تستطيع الذات تغييرها.

إزرا حاييم كان رواقيًّا. كانت نظراته باردة ولكنّها عميقة، وحركات جسمه رصينة ولكنّها مدمّرة. كلماته قصيرة ومختصرة مثل تلغراف نعي. أمّا أنا، فكنت صوفيّة شهوانيّة وفردانيّة. كنت دومًا مأخوذة بما يقوله لنا أستاذ الثقافة العربيّة عن المتصوّفة من خلال كتب المستشرق الفرنسي لوي ماسينيون، خصوصًا كتابه عن متصوّف

Twitter: @ketab_n

تراجيدي اسمه الحلّاج. ودومًا كان يدهشني بيته الشعري الصادم:

للناس حجّ، ولي حجّ إلى سكني

تُهدى الأضاحي، وأُهدي مهجتي ودمي

لكنّي كنت أحرِّفه كما أشتهي:

للناس حجّ، ولي حجّ إلى جسدي

تُهدى الأضاحي، وأهدي شهوتي وفمي.

قرّرت أن أغزو إزرا حاييم بثلاثيّتي المدمّرة: جسدي.. شهوتي.. فمي..

المطر حليفي.. عشيقي السرّي. لكنّه يصبح مطرًا إنسانيًّا وأنثويًّا في أغنية جاك بريل: ne me quitte pas، عندما يقول: je t'offrirai des perles de pluie.. أغيّر مكاني، وأجلس في الكافيتريا. ألقي خصلاتي المبلّلة على وجهه، وأمسك يديه، ثم أتّكئ على كتفه وأنا أردّد أمامه: سأجعلك تحجّ إلى جسدي.. سأهديك شهوتي.. سأمنحك فمي.

لا أترك له مجالاً للكلام. أتسلّل بأظافري الرقيقة نحو صدره. أعبث بنهديه الصغيرين كنقطتين، وأصعد نحو شفتيه.

يوقظني الجرس من صوفيّتي الشهوانيّة. موعد استئناف الحصص بعد العاشرة. أمام باب الكافيتريا يهمس في أذني: سأنتظرك ظهيرة السبت بشقّتي ببلاس بيتري.

كنت أعرف أنّ عائلته تمتلك شقّة جميلة ببلاس بيتري قرب مارشي النوّار. لم أقل شيئًا. كنت فقط أنثى يقودها جسدها إلى حجّ لا طقوس له سوى الشهوة والفم.

Twitter: @ketab_n

كان إزرا وكنت كاميليا. مثل كلّ الطلبة في البعثة الفرنسيّة، لم نكن نتنفّس سوى الحرّيّة. كانت مقولة جان بول سارتر إنجيلنا غير المقدّس: الإنسان محكوم عليه بالحرّيّة. في أحضان الراهب، كانت الحرّيّة اختيارًا إبداعيًّا وعقلانيًّا. يسخر الراهب وأنا أحكي له دون حرج:

ـ يعني كاميليا.. كان إزرا مختونًا بطريقة احترافيّة مثلي..!!

أضربه على صدره أو أحاول أن أشدّه من قضيبه، وأستفزّه:

ـ ربّما لأنّ ختانه تمّ في الأسبوع الأوّل من ولادته، يبدو ثعبانه أكثر حدّة ممّن لم يُختن إلّا بعد أن جاوز الخامسة من عمره.

لا يغضب الراهب. لكنّه يريد فقط أن يفهم:

ـ كاميليا.. كنت تعرفين أن إزرا من الطائفة..

ولا يكمل. يأتي جوابي في سريره.

في سريره، لم يكن رواقيا، ولم أكن صوفيّة. كان إزرا وكنت كاميليا، وما بيننا امتداد من الحرّيّة والقيم الإنسانيّة الكونيّة التي تلقّيناها في البعثة.

أندهش وأنا أدخل الشقّة. صورتي بالألوان الزيتيّة فوق مكتبه. ليست صورة بل لوحة لأنثى تحمل سيجارة وتنظر بجانبيْ عينيها، وتبتسم بكلّ ألفة، فيما تتناثر خصلاتها المتشابكة في خلفيّة اللوحة. أسمع أغنية سالفاتور أدامو في غرفة النوم:

Tombe la neige

Tu ne viendras pas ce soir..

عيني لا تفارق اللوحة، لكن مكري لا يفارقني: لا ثلج

Twitter: @ketab_n

بالرباط.. وأنا جئت هذا المساء سيّد إزرا..!

أراه يوقد شموعًا في غرفة النوم، وهو يردّ عليّ: لا أستطيع أن أتخيّلك إلّا في مدينة ثلجيّة ذات مساء لا يأتي..

في الغرفة شبه المظلمة إلّا من ضوء شموع خافتة، أتركه يتصرّف بكلّ حرّيّة. يفكّ ردائي الصوفي وأزرار قميصي وحمّالتي، ويظهر جذعي العلوي عاريًا تمامًا، ثم يفكّ زرّ بنطالي ويسحب السلسلة إلى الأسفل. وبكلتي يديه، يدفع بنطالي الجينز اللاصق شيئًا فشيئًا حتى أسفل قدميَّ، ثم يمدّدني على السرير، ويكمل سحب البنطال برفق ويضعه فوق الكوافوز، ثم ينزع جواربي، ويتمدّد قربي. عارية تمامًا إلّا من سليبي السكسي. وقبل أن أطلب منه تغيير أغنية سالفاتور أدامو، يأتيني صوت إيديث بياف: non je ne regrette rien. لكأنّه يقرأ أفكاري.

تأتيني رائحة جسده بمذاق قهوة بقرفة. أصعد فوقه وأجرّده من كلّ شيء. أجد كلّ شيء عاديًا. حتى ختان ذكره أجده عاديًّا تمامًا، ويبدأ الغرق.

المطر جميل، لكنّه قد يؤدّي إلى الغرق. يسمعني سليم بنيس، وأنا أهذي في سفري الفرويدي داخل الذاكرة. أراه يقوم من مكانه. يعيد شوپان من البداية، ثم يجلس قربي: لماذا الغرق، كاميليا.. كنت مفتونة بالمطر إلى حدود الآن..؟؟

صحوت من مطري. كنت بلا احتياطات. لطالما حذّرتني سالي من إهمال الحبوب: في شنطة كلّ واحدة منّا علبة سجائر وقطعة حشيش خفيف وحبوب منع الحمل.. لا تنسي ذلك..

لكنّني نسيت. للحشيش الخفيف مفتّتًا في تبغ مارلبورو مذاق

Twitter: @ketab_n

الصوفيّة الشهوانيّة. لم نكن مدمنات بالمعنى المَرَضي. كنّا فقط ندخّن «جوان» مرّة أو مرّتين كلّما أُتيح لنا ذلك، تعبيرًا عن حرّيّة وجوديّة كانت توفّرها لنا قناعاتنا بأنّنا ننتمي إلى حضارة متحرّرة، لكن داخل أرض منغلقة.

مع إزرا دخلت عالم الأنوثة الحقيقي. طوّحت بعذريّتي في وجه الظلام، ومنحت جسدي هسيسَ النار وصخب الصمت وانفجار الأعماق في غرفة خافتة الضوء. أنت تموئين كقطّة هائجة.. يقول لي، وألقي جسدي في بركانه الثائر. هل تعرف أنّ عينيك سفّاحتان..؟ أقول له. يردّ: لِمَ لا تقولين الحقيقة كاميليا..؟ وما هي الحقيقة سيّد إزرا..؟ بل قضيبي هو السفّاح.. أنفجر ضحكًا، وأرتمي على «سفّاحه» بأسناني وفمي.

الفمّ مسدّسي، والشهوة خرطوشي، وجسدي قنّاص لا يخطئ. حتى عندما أعود إلى الفيلّا، يقرأ بابا شهوة أنوثتي كإعلان إشهاري، غامض التعبير. يلتفت نحو ماما، ويقول بفرنسيّة هادئة:

Tu vois Sophie.. Kamélia est éblouissante..!

ولأنّ ماما أنثى، فهي الأقدر على اقتحام مغاليق الأنثى. تجيبه:

Non Kader.. ta Kamé a brusquement grandi..

أستعيد لحظاتي مع إزرا في شقّته ببلاس بيتري. لا أجد فيها ما يدلّ على عقيدته: لا الشمعدان المقوّس، ولا نجمة داوود، ولا أسفار العهد القديم، ولا تيه اليهود في صحراء سيناء. هي شقّة أنيقة في بساطتها وعتيقة من خلال نوعيّة الخشب المستعمل في الكراسي والمكتب والصوفة.ودولاب المطبخ. خشب أرز أصيل، لكن بلمسة فرنسيّة تعود إلى القرن التاسع عشر. فجأة يأتي صوت جو داسان Et

Twitter: @ketab_n

si tu n'existes pas. يأتي عميقًا وحنونًا ودافقًا. أحبّ كثيرًا جو داسان. لكنّي وجدت فيه ما جعلني أمكر مع إزرا:

ـ طبعًا تحبّ جو داسان لأنّه فرنسي..!

يسبقني إلى مكري:

ـ يهودي..؟ هذا ما تريدين قوله..؟

أتكلّف ابتسامة حرجة:

ـ يعني.. شيء من هذا..

ولأنّ إزرا واضح كالينابيع وهادئ كالصيّادين، فهو لا يخفي أفكاره:

ـ هل من مشكلة في أن يكون فرنسيًّا يهوديًّا..؟ ألا يوجد فرنسيّون مغاربيّون.. عرب.. مسلمون.. أفارقة.. آسيويّون.. من وراء البحار..؟

لا أجد جوابًا. يأتي صوت جو داسان Dis-moi pourquoi j'existerais.

وتضيع أسئلة العقيدة على محارق الجسد.

هل يمكن للشّعر أن يكون عقائديًّا..؟ تساءلت يومًا. كنت أقود سيّارتي رباعيّة الدفع. قربي الراهب، وفي الخلف سامية وميلاد وأسلين. أشعل الراهب سيجارة، وزاد في حجم صوت المسجّلة بالسيّارة. كان يستمع لسي دي كناوة، جلبه من رحلته إلى الصويرة. قلت له: هل يعني ذلك أنك لا تريد أن نناقش هذا الموضوع..؟ نفض رماد سيجارته في مطفأة السيّارة، وقال:

ـ كناوة الصمت والحضرة وإجلال الجسد. قودينا إلى أقرب

Twitter: @ketab_n

مقهى شاطئي، ونحن تحت أمرك لِيدِي كاميليا..

قالها بنوع من الاستفزاز الأليف. أوقفت السيّارة بالقصبة على شاطئ تمارة. طلبنا جميعًا بيرة هَينكِن. كان المحيط هادئًا. بدا الراهب الكلام:

- الشعر يخترق العقائد.. لا شيء يقف في وجهه..

تدخّل ميلاد:

- هل سمعتم أنّ يوسي بيلين وزير التعليم الإسرائيلي أمر بإدراج شعر محمود درويش ضمن المنهاج الدراسي بإسرائيل..؟

صفّقت بيدي، وأنا أتلمّظ ملوحة البحر بين شفتيّ:

- يعني أنّ الشعر انتصر على الدين.. لأنّه كونيّ والدين عقائديّ..!

- نسيتم شيئًا أساسيًّا.. قالت سامية. نسيتم أنّ محمود درويش أفسح في شعره مجالاً لصوت العبري البسيط ولصوت اليهوديّة العاشقة التي لا علاقة لها بالإيديولوجيا الإسرائيليّة..

حدّثتنا سامية عن نساء عبريّات وردن في قصائد الشاعر الفلسطيني: ريتا.. شولوميت..

عانقته كأنّي أعتذر منه: معذرة إزرا.. جو داسان مغنٍّ وشاعر قبل كلّ شيء.. ولهذا أنا أحبّه. وقالت شهواتنا كلّ شيء.

تدخّلت أسلين بنبرة محرِجة: هل يمكن أن نسمع في دولة عربيّة شعرًا كرديًّا أو أمازيغيًّا أو عبريًّا أو كناويًّا؟ أجبتها بكلّ عفويّة: يمكن.. هذا شيء عادي.. وزادت في إحراجاتها: أقصد هل يمكن أن يتمّ ذلك على المستوى الرسمي..؟ لم نقل شيئًا. وحده الراهب

Twitter: @ketab_n

يمتلك سرّ فضّ الإحراجات: العدوّ يعترف باللغة والطقوس العربيّة، والعرب ما زالوا ينظرون إلى الكناوي والأمازيغي والكردي واليهودي والمسيحي والبهائي، كما لو كانوا عبيدًا في أسواق مكّة.

عندما أفقت. كبرت الأسئلة. أصبت بالغثيان، وتقيّأت وأحسست بدوار. لم يكن سهوي عن تناول منع الحبوب عاديًا. كان جوابًا لاشعوريًّا عن رفضي لخازوق العقيدة. كنت أحبّني وأحبّه ككائنين منحتهما الشمس حرائق الشهوة واشتعال الحياة.

أفقت. أوقف سليم بنيس شوپان. ساعدني على استعادة الحاضر. جلس إلى مكتبه، وبقيت على الأريكة:

ـ كاميليا.. هل يمكن أن تستدعيني إلى منزلك..؟

حرّكت رأسي بالموافقة.

ـ أقصد ڤيلّا العائلة حيث تربّيت. أريد أن أرى عالمك الإبداعي. مرسمك. لوحاتك. فوضاك. صورتك الموزّعة على الأرضيّة والحيطان والكوادر وبقايا الألوان المتلاشية..

تذكّرت صورتي على لوحته. لماذا رسمني إزرا، وقد كان دومًا يتجاهلني بالبعثة..؟ وما الذي يريد سليم بنيس أن ينبشه ويعيد بناءه من جديد..؟

قلت له: أنتظرك اليوم تمام السابعة مساء. .أنت تعرف العنوان.

لوحاتي دومًا ناقصة. تشبه طفلة تلعب في الحيّ، وتنتقل من لعبة إلى لعبة بشغف دون أن تنهي أيّة لعبة. قال لي إزرا إنّه لم يرسم سوى لوحتي. ولكنّها كانت من القوّة والكمال وضجيج الألوان، بحيث تملأ كلّ أفق تعبيري. أنا واثق أنّنا لن نسبح في الأحلام حتى شاطئ الورد

Twitter: @ketab_n

والصخور والطحالب البكر. سأستبق الكمال. جسدانا منذوران للضياع في آخر الهتاف العقائدي، فلا أقلّ من أن ننتصر على خيبات التاريخ بكمال الفنّ. كان إزرا يتكلّم دومًا كأيّ فارس لا تعِدُه العرّافات بانتصارات محقّقة. لكنّه، فوق جسدي، كان يرفع بيرق المجد الإنساني الذي لم تتسلّل إليه لغة الأسلاف المحمّلة بالتيه والحرب ومكر الله.

محمّلاً بباقة أوركيد وغاردينيا، دقّ الباب في السابعة مساء. هيئته توحي بفضول آمن. بونسوار كاميليا.. صافحني بودّ. كنت في ملابس النوم. لست أدري لمَ لمْ أكن في كامل أناقتي كما تفرض اللياقة ذلك. كانت معه زجاجة سكوتش. تركت له حرّيّة التصرّف. بدهاء محقّق محترف وفضول رجل دونجواني وعمق طبيب نفساني، اقتحمني بلا مقدّمات.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ـ ٩ ـ

تقف أمام الصورة المعلّقة في غرفتها. الصورة كانت موجودة دائمًا في مكانها ككلّ الأشياء الأليفة في المنزل، كأواني المطبخ وشراشف الصالة والمكتبة وعلب الماكياج الموضوعة على الكوافوز. لم تكلّمني عن الصورة يومًا. كانت تبدو بألوانها البيضاء والسوداء كقطعة عتيقة وطبيعيّة وذات ارتباط بعبق المكان.

غالبًا ما كنت أعود متأخّرة في الليل. أجد نبيلة أمام التلفزيون أو في فراشها تنصت لأغانيها الشبابيّة على الآيبود من خلال «كيت السماع. تعوّدتْ على عالمي الفوضوي، ولكنّها تعوّدت على حبّي لها. كنت أخبرها عن لقاءاتي الشعريّة وصداقاتي مع الوسط الأدبي. وكثيرًا ما كنت أحدّثها عن مغامراتي العاطفيّة مع المبدعين. لم أخفِ عنها شيئًا. كنت أبدو أمامها في صورة الأمّ الطليقة التي ما زالت شابّة، ولا تريد أن تطلّق الحياة كذلك.

أمام صورتها الطفوليّة القديمة، كبرتْ نبيلة فجأة وأصبحت

Twitter: @ketab_n

مراهقة. فاجأتني بسؤال لا جواب له: سامية.. لماذا أبدو بائسة في هذه الصورة..؟

هي لا تناديني ماما، وربّما عوّدتُها أن تناديني باسمي مجرّدًا من كلّ أمومة، لكي أقنع نفسي بشبابي، ولكي أقنعها أنّنا أكثر من أمّ وابنتها. نحن صديقتان. لنا أسرارنا المشتركة وشهواتنا اللافحة وحميميّتنا التي تسمح لنا أن نتبادل خبايانا الأنثويّة. فاجأتني بالسؤال. كنت مهيّأة لكلّ شيء، ولكن ليس لهذا السؤال، وفي هذا الوقت بالضبط. أجبتها كيفما اتّفق: كلّ صور الطفولة تبدو بائسة بالنسبة لمراهقة باذخة الجمال..

انتزعت الصورة من الحائط، ووضعتها على السرير. كان ذلك يعني أنّها لم تقتنع بالجواب. هجم الماضي فجأة. دخل ركضًا حين طردته عنفًا. الطفلة في الصورة. الطفلة التي كانت تحدّق فيها بشكل غريب. ازدحام الأزقّة الفقيرة الموحلة. زعيق الباعة المتجوّلين. نهيق المتسوّلين الذي يخدش الكبرياء الإنساني، وصوت المؤذّن في الجامع القريب. رائحة العفن في مجاري الحثالة، وصراخ الخبز في صراعه اليومي مع الوجوه المتعبة. تدخّلت كي أنقذ الحاضر من عفونة الماضي: نبيلة روحي.. أنت الآن في السنة الأولى من دراساتك الثانويّة.. سنة أخرى وتنالين البكالوريا. لا أريد لشيء أن يشغلك عن الحصول على معدّل يخوّل لك دراسات عليا تليق بطموحك..

أشعلت سيجارة، وبدا الارتباك على حركاتي. سمعتها تقول: لا تخافي لالة سامية.. فقط لا تنسي أن تحدّثيني عن الصورة كلّما سمح لك السيّد الشعر الدونجوان بذلك..

ولكي أخفّف من توتّري، جلست قربها وحدّثتها عن أمسيتي الشعريّة التي شاركت فيها البارحة. غمزت بطرف عينها اليُمنى. كانت

Twitter: @ketab_n

أنثى مراهقة تتشمّم رائحة جسد ممدّد على السرير من خلال ارتعاشة يد أو إغماضة جفن أو انخفاض في الصوت. حكيت لها عن بعض مغامراتي. كنت أودّ أن أضعها في السياق الحقيقي لعلاقة الرجل بالمرأة. كانت لغتي صريحة ومباشرة ولا تورية فيها. أنصتتْ قليلاً. لكنّها هذه المرّة لم تكن متفاعلة مع حكيي. في ملامحها بركان أسئلة يتشكّل. أعرف حيرة الأنثى حين يكتمل حريقها، فتنفجر باللامتوقع، المباغت والصادم. قالت: سامية.. حدّثِيني عن كلّ مغامراتك العاطفيّة مع الرجال، ولكنّك لم تحدّثيني ولو مرّة واحدة عن مغامراتك مع أبي الذي لا أعرفه، ولا ذكرى له في هذا المنزل..

ما الفرق بين الرجل والزوج..؟ بين ذكر يدمن رائحة أنثى ويخور فوق جسدها مذبوحًا بالنداء الغريزي، وذكر يتملّك كيان امرأة ويحول بينها وبين العالم من أجل أن تنجب له ما يصون اسمه من العدم..؟ صدقتْ أحلام حين قالت إنّ الزوج يغتال الثعبان الراقد في أدغال الأنثى، أمّا الرجل فيرشّ أمامه بهارات الرغبة الحارقة كي يوقظه من سباته الشهوي. احترت أمام سؤال نبيلة المفاجئ. كأنّها كانت تقرن بين صورة الطفلة البائسة وغياب الأب. جلست على طرف السرير محاولة استدراج كلّ صيغ الأكاذيب التي تعوّدت عليها من خلال لعبة الخيال والواقع في الشعر. قرأتْ حيرتي على وجهي، فازدادت حيرتها. الأب ليس ذكرًا بيولوجيًّا منح الحياة لبويضة أنثى، فأنجب كائنًا جديدًا، قلت لها. الأب صورة نصنعها من خلال الحياة، ولا يتّخذ بالضرورة صورة ذكوريّة. الأب ليس قضيبًا متدلّيًا كصليب يدلّ على عقيدة فحوليّة.

أعادت نبيلة الصورة إلى موضعها في الحائط. مرّرت أصابعها على الزجاج الذي يغطّي الإطار. سمعتها تقول للطفلة البائسة في

Twitter: @ketab_n

الصورة: طوبى لك أيّتها الأنثى.. لقد وُلدتِ من دون قضيب..

تغيم الصورة. في الحيّ القديم، أراها تركض برأس حليقة على طريقة الذكور. يجري خلفها الصبيان لاهثين.. سامية.. سامية.. سامية.. مرّري الكرة لي.. من هنا.. دين أمّك.. لماذا لا تنظرين ناحيتي..؟ وسامية الصغيرة تجيب بكلّ بذاءة.. دين أمّك آولد القحبة.. تصحابني صوبيصة بحال أختك..!! يمرّ الصراع سريعًا، وتخلد سامية لحلقتها المعتادة أمام عتبات المنازل يحيط بها الأقران. تسمع الحكايات وتروي النكت البذيئة وأسرار الجيران الفاضحة. أنثى بتحليقة قصيرة ووجه كامد متعرّق مثل أيّ صعلوك صغير. أمّها تنهق في مدخل الحيّ: سامية.. سامية.. الله ينعل باباك آ الخانزة.. هاذ الشي اللي بقا لينا غا درية متروف (صبيّة مثل غلام).. لكن صوت نبيلة ينسف الحيّ بكلّ وقائعه وتلاسناته: يعني أنّ هناك حكاية وراء غياب أبي..؟! نبيلة الأنثى التي كان يمكن أن أكونها. الشهوة التي احترفت لغة الأزقّة المنحطّة. أقول لها: لكلّ شيء حكاية ماما نبيلة. تندهش نبيلة من رقّة لساني: ماما..!! كأنّ هذه الصفة لا تعني شيئًا في هذا المنزل. تحيّرني هذه المراهقة التي لم تحتجّ يومًا على مغامراتي العاطفيّة، لأنّها ربّما لم تعتبرني أمّها بل أختها أو صديقتها.

ثمّة ليل ملقى على رصيف الزمان. ثمّة لحظة متشرّدة على طول الطريق الذي يمتدّ من الوجود إلى الذاكرة. ثمّة روائح للنسيان.. للتجاوز.. للارتماء في أحضان مكان آخر لم يولد بعد. في مسام الجسد، كلّ ثقب حكاية، بمقصلة، بأبديّة كاملة للعذاب. ما بين نبيلة التي كبرت في عنفوان المراهقة، ونبيلة التي سيّجها مصوّر مجهول في لقطة بائسة، أراني وأرى سامية «المسترجلة» في الحيّ، تدخل عالم الأنوثة الحقيقي وهي تنتقل من الابتدائي إلى الإعدادي.

Twitter: @ketab_n

عندما ارتديت الوزرة وشددت شعري على هيأة ضفيرتين متدلّيتين، كفّت أمّي عن مناداتي في الحيّ بـ«الصويبصة» (المتهتّكة). قالت لي وهي تتأمّل هيأتي الكوليجيّة الجديدة: سامية.. حتى رائحتك تغيّرت.. أصبحت لك رائحة أنثى. هذه الملاحظة كانت كافية لأقضي على مصير أستاذ شابّ، لم يكن له ذنب سوى أنّه قال لي يومًا: أنوثتك كاسحة.

سامية الشقيّة التي كانت تسابق الغلمان في ساحة السراغنة وضواحيها الفارغة، وتلعب «البلي» والفوت والقيمان (لعبة ركض بين أربع شجرات)، اشتمّت على أعتاب سنتها النهائيّة بالإعدادي حرائق بركانها الشيطاني. في كلّ ارتعاشة جسديّة ماغْما لافحة تجري صاهرة في طريقها كلّ شيء.

كان شابًّا وسيمًا، وفي سنته الأولى بالتدريس. طوال سنة بأكملها، وهو يدرّس لنا اللغة العربيّة بطريقة لا علاقة لها بالصحراء والرمال والطرابيش الوطنيّة. معه اكتشفنا أشعار محمود درويش والسيّاب والبيّاتي وروايات الطيّب صالح وحيدر حيدر ومسرحيّات سعد الله ونّوس ومحمّد الماغوط. عندما قال: أنوثتك كاسحة، رددت عليه ببديهة ماكرة: وعطركَ لا يقاوم. تحايلت عليه بكلّ ما تمتلك مراهقة من جرأة وشيطنة واقتحام، حتى استدعاني إلى منزله بطريقة بدت أنّه كان هو الراغب وكنت أنا المتمنّعة.

كنت في الخامسة عشرة من عمري عندما دخلت شقّته أوّل مرّة. كان محتارًا ومرتبكًا، وكنت في كامل هدوئي القاتل. لم يعرف ما الذي يجب عليه أن يفعله. وضعت يدي في يديه وقلت له في دلع: سأصنع القهوة بنفسي. ضحك في حرج: ليس عندي بن.. أنا أفطر عادة في المقهى.. ولكن سأحضر زجاجة كولا. غاب لدقائق وعاد

Twitter: @ketab_n

بالمشروب. لم يجدني في فناء المنزل كما تركني. بحث عنّي في المطبخ. سمع صوتي: أحضر معك كأسين. كنت في سريره بغرفة النوم. ألقى نظرة جانبيّة. هناك وزرتي وقميصي وبنطلوني وحذائي على الأرض. تجمّد في مكانه. دفعته إلى ماغما البركان دفعًا. قلت له.. صُبَّ الكولا أوّلاً.. ولا مانع من موسيقى شرقيّة. صبّ كأسين، وجاء صوت عبد الحليم:

قدر أحمق الخطى سحقت هامتي خطاه

دمعتي ذاب جفنها بسمتي ما لها شفاه..

قرّرت أن يكون جسدي أوّل ما يخطّ قدري. جذبته إليّ بكلّ شراسة اللبوءات، وهمست في أذنه: تذكّرْ أنّك لم تنزع حمّالة صدري بعد. لكنّه وقف مرعوبًا. لم يكن هناك فرق بينه وبين غلمان الحيّ الذين كانوا يتبادلون الشتائم معي. أردت أن أمعن في لهب غرائزه. قلت له: أستاذ مثقّف يدرّس الأدب الحداثي المتحرّر.. ورجل متخلّف يرتعد أمام تلميذة تشتهيه..!! احمرّت عيناه. كان جمري يزداد اتّقادًا: فلماذا قلت لي إذن إنّ أنوثتي كاسحة..؟!

ـ كنت أعبّر عن انطباع فقط..

ـ لست قصيدة شعر.. أنا جسد قائظ..

خرجت من تحت الفراش عارية إلّا من حمّالة صدري وسليبي الفاضح الذي لا يكاد يخفي شيئًا من أسراري. وقفت أمامه بكلّ جرأة وشبق، وبدأت أتسلّق جبال حرائقه. كان عاريًا كرجل في حلم. يومها منحته أنوثتي. عندما غادرت شقّته، سفحتُ عذريّتي على الباب، وكنت فقط سامية كما أشتهي.

وتسألني نبيلة: من أبي..؟ فقط لأنّه قال لي: أنوثتك كاسحة،

Twitter: @ketab_n

كان عقابه قاسيًا كالقدر. لم تكن أنوثتي كاسحة. كانت فادحة. كانت فاضحة.

عدت إليه في الغد. سمعت كثيرًا عن شلّال الدم المترتّب عن افتضاض البكارة في حكايات الجدّات والأمّهات وصديقاتي المراهقات. لم أجد شيئًا. بعض بقع باهتة كانت تغطّي سليبي. لم أشعر حتى بمدفعه يدمّر دفاعاتي المهبليّة. كان فوقي قطًّا بأنين زاحر، ولكن من دون اكتساح فحولي. عدت في الغد لأكمل مشهد الالتحام المحرّم الذي لم يعبق بملوحة جسد رجّالي. وجدته صامتًا ووحيدًا، يدخّن في شرود طوال الحصّة. لم يجرؤ على النظر في وجهي مباشرة. كان يتلعثم على غير العادة. لكن لا أحد انتبه إلى ما حدث بيننا.

من دون مقدّمات، أخذته من يديه وقدته إلى غرفة النوم. حاول أن يتكلّم. وضعت أصابعي على شفتيه. قلت له: أريدك اليوم أن تكون فحلاً بلا رحمة. زجرته حين وضع كاسيت عبد الحليم في المسجّلة: لا.. لا.. لا موسيقى ولا غناء.. غنِّ بذكرك إن كنت ذكرًا..

تمّ كلّ شيء بشكل سريع وفاتر وبلا طقوس. لم أكن قد تهيّأت بعد حين أحسست بلزوجة منيه بين فخذي. كان سريع القذف. مررت على مقربة من شهواتي الفاجرة، ولم أخرج سوى بخسارة المكان والرائحة واللحظة. ارتديت ثيابي سريعًا. لم أقل شيئًا. لم أودّعه. وأضمرت بيني وبين نفسي أن تكون أنوثتي فادحة.

في كلّ الأيّام القادمة، تعمّدت أن أتجاهله. كان يغمزني بعينيه ويدعوني لقذفه السريع، وكنت أمعن في إذلاله، حين أرافق أحد أصدقائي التلاميذ في الطريق، أو أضع مرفقي في مرفقه. حاصرني بتضرّعاته، وأحرقته بنظرات احتقاري. ولم يجد سببًا لانقلابي المفاجئ.

Twitter: @ketab_n

وجدته يومًا في منزلنا مع أمّي. كان شخصًا آخر غير ذلك الأستاذ الشابّ الذي تعلّقت به أوّل مرّة. نادتني أمّي: سامية.. هذا أستاذك.. تعالي سلّمي عليه.. ذهبت رأسًا إلى غرفتي وغيّرت ثيابي وارتديت أخرى شفّافة ومثيرة، حتى إنّ أمّي اضطربت عندما رأتني بذلك الشكل. جلست قربها، وتعمّدت أن أضع رِجْلاً فوق رِجْل بطريقة تجعل فخذيَّ عاريتين بشكل فاضح أمامه. اضطربت حركاته، وسمعت ارتشافة شايه بين شفتيه. أكملت أمّي كلامها: الأستاذ حليم تيهان دخل من باب الدار.. فهمت مقصدها. أجبتها على الفور: وأنا سأخرج من نافذته. احتارت أمّي، ووضع هو رأسه في الأرض. قمت من مكاني، ووقفت أمامه بكلّ وقاحة. قلت له: لن أتزوّجك ولو كنت الرجل الوحيد في العالم..! صرخت أمّي في وجهي. لكنّه وقف واعتذر منها. رأيته يتلعثم: اتركيها.. ذلك حقّها..

ذبحته وذبحت أمّي، ولم أجد تفسيرًا مقنعًا لتصرّفي. ربّما كان جسده الرخو هو ما جعلني أحتقره. لا.. ليس هذا هو الرجل القابض على جمرة الموت بين شفتيْ فرجي.. يا نبيلة.. أنت لا تعرفين أيّ شيء..!

لم يكذب الراهب حين قال لي ذات سرير عاصف: أنت لا تضاجعين.. أنت تحاربين.. ظلّ يتعقّبني أيّامًا طويلة. يترصّدني أمام باب الكوليج غير مبال بعيون زملائه المستنكرين لتصرّفاته، ولا بسخرية التلاميذ الذين لقّبوه: حليم آشيل، بإيعاز ماكر منّي. كنت أردّ على ضراعاته لي بمزيد من الإهانات والاحتقار. أتسلّل إلى القسم قبل موعد الدرس، وأكتب على السبّورة: سؤال اليوم: من هو أسرع قذّاف في العالم..؟ الإجابة: حليم آشيل.. كنت أشبّهه بأسرع عدّاء في الميثولوجيا الإغريقيّة القديمة. آشيل كان سريع العدو، وهو كان سريع

Twitter: @ketab_n

القذف. فقط لأنّه لم يكن الزلزال المدمّر كما تصوّرته أنوثتي، تحوّلت إلى زلزال مدمّر لأسراره الجنسيّة. ولم أكن أعرف أنّي أقرنه بمصير آشيل الذي لم تعمّد الإلٰهة كعبه بوجه الموت. كان يدخل الفصل، ويمحو السبّورة بعصبيّة ونزق، ويكتب درس اليوم. لكنّ التلاميذ لم يرحموه. لقد سقط في أيديهم مثل حصان جريح بين ذئاب جائعة في جليد قاس. ترفع تلميذة أصبعها وتسأله: أستاذ.. هل صحيح أنّ عنترة هو الذي قال:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل   منّي وبيض الهند تقطر من مَنِي..؟

وينفجر القسم ضحكًا وتصفيقًا. تنهض تلميذة أخرى وتقول: أستاذ.. قال لنا مدرّس التربية الإسلاميّة إنّ من نواقض الوضوء مسّ الذكر.. ولكنّي لا أعرف إن كانت كلمة «مسّ» تكتب بالسين أم بالصاد..؟ ويتطوّع تلميذ من آخر الصفوف ليجيب: في زمان الأساتذة الكهول كانت تكتب بالسين، أمّا في زمان الأساتذة الشبّان فتكتب بالصاد.. وتنتهي الحصّة. يأتي الجرس خلاصًا إلٰهيًا من محرقة الإهانات التي حوّلت حليم تيهان إلى خرقة قماش نتنة لتجفيف مراحيض عموميّة.

ركع يومًا أمامي في أحد الأزقّة الخلفيّة. قال لي في انكسار ذليل: ارحميني.. ماذا فعلت لكِ..؟ أنا فقط أحببتك.. حدّقت في عينيه بكلّ استفزاز، وقلت له: لا يستحقّ أنوثتي الكاسحة إلّا فارس يفرّق بين لحظة بوله ولحظة قذفه.

نعم أيّها الراهب. أنا محاربة شرسة على سرير النزال الشبقيّ. شِعْري قذف يأتي تتويجًا لأورجازم كامل. تعلّمت أن أصغي لحكمة جسدي الذي لا يرضى إلّا بجسد أقوى منه. كان حليم تيهان أحقر من

Twitter: @ketab_n

أن يستبطن في جسده دلالات الإبداع المتحرّر الذي كان يتشدّق به كأيّ مثقّف مخنّث. ولذلك لم يصمد طويلاً.

كنت أودّ أن أخبر نبيلة من يكون أبوها، لكنّي امتنعت أمام عينيها المتفجّرتين كقنبلة عنقوديّة. ينتفخ بطني ويزداد جنون الأستاذ. طردونا معًا: أنا إلى منزل أمّي، وهو إلى المصحّ العقلي. لم تستطع أمّي أن تفعل شيئًا. هدّدتها بالانتحار إن باحت للقانون بوالد جنيني. وأمام إصراري قدّمت شهادة طبّيّة تدلّ على مرض طويل، لكي تحتسب سنتي الدراسيّة سنة بيضاء، ويكون بإمكاني العودة إلى مؤسّسة بديل.

لم أعرف أيّ سرير سيضمّني. دائمًا اللقاءات ذاتها تتكرّر بالرّغبة الجامحة نفسها، ولكن بإيقاع جديد يبحث عن ليل يدوم وصباح مبتكر، وقهوة بطعم اللحظة التي ينهار فيها الرجل مستسلمًا لهزيمته الشبقيّة بين فخذيْ امرأة قد تكون عابرة، وترتقي فيها المرأة جبلَ الحرمان لكي تطلّ على ما وراء الالتحام الجسدي من بكتيريا لديمومة الحياة. لم أشعر بالصراع بين الراهب وميلاد على اعتلاء جسدي، مثلما شعرت به لحظة «قذفت» أبياتي كخلاص شبقيّ من طوفانِ عَرَقٍ بملوحة القدر.

كنّا في ملتقى الشعر المغربي الذي تنظّمه سنويًّا مدينة شفشاون الجميلة. عيون الشعراء تفضح قضبانهم الخفيّة، وكلّ مجاملة هي دعوة للمضاجعة باسم الشعر المتحرّر. لا أذكر أنّ القاعة صفّقت لي وأنا أقرأ:

حين تموء لحظةٌ

لا تؤوّل الآذان المحيطة مواءها

فصوت الغريزة يرشح بالشبق..

Twitter: @ketab_n

وحين قلت:

زمن لاشيئي

يشبه نهاية أسبوع دون نساء

يشبه امتدادًا باردًا في العراء..

في المشهد المعاد

يستيقظ فجر من حلمه

ويعتذر لسيّدة الليل:

كنت سأصحو جميلة

لكنّني وجدت الشمس أنثى

فأخفيت وجهي من سحاقيّتها

واحتميت برمادك المهيب أيّها الليل..!

كنت أنتقم من حليم تيهان، لأنّه كان أسرع منّي، وشرّدني بين زفرتين كان يسيل فيهما منْيه مثل لعاب طفل صغير، ولم يترك لي أن أحرق طفولتي لأحلّق بأجنحة المراهقة اللاهبة. قرأت الرغبة نفسها في عينيهما. كلاهما جسد عدوانيّ، ذئبيّ، يريد أن يرفع بيارق نصره على تلال فخذيّ. قلت لهما: لنكن وقحين كما تقتضي الرغبة، ولننم في السرير نفسه. كنت أختبر دفاعاتهما الغريزيّة. في داخلي ما يدفعني لرفض هذا الاقتراح، لكنّني تعوّدت على إدمان الخسارات الأخلاقيّة. لم يبديا حماسة لاقتراحي. تركتهما في صالة الفندق، وصعدت إلى غرفتي. وقبل أن أغيب، قلت لهما ساخرة: حليم جنّ لأنّه أخفق في ترويض اللحظة، أمّا أنتما فتمتلكان من الإباحيّة ما يدعوكما لتبادل

Twitter: @ketab_n

الأنوثة على السرير نفسه. لم يقولا شيئًا. وحده في معزله الصحّي القاسي، ظلّ يردّد: أنوثتك كاسحة. وجاءني بعد شهور خبر انتحاره. هل أقول لكِ يا نبيلة إنّني قتلت أباك. دفعته إلى حافّة الجنون والانتحار..؟ لم يكن قد بدأ مضاجعة الحياة بعدُ حين «قذف» قبل الأوان، ولم يخسر غير شبابه وكونٍ من الأشعار الجديدة وروايات جيل الضياع في أميركا وإرهاصات مرحلة جميلة، كانت ستمنح المغرب ما يستحقّ من أورجازم..

في الصمت المطبق على بؤس صورتها القديمة، لم تكن نبيلة طفلة ولا بنتًا ولا مراهقة. كانت حكاية. كانت مذبحة فظيعة، وقعتْ في ليل ما قبل شروق الزمان. كنتُ «هي» القاتلة، وكان «هو» القتيل. كانت حريقًا أشعله فجر غواية ما تمّت في غير الوقت وفي غير المكان.

وأنا أغادر غرفة نبيلة أجرّ أجوبتي المنكسرة على أسئلتها الجارحة، كنت أردّد ما تبقّى من غصّة في شعري:

هي

أشرعتْ أناملها لفجر الغواية.

هو

صحا قبل بدء الحكاية.

ذات غبطة تخاطَرا..

عندما التقيا

كانت حصارًا

وكان محاصَرًا..

Twitter: @ketab_n

ـ ١٠ ـ

اعتقدت لزمن طويل أنّ الذاكرة ليست إلّا الانتشاء المتأخّر لوجود يحتضر بفعل التلاشي الحتمي، وأنّ إرادة التذكّر ليست غير تشبّث مستحيل بالحياة، وانتقام تراجيدي للإنسان من مكر الإلٰه.

لكنّي رأيته. مجرّد رؤيته على شاشة التلفزيون بعد كلّ هذه السنين الضوئيّة على غيابه، جعلتني أعيد اكتشاف الزمان بفعل غريزة الحياة الإنسانيّة التي نسمّيها الانتشاء. لقد أصبح قدر الإنسان أن يمتلك ذاكرة تُعيد ترتيب الأشياء بشكل غير منظّم من أجل إعادة تشكيل العالم بطريقة وجدانيّة.

مجرّد رؤيته نفثت نار هيراقليط من جديد في أسئلتي الأزليّة عن الجمال. عندما يتحوّل عالم الوجود إلى ذاكرة، يأتي الفنّ متوّجًا بسيّدة الآلهة الأولى: النشوة. لم أصدّق أنّني رأيت كمال على التلفزيون. كان هو، رغم أنّني لم أره منذ ثلاثين سنة. منذ أن هاجرت عائلته إلى فرنسا، وتركت ثعبان أدغالي المهبليّة مثل ليفياثان توماس هوبز، يثير

Twitter: @ketab_n

الرعب دونما حاجة لممارسة العنف الأعمى. لم يلتفت إليّ إسماعيل ولد خالتي حبيبة، ولا شعر يومًا أنّني جزء من «الحياة حلوة بسّ نفهمها»، ولا وجدت في أفكاري النظريّة الكبرى ما يقيني رعب التفكير من استيقاظ وحشي الراقد بين الرغبة والجرأة. رأيت كمال بلهفة أمّ وزفرة عاشقة وصمت مفكّر وصفاقة إباحي.

كان يتكلّم أمام العدسات وميكروفونات الصحافيين ببهجة طفل وسحنة مهاجر يبوس هواء وطنه بخياشيمه، وتهوّر طائر صغير عند أوّل تحليق. «نعود لأنّ الوطن قدرنا». جملة قالها، وكانت مختلفة تمامًا عن كلّ ما كنت أسمعه من السياسيين في بلدنا. وجدته أقرب إلى الكآبة الجميلة للوجوديين وهم يتحدّثون عن الشغف. تحدّث كمال عن أشياء كثيرة: المواطنة.. تحرّر المرأة.. دولة الحقّ والقانون.. حرّيّة المعتقد.. ٢٠ فبراير. لكنّي لم أكن أستمع سوى لصوت واحد، ولم أكن أرى سوى غرفة على السطح، ولم أكن أشمّ سوى عرق جسده الصغير. كبر كمال كطفل، وكان من قبل صغيرًا كرجل، وهو يريني ثعبانه الذي سيتسلّل لأكل الفراخ في عشّي الخفي. سمعت صحافيّة تقول له: لماذا انفصلتم طوال هذه السنين عن الجماهير، وعدتم الآن إليها..؟ لم يفارقه مرح الطفل الفاسق، ولا نضج المهاجر الذي أتيحت له فرصة نادرة للتعلّم. رأيته يبتسم مثل غاندي ويسامح مثل ديسمونت توتو. صعقني جوابه البسيط عندما قال للصحافيّة: سأستشهد فقط بشعر للامارتين:

Il faut se séparer, pour penser, de la foule

Et s'y confondre pour agir.

كان إذن يعود كمناضل مغربي من المهجر. ليس كمناضل سياسي أُجبر على المنفى، بل كمناضل إنساني لا علاقة له بالإيديولوجيّات

Twitter: @ketab_n

الكبرى. بسرعة، استخدمت كلّ دهائي الأنثوي وتجاربي وعلاقاتي العامّة، لكي أحصل على كلّ المعلومات اللازمة عنه. شيء واحد فاجأني: كان يعود تحت اسم: كمال زهوة. لم أكن أعرف اسمه العائلي عندما كان هنا بالبلدة الصغيرة. لا أحد كان يهتمّ بالأسماء العائليّة. ومعظم الأسماء العائليّة الشائعة إمّا نسبة إلى الأب أو إلى الأمّ: ولد علال.. ولد أحمد.. ولد المكّي.. ولد حبيبة.. ولد رابحة.. ولد زهوة. لكنّي أتذكّر كذلك أنّ والده كان حيًّا، فكيف اختار اسم أمّه ليكون لقبه العائلي..؟

أصعد عينيه المليئتين بالاغتراب والسؤال، وشفتيه الصاخبتين على شاشة التلفزيون. ينقلب على بطنه، وينتشي بأناملي الطفليّة تمرّ فوق ظهره. ينكمش.. يتأوّه.. يتمطّى.. أسمع غرغرة أمعائه وهو ممدّد ببطنه مباشرة على أرضيّة غرفة الغسيل الإسمنتيّة الباردة. ودون أن يشعر، أشمّ رياح أحشائه الغازيّة. لا أقرف. أتصنّع جهلاً ماكرًا بيني وبين نفسي، وأعتبر أنّ ذلك من ضمن طقوس أسرارنا الجسديّة في كلّ ظهيرة صيفيّة. شيئًا فشيئًا، أصل ثعبانه المنكمش كتينة مجفّفة، وأراه يغالب الصحو والانتصاب، وأتمدّد قربه. ينهض من إغفاءته الغريزيّة المخدَّرة، وأحسّ يديه ترفعان تنّورتي القصيرة. لم أكن أعرف سوى أنّنا نلعب. كلّ الألعاب العاديّة التي نمتلكها لا تعادل في فتنتها لعبة جسدينا. نشعل الحرائق ونتسبّب في دارات كهربائيّة قصيرة، ونشمّ روائح شواظ باطني. الكهرباء تأتي من أصابعه الصغيرة وهي تمرّر تيّارًا أشبه بالنعاس بين فخذيَّ وعلى حافّة مغارتي التي يسكنها ثعبان نائم. أطلب منه أن يمتطيني. لا أدري لماذا. لم أرَ ذكرًا يمتطي أنثى لأقلّد ذلك، لكنّها الغريزة. أخنق ضحكاتي الطفليّة، وأنا أراه يهتزّ فوقي مثل سائق عربة يلوّح بسوطه في السماء ويفرقع المجهول. أصعد المجهول

Twitter: @ketab_n

في حركات يديه الهادئتين اللتين لم تعودا طفليّتين. كبر كمال، وظلّت صورته مثبّتة على حائط طفولتي الأبديّة. من أين استمدّ كلّ هذا الحضور لكي يجعل الصمت إكليلاً فوق رأس الوقت حالَما يبدأ الكلام؟ ربّما لم أره مباشرة كما هو الآن، بل كما صوّرتْه ذاكرتي وطفولتي البعيدة.

ركّبت الرقم ورنّ الهاتف:

ـ هنا فندق الموحّدين؟

ـ نعم فندق الموحّدين في خدمتكم.. ما الذي يمكننا من أجلكم؟

ـ رجاء أودّ مكالمة السيّد كمال زهوة.. لو أمكن ذلك طبعًا..

ـ حاضر سيّدتي.. لحظة من فضلك..

انتظار بطعم ملوحة لم تفارق شفتيَّ منذ امتدّت يده نحو تفّاحتي لتكتشف قانون الجاذبيّة. أخيرًا أسمع صوتًا واثقًا، يتكلّم بالفرنسيّة:

- Oui.. à qui ai-je l'honneur..?

لم أكن قد هيّأت أيّ شيء لهذه اللحظة. وجدتُني أقول:

- Bonjour Kamal c'est moi..

سبقته نحنحة المجاملة في صوته وهو يردّ:

- Bonjour.. vous me pardonnez mais..

وقبل أن يكمل، قلت له بالعربيّة:

ـ عشّ الطائر.. هل تذكر..؟

سريعًا جاءني صوته كما سمعته يومًا ما في ظهيرة قائظة وفي غفلة من عيون الربّ:

Twitter: @ketab_n

- Ah non.. c'est pas vrai.. c'est toi Halima..!!

ذكرني باسمي الأوّل الذي لم يخضع للدلع: حليمة.

- tout à fait Serpent Kamal..

ضحك مثل حكواتي سعيد في حلقة البلد. لم يتمالك نفسه من المفاجأة:

- Je donne ma vie pour cet instant.. où dois-je te trouver..?

بلهفة قطّة حارّة قلت له:

ـ أنا على بعد جمرتين من فندق الموحّدين..

لم يكن لقاءً عاديًا. في قاعة الاستقبال، طلب عصيرين. أصرّ على أن نشربهما بسرعة، ثم أمسكني من يدي وقادني إلى غرفته.

كانت غرفته في أعلى طابق بالفندق. صعدنا بالأسنسور. كنّا وجهًا لوجه. أنا في قميصي الصيفي ذي الثقوب التي تفضح اندفاعات الشبق وسروالي الجينز البونتكور وحذائي الموكسان الجلدي الواطئ. وهو فقط في بيجامة نومه. عندما دخلت الغرفة، قال لي: هل تعرفين لَمَ طلبت غرفة في هذا الطابق العلوي..؟

غمزت بطرف عيني اليمنى. كنت أقرأ بيان ملوحته القديمة مثل سِفْر عبري. أجبت: كي تكون قريبًا من أعشاش اللقالق.. لقد رأيتها وأنا أقترب من الفندق. ضحك طويلاً وهو يصارع لتكوين جملة سليمة بالعاميّة..

ـ أنتِ قلتيها ...mon serpent ne peut vivre loin d'un nid

واحتوتني أبديّة زرقاء.

لم يقبّلني ولم يضمّني مثلما خطّطت لذلك. أضاء العتمة في عشّي

Twitter: @ketab_n

واكتسحني كبرق. تركني منذورة لمن يوقظ الوحش الزاحف في مسامي، ورحل في صبيحة خريفيّة، ونام إلى الأبد في يديَّ وفي عينيَّ وفي لهاثي الدائم بحثًا عمّا لا يوجد. في ذلك اليوم، أصرّ أن نتعرّى كطفلين، وأن نلعب مثلما كنّا نلعب في غرفة الغسيل على السطح. كنت تعوّدت أن أرى ثعابين الآخرين في الظلام، لكن ثعبانه كان يومض في غابة برقيّة ما بين البكاء والنوم. كانت دموعنا اعتذارًا لما ألحقناه بالزمان من خيانة، وانتصارًا على ما ألحقه بنا العمر من خراب. لم يتكلّم كمال عمّا جاء من أجله. عن نضالاته في مجال حقوق الإنسان. كان يريد أن يكون طفلاً بمذاق الشيطنة وعَرَق الصيف ورشح الملوحة الجسديّة. سألته عن خالتي زهوة. نهض إلى الكومودينة وتناول تبغه. أشعل سيجارة شقراء، ونفث: سنين مظلمة لا أعرف عنها شيئًا.

حين وصلنا إلى الغرب الفرنسي، صُعقت أمّي من قساوة البرد وصقيع الشتاء وغرابة الأشياء. الأمطار لا تتوقّف، وبيوت الجيران لا تُفتح، ولا أحد يطلّ من النافذة لكي يرفع عقيرته بالنهيق اليومي. أبي كان يغادر مسكننا البائس في الرابعة صباحًا على متن درّاجة هوائيّة مهترئة، ولا يعود قبل الخامسة مساء. لم تستطع أمّي أن تتكيّف مع الأشياء التي لا تنطق، والفضاء الذي لا يتواصل، والطرقات التي لا تشتعل بالحكايات. أجبرتْ على البقاء في المنزل لأنّها لا تتقن الفرنسيّة، وكنت أنا من أقوم بشراء كلّ ما يلزمنا من أغراض بعد رجوعي من المدرسة. كنت أعود آخر المساء. أمّي وحيدة ومعزولة ومحاصرة باللامعنى. أبي لا يكلّمها إلّا للحظات معدودة عند رجوعه من العمل. لحظات يأكل فيها ويغيّر ثيابه، ثم يسقط من الإعياء، ولا يستيقظ إلّا في الرابعة صباحًا. أراها تذبل وتنهدُّ مثل سمكة سلمون في

Twitter: @ketab_n

رحلة التوالد الانتحاري. يا زهوة.. يا أمّي.. لم أحمل غير شهوة لم تكتمل، وكنتِ شهوتي وقهوتي وفتوّتي. لا أعرف لماذا أصررت فيما بعد على أن أحمل لقبًا أردته أن يغطّي على اسمي الرسمي كما هو مقيّد في سجلّات الحالة المدنيّة: كمال زهوة. ربّما كنت لاشعوريًّا أقصد كمال شهوة. وما بين شهوة الثدي الأمومي وزهوة الاسم الأنثوي لأمّي، لم يكن ثمّة إلّا استعارة ماكرة.

كان يحكي مثل فيل أمام موت حقيقي. كنت أودّ أن أسأله عن خالتي زهوة، حين أطفأ سيجارته في المنفضة، ونظر في عينيَّ بكلّ أسى. لم تحتمل. مثل سمكة خارج الماء، لن يكون مصيرها غير الاختناق. ماتت أمّي كأيّ شيء عادي، كأيّة حصاة على الرصيف، كأيّ شُبَّاك انغلق في حيّ ما، ولم يسأل الآخرون عمّا يخفيه. حبست دمعة في عيوني. طوّقت كمال بحنوّ طفلة لا تريد أن تكبر. لكنّه كان أرقى من الرثاء وأكبر من الوجع. لا تبك حليمة.. هو القدر بكلّ بساطة. لم يجد أبي حتى متّسعًا من الوقت لكي يصاحب الجثمان إلى الوطن. تكفّل بذلك بعض أخوالي. وإلى اليوم، لا أعرف قبرها. تصوّري حليمة.. لا أعرف قبرها. وما قيمة الإنسان من دون قبر يحرس الذاكرة من العدم..؟!

سأشعل ذاكرتك يا كمال. لا تخف. قلت له، وأنا لا أصدّق أنّ هذا هو الصبيّ الذي كان يفرح كثيرًا وهو يلعب بثعبانه الصغير، ويؤكّد فحولته المبكرة على عشّي الذي لم يرد السماح بخروج ما يتخفّى فيه من أسرار. سترى خالتي زهوة، وإن بشكل مخالف، ولكنّها الرائحة الأموميّة نفسها، العرق العاطفي نفسه الذي يجعلك تحرق كلّ سنوات عمرك لتعود صبيًّا يجري في الحيّ غير عابئ بما تفعله الشمس بملامح وجهه. أكيد أنّك مشتاق لشاي خالتك عالية، أمّي، ولخبزها البلدي

Twitter: @ketab_n

مطهوًّا على «فرّاح» و«مجمر»، وكسكسها الذي كانت رائحة بهاراته تجلب المتسوّلين والعابرين إلى عتبتنا كلَّ جمعة. في الطريق إلى البلدة، كان كمال يتصرّف كسائح وجد ذاكرته فجأة، واستيقظت في وعيه صور غامضة تربطه بالمكان. كان يسجّل في مفكّرة صغيرة كلّ شيء. الأماكن والطريق السيّار والمقاهي العصريّة والأحياء القديمة والأسواق الصغيرة التي نبتت في كلّ حومة، والسوق الأسبوعي الذي لم تتغيّر معالمه كثيرًا. فتحت الباب. كانت أمّي عالية أمام ضينيّة شايها الأبديّة في العاشرة والنصف من كلّ صباح. عانقتها ولم أترك لها فرصة لومي على غيابي الطويل. قلت لها: يا عالية يا زينة لريام.. عندي ليك شي حاجة ما تقدّر بمال.. شوفي.. شوفي مزيان..

وقف كمال بالباب. حدّق بعينين لامعتين في أمّي، في أشياء المنزل. حدّقت فيه أمّي: لا أحد فيهما تعرّف على الآخر. نظرت إليّ نظرة أمّ إلى بنتها، تريد أن تتأكّد من شيء واحد: هل هذا خطيبك..؟ أجبتها بنظرة متشيطنة: لا.. لكن حدّقي جيّدًا.. هذا هو كمال ولد خالتي زهوة.. رجع من فرنسا وجا يشوفك..

كادت أمّي أن تفلت كأس شايها من يدها. وقفت. جلست. رفعت الكأس ووضعته. وفي لحظة مارقة سمعت بكاءها الأمومي الذي لا يكابر: ياه.. ياه.. يا ربّي.. أنت كبير.. والدنيا صغيرة.. ياه.. ياه..!!

أسرع هو إليها يقبّل يديها. ضمّته هي، ولم تفلته حتى تدخّلت أنا. حاول أن يغالب دموعه، لكنّه انهار. كانت أمّي صورة من أمّه، وكان المكان بكلّ روائحه وأشيائه وفوضاه وطرازه القديم يمحو الصقيع الذي سكن الروح، حين حملتهم سيّارة أجنبيّة ذات صبيحة بعيدًا إلى المهجر.

Twitter: @ketab_n

في بكائه، كان المكان يُعيد مجده على بيارق الحنين. في لمحة خاطفة يلمع برق الذاكرة فيضيء ليل الوجود الكالح.

ولأوّل مرّة، رأيت أمّي ترفع صينيّة الشاي، وتذهب إلى أغراضها الحميميّة في المطبخ. أخرجت زنبيل السكّر الكبير وزنبيل الشاي الصغير والصينيّة النحاسيّة و«الزيف حياتي» الأبيض حيث تضع النعناع لتنشيفه والغلاي الفضّي وإبريق الشاي النحاسي ذي النقوش الغريبة على جانبيه.

كنت أنا في منزلنا. وكانت أمّك زهوة تحضّر شاي العاشرة والنصف صباحًا أو الخامسة والنصف زوالاً، قالت له. لكأنّ الزمان لا يتقدّم. والله يا ابني كمال.. منذ رحلت زهوة.. لم أصنع شايي إلّا في مواعين وقتيّة بلا قيمة. بعد زهوة.. لم يعد للحومة نفَس ولا للشاي مذاق ولا للحكي فتنة. كانت أمّي تحكي، وهي تنظر في عينيه غير مصدّقة. لكنّها فجأة أوقفت كلّ شيء، وتركت غلّاي الماء يصفّر فوق بوطة الغاز الصغيرة. سمعتني أقول: هل تعرفين أمّي أنّ خالتي زهوة توفّيت من زمان..؟

بكت بحرقة. دموعها كانت تشبه ضياع نبيّ في أرض عاقّة. كانت تمسح بأثوابها وتشهق ويتهدّج صوتها: الله.. الله.. رحمة الله عليك يا أختي زهوة.. الموت في الغربة أصعب من الموت نفسه.. لكنّها أصبحت شرسة مثل أيّة امرأة شعبيّة في سقاية عموميّة، عندما علمت أن لا أحد رافقها في موتها سوى بعض إخوانها، وأنّ قبرها مجهول.. أنت مرْضي أنت..؟ وابَّاك رجل..؟ آش هاذ الشي..؟ النصارى ما يديروش هاذ الفعايل..؟

ظلّ مطأطئًا برأسه. لم يجد الشجاعة للنظر إليها. كان بلا وجه،

Twitter: @ketab_n

بلا رائحة وبلا مجد. تدخّلت لإنقاذ الموقف: أمّي.. كمال كان صغير.. ما عارف والو.. اللومة على أباه.. ضمّته من جديد. نسيت غضبها بسرعة الأمّهات الشعبيّات. صبّت له كأس شاي برغوة كثيفة. قلت له على سبيل الدعابة: هذي ماشي كأس برغوة هذي كأس بزهوة..! وبكت أمّي من جديد، قبل أن تستبقيه من أجل كسكس في الغداء.

تجوّلنا في الحومة وفي الحومات المجاورة. حكيت له عن إسماعيل ولد خالتي حبيبة. مررنا قرب منزله. كان مهجورًا تمامًا. حتى عرائس اللبلاب التي كانت تغطّي الواجهة زالت نهائيًا. سألت بعض الجيران. قالوا لي إنّ خالتي حبيبة ماتت منذ زمان بعيد، وابنها تاه في بلاد لا أحد يعرفها.. بعد الغداء، عاد الزمان كما كان. لم تنس أمّي قيلولتها المعتادة. أخذتُ كمال من يده، وصعدنا إلى غرفة الغسيل بالسطح. لم تتغيّر كثيرًا، سوى أنّ أمّي مع تقدّم السنّ، لم تعد تملأ السطح كلّه بمزهريّات الحبق ومرصيطة والزعتر. كانت الإناءات الطينيّة خالية ومكسورة وشاهدة على مروق لم يعلم بأمره سوانا. دخلنا الغرفة. كنت هنا وكان هناك. يتسلّل من سطحهم، ويسير على رؤوس أصابع قدميه الحافيتين. يجدني في انتظاره. يضحك كمال ويشعر بنوع من الحرج. أحسّ بخجله: لا تخف.. ثعبانك في أمان.. يردّ بعفويّة مهاجر بريء: et moi je ne m'approche pas des œufs de ton nid.. أتصنّع غضبًا أنثويًّا: إيّاك أن تفعل.. سيفسد البيض.. الأوْلى أن تستفيد منه نيئًا..

هي كانت طفلة تكتشف العالم من خلال جسدها، الذي لم يعد جسدًا حيوانيًّا يعود لملكيّتها الخاصّة، أصبح خاضعًا لِلحُرم الديني والمنع الأخلاقي. ما الذي يخيف في الجسد لكي يصبح الجزء

Twitter: @ketab_n

المقموع المحرّم الخفيّ في شخصيّة الفرد، والجزء الشيطاني المرتبط بالغواية والرذيلة والسقوط..؟ هكذا تساءلت يومًا وهي تتأمّل تفّاحتيها الصغيرتين الآخذتين في النتوء. وكيف تستمرّ الحياة المرتبطة بتلاقي جسد ذكوري وجسد أنثوي في ظل كلّ هذا العالم السرّي القمعي المتسلّط..؟ وهو كان يكتشف نصفه الآخر الذي ينفتح ليتيح لِدَلْوِه أن يختبر زلال المياه في جوف بئر سرّي. كنّا فقط طفلين. كنّا فقط نلعب. كنّا فقط نختبر أولى خطواتنا في عالم الناس. ولم نكن نملك سوى جسدينا وغرفة قديمة بالسطح. ربّما نمتْ أسئلتي انطلاقًا من هذه اللحظات الضاربة في الطفولة. أتلمّظ ملوحة عرقه بين شفتيَّ، وأحسّ برعشة، بنشوة، برغبة في أن أكون أنثى ذائبة في حضن ذكر. لحظات بقدر ما كانت تمرّ سريعة كوميض برق، بقدر ما كانت ترتفع في كلّ كياني إلى درجة أعلى من السموّ والجمال. لهذا، كنت أعتبر كلّ إبداع لا يحتفل بأسرار الجسد عملاً ثقيلاً ثقل مواعظ الفقهاء التي تجعل المؤمنين يبكون من خوف الله، في اللحظة التي تمتدّ فيها أياديهم إلى جيوب من يركعون أمامهم في الصلاة.

في المساء، اعتذر كمال عن المبيت في المنزل. كان يسألني عن فنادق البلدة. لكن أمّي عنّفته بشدّة: تبات ف أوتيل ودار أمّك عالية كاينة..! مزيان.. هاذ الشي اللي علّموك النصارى..؟! لم تكن أمّي تعلم أنّ سلوك كمال يدلّ على قمّة التحضّر واحترام خصوصيّة الآخرين أثناء نومهم. وزادت في تأنيبها: الدار واسعة.. وأنا وأختك حليمة بوحدنا.. ولّا خايف نسرقوك..؟ تحرّج كمال: non khalti Alia.. c'est pas ça. ردّت عليه بكلّ صفاقة: خلّينا من فرانسويّتك. غا تبات يعني غا تبات.. حليمة فرشي لخوك كمال ودفّيه مزيان..
خفضت رأسي. لم تكن أمّي تعرف أنّ كلماتها تنطوي على تورية: أن

Twitter: @ketab_n

أدفئه جيّدًا لا تفيد فقط أن أغطّيه بكلّ ما تقتضيه الضيافة. حتى كمال أحسّ بالحرج، وبدت على ملامحه ابتسامة حائرة.

كنت أعرف أنّ أمّي تتناول من الأدوية ما يجعلها تنام دهرًا بأكمله دون صحو. ولهذا لم أتردّد في التسلّل من فراشي إلى الغرفة التي ينام فيها كمال، وانزلقت في فراشه. كان ينتظرني. لكنّه كان متوتّرًا. همست في أذنه: لا تخف.. خالتك عالية تأخذ أدوية منوّمة ولن تستيقظ قبل التاسعة من صباح الغد.. كنت في روب ليليّ شفّاف ومحسور عند الركبتين، وكان هو في قميص صيفيّ وشورت رياضيّ قصير. مدّ يديه يعبث بشعري، ونمتُ على صدره ألعق شعيراته القليلة، وأسترجع ذكرى ملوحة ما أحيتني ذات صيف بغرفة الغسيل. نزعت قميصه ونزع روبي الليليّ. لم أكن أضع حمّالة نهديَّ. أحسست بأصابعه على حلمتي. هي الارتعاشة نفسها، لكن لم يكن لها مذاق اللعب والاكتشاف. كبرنا لكي نعي كلّ ما نقوم به. زحفت أصابعي أسفلَ صرّته، ونزعت عنه الشورت الصيفيّ وتحسّست ثعبانه تحت السليب. ضحكت، وقلت له: أهذا هو الذي ظلّ يتهدّد فراخ عشّي لأكثر من ثلاثين سنة..؟ كان ذكيًا. لكنّه كان ينتمي كذلك إلى ثقافة لا تعرف المواربة. ردّ عليّ: c'est-à-dire Halima t'as pas connu d'autres mecs؟

لم أجد حرجًا في أن أجيبه: si. وبعد لحظة أردفت: وإلّا ما كنتَ وجدت غير شوكة يابسة لا تصلح إلّا لوخز الدمامل.. ضحك مثل طفل، ومال على شفتيّ. التهمهما، وضاع في أحراش الغربة الفرنسيّة. أسنانه الأماميّة القصيرة تحدث تيّارًا كهربائيًا في صدري، فأتلوّى وأضغط على ثعبانه الذي انتصب وأصبح في كامل شراسته للانقضاض على فريسته. ارتمى جنبي خائرًا ومفتونًا، بينما انشغلت

Twitter: @ketab_n

بتسوية شعري. قال لي:

- dis Halima c'est quoi cette problématique d'Idéal esthétique que tu cherches..?

كأنّه كان يقول: بعد الخمر يأتي الأمر. أنهينا سكرنا الجسدي، وحان الوقت لكي نفسح مجالاً لاهتماماتنا الثقافيّة. لم أشأ أن أرتدي روبي الليلي. نهضت وأحضرت من المطبخ ماءً وبعض المكسّرات. كنت أودّ ألّا تخرج اللحظة عن عفويّتها الغريزيّة. قرّرنا ألّا ننام. هي ليلة متفرّدة قد لا تتكرّر، ولا أعرف كم تستغرق إجازة كمال. تواطأنا على الأرق. قلت له: أنا أبحث عن إجابة منطقيّة لسؤال متمرّد: أين يكمن سرّ الخلود في الأعمال الإبداعيّة الكبرى؟ ساد صمت حليم. أحسست أنّ عليّ أن أفسّر أكثر: اسمع كمال.. أنت أتيت من فرنسا.. من بلاد الأنوار، حيث تعتبر الدولة أنّ رجال الأدب والفكر الكبار يشكّلون جزءًا من ذاكرة الأمّة وثروتها القوميّة، ولذلك يتمّ نقل جثامينهم لدفنها في البانثيون: فولتير.. روسو.. فيكتور هوجو.. ديكارت.. أوغست كونت.. هؤلاء رجال أدب وفكر. ما الذي يجعل أعمالهم خالدة، ويرتفعون إلى مرتبة الآلهة، ونحن نتذكّرهم أكثر ممّا نتذكّر رؤساء الجمهوريّات الذين تعاقبوا على حكم فرنسا..؟

ـ ربّما لأنّهم علّموا الفرنسيين كيفيّة التفكير..

ـ ربّما.. لكن، أنت تعرف أنّ كلّ مواطن هو شخص يمتلك القدرة على التفكير والحساب خارج كلّ توجيه أو وصاية. هذا ما يشكّل هويّته. ومع ذلك لا نجد أنّ كلّ مواطن يرتفع إلى درجة الخلود التي أعنيها.

أشعل كمال سيجارة، وبدت ملامحه رصينة على ضوء الولّاعة.

Twitter: @ketab_n

كان مهتمًّا، ولكنّه بدا متفاجئًا بالأسئلة. قال: ليست لديّ فكرة عن الموضوع. ماذا تعنين أنت إذن؟

ـ إجابتي تبدو بلا قدرة على التبرير العقلي: هؤلاء الخالدون منحونا من تجاربهم وأرواحهم وكتاباتهم القدرة على ملامسة عالم مفقود: عالم الجمال.

ـ قد يكون هذا صحيحًا.. ولكن أين يكمن الجمال؟ هل فقط في القدرة على التخييل والاستيهام؟ ألا يبدو الفعل الإنساني النبيل في عمقه جميلاً..؟

ـ حين كتب فرانز كافكا رواية «التحوّل»، تصوّر السقوط الإنساني المعاصر على هيئة بطل يستيقظ في الصباح ليجد نفسه قد تحوّل إلى حشرة عملاقة. هذه الرواية الصغيرة أثارت من الدهشة والتساؤل ما جعلها تصمد إلى الآن، في حين أنّ كثيرًا من الأفعال الثوريّة، السياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة، نُسيت تمامًا.

ـ الفعل الإنساني الملموس لا يُنسى حليمة..

ـ ظرفيّته هي التي تجعله يُنسى. إنّه نتاج شروط محدّدة، بمجرّد ما تتغيّر، تتغيّر دلالات الفعل. لاحظ الآن، لا أحد يتحدّث عن الثورة الفرنسيّة بنفس حماسة أبطالها الأوائل، أو حماسة مفكّرين كبار أمثال كانط وهيجل..

ـ حتى الأعمال الإبداعيّة تُنسى.. mon bébé

ـ هذا أكيد، لأنّها ظرفيّة. لكن لا أحد يعتبر ملاحم الإغريق ومسرحيّات سوفوكل وأسخيليوس وشكسبير وراسين وروايات دوستويفسكي ومارسيل بروست.. أعمالاً ظرفيّة.. إنّها إبداعات كونيّة خالدة، رغم أنّها نتاج شروط تاريخيّة عارضة. وسرّ خلودها هو أنّها

Twitter: @ketab_n

تقوم على عمق جمالي وعمق فكري وعمق إنساني يتجاوز العصور. خذ مثلاً قصص ألف ليلة وليلة في التراث العربي. إنّها خالدة لأنّها تقوم على حكي جميل ومدهش، وفي الوقت نفسه، تضيء جوانب من العتمة البشريّة المتعلّقة بالجانب الجسدي الإيروتيكي، الذي حاول التقليد الفقهي الشرعي قمعه والتستّر عليه واعتباره غواية شيطانيّة.

- Très bien dit Halima.. il faut changer de perspective..

كان واضحًا أنّه فُتن بخطابي، وفي الوقت نفسه أراد أن يغيّر سياق الحوار.

- Tu sais Halima.. j'ai remarqué ici au Maroc qu'on ne parle pas un langage franc..

لم أدر كيف انقطع حوارنا. داهمنا النوم فجأة. حاولنا المقاومة، لكنَّ جسدَيْنا أُرهقا. وحتى كلامنا بدأ في التثاقل. كنت اتّخذت احتياطاتي. ضبطت منبّه الهاتف المحمول على الثامنة صباحًا، لكي لا تفاجئنا أمّي نائميْن في السرير نفسه.

دقّ منبّه المحمول ولم أنتبه. سمعت طرقًا عنيفًا على الباب. كانت أمّي في كامل شراستها تقتحم علينا «فسقنا» وتهرول نحوي لتجرّني من شعري وتخرجني من الفراش عارية تمامًا، وتنهال على كمال بحزام جلدي. استجمعتْ كلّ قاموس الشتائم الشعبيّة، وكان صوتها يلعلع مثل قاذفات الآربيجي. تجاوز صوتها الغرفة نحو الحومة بأكملها. تعثّرتُ مرّات ومرّات وأنا أحاول أن أجد روبي الليلي لأستر نفسي. كانت فضيحة انتظرتها الحومة سنوات طويلة لتستعيد غزواتها الأخلاقيّة. لم تفلتني أمّي. كانت تمزّق لحمي بأظافرها وأسنانها، وتنتف شعري بكلّ بطش حتى تلتصق خصلاتي بين أصابعها. وكمال

Twitter: @ketab_n

في غمرة الدهشة الفاضحة، لم يعثر على ملابسه الداخليّة وشورته الصيفي. رأيته ينهار مثل طفل في أقصى زاوية الغرفة وينخرط في بكاء حادّ. لم تتوقّف أمّي عن لعنه ولطم خدودها وفخذيها وترويع المكان بصوتها المزلزل. سمعت طرقات متسارعة على الباب الخارجي. كان الجيران يصرخون: لالة عالية.. لالة عالية.. ياك لاباس.. يا ربّي تستر.. يا ربّي تلطف.. استيقظت مذعورة. كنت أتصبّب عرقًا. كمال بجانبي مثل غيمة حانية. كانت الساعة العاشرة. لم أصدّق أنّني خرجت من حلم مروّع. تناهى إليّ أثناء النوم أنّني سمعت طرقًا خفيفًا على باب الغرفة. نهضت بسرعة وارتديت روبي الليلي، وأيقظت كمال. فتحت الباب برفق. وجدت صينيّة الفطور جاهزة على الطاولة بالسيجور. ملاوي وزيت بلديّة وزيتون وزبدة وعسل وإبريق شاي بالنعناع العبدي وبعض المكسّرات. لم يكن هناك مجال للشكّ. استيقظت أمّي قبلنا وعرفت كلّ شيء. اغتسلت وارتديت ملابسي بسرعة، وسوّيت شعري ومكياجي، وعملت على ألّا يتفطّن كمال للأمر تفاديًا لإحراجه أمام أمّي. أيقظته وناديت أمّي للإفطار. تعاملت معنا بكلّ تلقائيّة. كانت أمّي الحقيقيّة كما عرفتها دائمًا. لا علاقة لها بأمّي في الحلم. أدركت أنّ هواجسي مكرت بي. كان الخوف هو الذي صوّر لي أمًّا مرعبة تحمل سوطًا وتنهش لحمي في شراسة. كانت أمّي تغضّ الطرف دومًا عن مغامراتي، لعلّني أجد قدرًا رحيمًا يجود عليّ بزوج، مثلما سكتت عن نومي مع كمال، لعلّ هذا المهاجر الشابّ الذي استدفأ بفراشي، يقتنع بالزواج منّي.

عندما ودّعناه على الباب، ضمّت كمال بحنوّ غامر. كان ولدَها الذي لم تلده، ولم تزغرد النساء لحظة ولادته. قالت له: لا تنس أن تبحث عن قبر أمّك، وتقرأ الفاتحة على روحها ـ لعلّها تستريح في

Twitter: @ketab_n

قبرها يا ولدي. خفض كمال رأسه ولم يقل شيئًا، ونزل الأدراج نحو الباب الخارجي. التفتت إليّ أمّي بنظرتها الوديعة التي لا تخلو من العتاب الأبدي. كانت تقول لي: الله يهديك آبنتي.. كمال ديالنا.. ما تفرّطيش ف نصيبك..! وجدتني أقول لها دون أن تسمعني: «لقد أبطلنا العالم الحقيقي: أيّ عالم تبقّى..؟ لعلّه الظاهر..»! هل عالمي الحقيقي هو ما أضمر من انتظارات وآمال وتمنّيات، لكي يترفّق القدر بي، فيرسل لي زوجًا يزرع أحشائي أطفالاً ونسلاً..؟ أم عالم الظاهر، حيث أعيش كما يفرض جسدي ذلك من شهوات ورغبات وغرائز..؟ وما المثال الذي أبحث عنه..؟ وهل يمكن تصوّر جمال معنويّ خارج قوّة الظاهر والمظاهر التي يفرضها الجسد..؟

فتحت محمولي. اتّصلت بالشلّة، قلت لهم بلهجة لا تخلو من مكر:

- à aucun prix il ne faut manquer cette surprise. rendez-vous Triangle Rouge comme d'habitude..

سمعت الراهب يجيب: بدأ الثعبان يتسلّل.. كانوا جميعًا في المقهى. كاميليا في كامل أناقتها الرفيعة وهدوئها البورجوازي. سامية بشغبها الأبيقوري. أسلين برشحها الأطلسي. الراهب متحفّز كالعادة لمدّ لسانه اللزج نحو أقرب فريسة. ميلاد بتهويماته الشعريّة الغامضة. كان النوري غائبًا. ربّما هو منهمك في التحضير لفيلمه الموعود الذي لا يريد أن يتحقّق. قدّمت لهم كمال. انقضّ عليه الراهب بسخريّته اللاذعة: من شباب ٢٠ فبراير..! كان واضحًا أنّه يريد استفزازه. تدخّلت: كفى أيّها الرجيم. ألا ترى أنّه في مثل سنّنا، ومع ذلك كلّنا نتبنّى بشكل أو بآخر المبادئ الكبرى لحركة ٢٠ فبراير. ضحك الراهب معتذرًا: طبعًا عزيزتي أحلام.. لولا حركة ٢٠ فبراير لظلّ ثعبانك على

Twitter: @ketab_n

بياته الشهوي. تناولت علبة سجائر موضوعة على الطاولة وقذفته بها: على الأقلّ استحي. كمال لم يتعوّد علينا بعد..

فاتحته كاميليا: سمعنا أنّك مناضل حقوقي.. ردّ كمال: Si vous voulez oui.. ردّت عليه كاميليا: Ah non.. ne me vouvoie pas.. on dirait qu'on est à la Mission..

Alors je suis Kamal et tu es Kamie..

وضحك الجميع. بدأ كمال يتحدّث: طالما أرّقتني مسألة أساسيّة: كيف يمكن أن نطالب دولة مثل فرنسا بصيانة حقوقنا كمهاجرين، في الوقت الذي لا يسمح المغرب مثلاً للمرأة أن تمنح جنسيّتها لأبنائها؟ c'est absurde. جئت إلى المغرب لا كمهاجر مسكين ومظلوم ومغترب. هذا يجعلني في حالة دونيّة مستدامة. بل جئت كمواطن كوني أدافع عن حقوق المواطنة الكاملة وحرّيّة المرأة وحرّيّة التعبير والمعتقد والجسد.

صفّق الراهب: ها ها.. هذا خطاب جديد خال تمامًا من كلّ بلاغة ثوريّة. أشعلتْ سامية سيجارة ونفثت دوائر في الهواء: لقد ولّى زمن البلاغة الثوريّة. خذ مثلاً حالة كلّ الدول العربيّة بدون استثناء. لقد ناضلت بكلّ حماسة ثوريّة ضدّ الغرب الاستعماري وصدّرتْ الثورة والأغاني والأحلام والشعارات إلى العالم. لكن عند الاستقلال، تبنّت هذه الدول أسوأ مظاهر السلطة الاستبداديّة وأبشع مدوّنات الأحوال الشخصيّة التي تجعل من المرأة مجرّد سقط متاع، فقط باسم الهويّة العذراء. نفضت رماد سيجارتها بعصبيّة، وتدخّل ميلاد: أتذكرون موقف الجنرال دوغول، عندما حاصرته سهام النقد من كلّ جانب، لأنّه منح الجزائر الفرنسيّة استقلالها. قال للمنتقدين: لا تكلّموني

Twitter: @ketab_n

الآن.. كلّموني عن الجزائر بعد ثلاثين سنة. وقد صدقت نبوءة دوغول. دولة المليون شهيد والبليون بليون دولار، فشلت في بناء مؤسّسات دولويّة عصريّة، يكون فيها المواطن سيّد نفسه وسيّد قراراته، وتكون المرأة كائنًا مستقلًّا ضمن قانون أسرة حداثي.

وقفتُ ورفعت عصيري نخبًا للحوار: هه.. لا تحشرونا في الممرّ الضيّق للسياسة.. لا تنسوا أنّ الجزائر المستقلّة ورثت دولة منهارة ومديونة ومنهوبة.. ثم لا تنسوا أنّ هناك إشكاليّة عبثيّة لم أجد لها حلًّا.. جاء صوت أسلين: الخلود والجمال والقيمة الإبداعيّة.. هل يمكن فصل كلّ تلك الأحلام عن سياق أحلامنا في بناء دولة لا تقيم في لاشعورنا جلّادًا أزليًّا..؟ كاميليا الهادئة، لم تحوّل عينيها عن كمال. تدخّلتُ وقلت لها: هو ملكيّة محفظة.. لا تحلمي.. ابتسمت كاميليا بطريقتها المتعالية: منذ قليل كنّا نتحدّث عن حرّيّة القرار وحرّيّة الجسد.. لا ترجعي إلى عبادة الأخلاق المهترئة. ارتشف الراهب قهوته بشكل مسموع. ضرب الكأس على الطاولة، وقال ساخرًا: كاميليا إيّاك أن تقفي في وجه ثعبان خرج لتوّه من مغارة باردة.. ووضع يديه على وجهه تفاديًا لعلبة السجائر التي قذفتْه بها. ظلّ كمال محافظًا على هدوئه. كان ينظر في أعين الجميع، كأنّه يقرأ مستقبل الأيّام فيها. قال: أيّها الأصدقاء.. نحن أمام حركة عظيمة غير مسبوقة في التاريخ المغربي. إمّا أن نكون على قدر المرحلة التاريخيّة، وإمّا أن تبتلعنا رمال الجنوب الأزليّة.

بقينا صامتين. كانت الساعة قد جاوزت العاشرة ليلاً. وقفت كاميليا، ودعتْنا للعشاء في مطعم فاخر في الجوار.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ـ ١١ ـ

ـ هل ستجرؤين أسلين..؟ يسألني ميلاد.

ـ إن لم أمتلك الجرأة الآن، فسأعيش طوال حياتي خائفة. سأعيش منزوعة منّي.. أجبت.

كنت في الكواليس أُعيد آخر البروفات قبل أن ترفع الستارة. صفّق ميلاد. ضمّني الراهب. أرسلت لي كاميليا قبلة على الهواء، فيما ظلّت سامية مشرقة بعينيها وهي تحثّني في صمت على ركوب الجرأة. وقفت أمامي المخرجة بكلّ قامتها الفارعة وجسدها النحيف. السيجارة في فمها، ويداها لا تتوقّفان عن توجيه المسؤول عن الإضاءة. حركاتها لم تخلُ من قلق وتوتّر، وهي تخاطبني: تذكّري أسلين.. أنتِ الممثّلة الوحيدة على الخشبة.. ستكونين في مواجهة جمهور وحش، مشحون دينيًا وموجّه أخلاقيًا واجتماعيًا، ولا تملكين غير جسدك لإيصال الفكرة التي تجسّدينها.

أُعيد التأمّل في جسدي. إنّه قلمي وفرشاتي. نوتّتي. مادّتي

Twitter: @ketab_n

الأساسيّة. كيف أنفصل عنه لأقنع الجمهور أنّني لست أنا، بل أنا في جسد آخر..؟

ـ لم يعد من مجال للتراجع مدام سعيدة..

أجيب المخرجة التي تسحق عقب سيجارتها بقدمها، وتعطي الإشارة لبدء ضربات رفع الستارة. طوال سنة، وأنا أشتغل مع المخرجة سعيدة على هذه المسرحيّة. كانت قد أنهت دراستها المسرحيّة بـ «لا كوميدي فرانسيز»، وعادت إلى المغرب برؤية جديدة ومتحرّرة: كيف نفصل المسرح عن الأخلاق من أجل مسرح متحرّر، مثلما نفصل الدين عن السياسة من أجل دولة مدنيّة..؟ كيف نغيّر تصوّر الناس لجسد الممثّل أو الممثّلة..؟ وكيف نقيم قطيعة بين المسرح كرؤية وفلسفة واحتراف، والحلقة كتهريج شعبي هاوٍ..؟ ولكي نضمن عدم تشتّت المتفرّج ذهنيًا وجماليًا، اتّفقنا على عرض مسرحيّ بممثّل واحد، ولْيكن أنثى لضمان استفزاز أكبر وإثارة أنفذ. اعتمد النصّ على فكرة بسيطة: ما الذي يخيفنا عندما تعرض ممثّلة جسدها شبه عار..؟ هل الذي يهتزّ هو المسرح، أم تمثّلات الناس الاجتماعيّة..؟ ولكي لا يكون تعرّي الجسد مجّانيًا ورخيصًا، كان لا بدّ من فكرة تؤسّسه، تقوم على حكاية. في بدء الحكاية، كان جسد المرأة عاريًا، وكان يعني الحرّيّة والغناء والرقص والفرح. جاء الفاتحون، وقاموا بتغطيته وحجبه كحجّة كاذبة، وهي أنّه يثير الفتنة ويصدم المعتقد. ولكنّ السبب الرئيسي هو قمع فكرة الحرّيّة والغناء والقدرة على الفرح، لأنّها تدلّ على قيم المقاومة ضدّ الدخيل المنتصر، وإرادة الحياة ضدّ كلّ من يرتهن الحياة. كلّ منتصر يريد أن ينتشي بانتصاره العظيم عندما يرى المنهزم في حالة بؤس وانكماش وورع روحيّ. أذكر رقصات أحيدوس. الاختلاط الجنسي والإصرار

Twitter: @ketab_n

على إدمان الفرح حتى الصباح، وهارمونيا الإيقاعات الجسديّة. بدون امرأة في حلقة الرقص، يضيِّع المايسترو رشاقة وخفّة حركاته.

ترتفع الستارة. الظلام سيّد المكان. تبهرني الأضواء المنبعثة من زوايا المسرح، فلا أرى غير أشباح الجمهور. أحمل قنديلاً، وأبحث عن نقطة فرح في أرض جذلى. أتستّر بملاءة سوداء تعوق حركتي. أنظر في اتّجاه القمر، ويندلق الكلام:

أيّها القمر المضيء. أكانَ لضوئك سحرٌ لولا هذه العيون التي تعكس ألقه؟

أيّتها الأرض الجذلى. ما الذي يجعلني أخطو فوق

عشبك الأخضر، وأنا ألبس السواد..؟ (نيتشه)..

تخفت الإنارة تمامًا، وتسقط على جسدي دائرة مشعّة من الضوء الأرجوانيّ. تتلاشى كلّ خلفيّة وكلّ سينوغرافيا. وحدي تحت دائرة الضوء المشعّة، أداعب عشب الأرض الجذلى، وأتشرّب زلال القمر المضيء:

عبثًا أحمل قنديلي. القمر فوقي والعشب

تحتي. لكن ما الذي يمنع فرح الأعماق؟ أين

أعثر على وهج للحقيقة لا يحرق الأصابع الممسكة بالقنديل..؟

أتنبّه فجأة إلى ملاءتي السوداء المزرّرة بإحكام:

ملاءتي سوداء وأزرارها تشبه أصفاد رجال الأمن.

أريد أن أغنّي كالصمت وأرقص كالشجر

وأفرح كالمواويل.

Twitter: @ketab_n

جسدي عار تمامًا من العتمة وقلبي حزين. ما الذي يجعل أعماقي كئيبة إلى هذا الحدّ، ولحمي أكاليل غار على رأس بطل يعود من حروبه متوّجًا بالحياة..؟ ارتفعت هالة الإنارة لتسقط على عينيَّ. كانتا بمعزل عن الحزن والرثاء. كانتا فقط مشرقتين. رفعت يدي كأنّني أُحَيي عينيَّ، وتتبّعتني هالة الإنارة الدائريّة. فككت الزرّ الأوّل الذي يغلق على عنقي. لا نرقص أحواش إن لم نكن مبتهجين. لا نرقص أحيدوس إن لم نتخيّل العالم أنثى عاريةً. نزلت بأصابعي وفككت الزرّ الذي يغلق على صدري. ظهر اللون الأبيض لحمّالة نهدي، ثم انزلقت هالة الإنارة مصاحبة لافتتان أصابعي وهي تفكّك بقيّة الأزرار، التي تغطّي بطني وأسفل صرّتي حتى قدميّ. كانت ملاءتي السوداء مفتوحة تمامًا على دائرة الضوء. حمّالة نهديّ بيضاء وسليبي أبيض ولحمي بضّ وطازج ومتحفّز للغناء. تمدّدت على الركح على شاكلة راقصة باليه. لم أسمع لعنات الجمهور، ولم أر قناني المياه البلاستيكيّة التي كانت تقذفني على الركح، ولم تخترقني حولقات من صدمهم المشهد. وقفت متلوّية كأفعى تستعدّ للإغواء، وبحركة خاطفة رميت ملاءتي في ظلام المسرح. كنت عارية تمامًا إلّا من حمّالة نهديّ وسليبي الأبيض. وددت لو كنت جديرة بعريّ حوّاء الإيروتيكي حين أكلت من شجرة التفّاح المحرّمة. لم أكن، ولم يكونوا. كنت رفضًا يتحدّى، وكانوا حقدًا تاريخيًّا ينبعث من رماده.

هرول الموت نحوي. امتدّت مقاصل الأفواه ترجُمني: قحبة.. عاهرة.. ساقطة.. سحاقيّة.. روحي تناكي.. هذه من علامات الساعة.. حرقوا الساحرة.. أيادٍ تتوعّد.. جزمات تقصف وجهي.. حناجر تنصب مشانقها لِردَّتي. فجأة أحسست بأياد غليظة تنتشلني من المسرح. كانوا الحرّاس الأمنيين. تدخّلوا في اللحظة الحاسمة

Twitter: @ketab_n

وهرّبوني إلى الكواليس بعد أن اجتاحت الحشود خشبة المسرح كلّها. ما حدث، كان أشبه بتاريخ تمّ خصيه فجأة. شحننا رجال الأمن، أنا والمخرجة والطاقم التقني وبقيّة الشلّة، في سيّارة وظيفيّة، وهرّبونا إلى أبعد فندق في الرباط. هل كان من حقّ الممثّلة أن تستعرض جسدها بهذا الشكل المستفزّ..؟ هل الجمهور المغربيّ رخيص إلى هذه الدرجة التي تجعله يسلِّم بمشاهد العري لعاهرة على مسرح عموميّ..؟ هل وصل المجتمع المغربي إلى هذه الدرجة من التفسّخ الذي يتطاول على كلّ دين وأخلاق..؟ يجب إقامة الحدّ على الممثّلة والمخرجة وكاتب النصّ والمسؤولين عن المعهد الثقافي الفرنسي الذين سمحوا بهذا العرض..!

هكذا، صدرت صحف الصباح التي اكتشفت فجأة أن الوطن على حافة الانهيار الكلّي بسبب جسد شبه عار لممثلة ساقطة. ارتفعت بعض الأصوات المتنوِّرة القليلة، وطرحت المسألة للنقاش: لماذا لا نثور عندما نرى أجسادًا شبه عارية للنساء على الشواطئ..؟ ولماذا لا نغضب عندما تعرض قاعات السينما أفلامًا خليعة..؟ هل يرجع الغضب من الممثلة إلى أن عقليتنا لا تقبل أيّة مغايرة فرديّة خارج الإجماع التاريخي المقدّس، في حين أنّنا نرتاح بخصوص الأفلام الأجنبيّة الخليعة، لأنّ الأمر يتعلّق بممثّلات أجنبيّات ينتمين أصلاً لثقافة العهارة والتهتّك المادّي؛ نحن براء منها. كان جسدي العاري المستفزّ شبيهًا بالكاهنة الداهية، وهي تقف في وجه الخيول التي تحمل على ظهورها فرسان الإيمان. لم يكن جسدي يطالب بغير حقّه في أن يكون سيّدًا على نفسه ومالكًا لأعضائه ومتمتّعًا بحرِّيّته.

في الفندق، كنّا مرعوبين جدًّا. لقد أفلتنا من السحل بأعجوبة. تدخّل الراهب ليسخر من العالم كعادته، ويلطّف الجوّ: لا تبتئسي

Twitter: @ketab_n

أسلين.. كلّ الذين لعنوك اليوم سيطلبون رقم هاتفك غدًا. لقد رأوا جسدك، ولا بدّ من العوم. عندما كنّا صغارًا، كنّا نذهب إلى النهر، وعندما ينزع أحدنا ملابسه، كنّا نقول له: لقد رآك النهر، ولا بدّ من العوم، وكان المضمَر هنا هو إمكانيّة وقوع مكروه لمن لا يعوم عندما يتجرّد من ثيابه أمام النهر. اطمأنّي أسلين.. لن يرتاحوا قبل غزوك! وأضاف: وليس مستبعدًا أن يطلبك مسؤول كبير إلى فراشه.. سيقول لكِ عندما يرى استغرابك: إذا ابتليتم فاستتروا..!

في الامتداد المطلق لبلاد تامزغا، كان تاريخ الأمازيغ يشبه حروف التيفناغ، التي يُقال إنّ الطوارق كانوا يكتبونها على الرمال، ممّا يعرّضها لحتميّة المحو باستمرار. هل من حقّ المهزومين أن يطالبوا المنتصرين بكتابة عادلة للتاريخ، وبتوزيع عادل لثروات الذاكرة..؟ من لا يكتب تاريخه بنفسه، لا حقّ له في لوم الآخرين على التحريف. لكنّه جسدي. واضح وعار وضاجّ بالغناء والفرح. المواويل تزهر كلّ شتاء في أشجار الأرز وحروف التيفناغ التي تشبه قواقع مستحاثة تدلّ على أنّني أكبر من تاريخ الفقهاء والسلاطين.

ظلّ يحدّق فيّ. لم تكن نظراته مشجّعة، ولا مُدينة. كانت نظرات إغريقي يحمل قنديله ويبحث عن الحقيقة في غياب أيّ سند خارجي، ما عدا عقله وحدسه: كمال الذي قدّمتْه لنا أحلام منذ أيّام قليلة وأصبح واحدًا من الشلّة «السدوميّة». في كافيتريا الفندق الذي نزلنا فيه بعد أحداث الجسد العاري، لم يتوقّف نقاشنا. كنّا نقرأ ما كتبته الجرائد، ونحاول أن نفهم لكي نقيس خطواتنا.

رنّ المحمول. كان النوري يتّصل من باريس للاطمئنان عليّ. لقد وصلت الأصداء العاصمة الفرنسيّة. حاول بكلّ ما امتلكه من قدرة على التفكير والصبر، أن يشعرني بأنّ القوى الإنسانيّة والضمائر الحيّة في

Twitter: @ketab_n

فرنسا تقف معي، واعتبر حركتي «حدثًا تاريخيًّا» انتظرناه طويلاً. قبل أن يـخـتـم: j'ai admiré ton corps.. mais tu gardes toujours mon secret. ضـحـكـت وأنـا أردّ عـلـيـه: rassure toi brave virile.. كان يشير للّيلة التي قضيناها معًا في الفراش، ونحن نتناقش ونتجادل و«نتكلّم» فقط.

التفتُّ إليه. النظرات البروميثيّة نفسها التي لا تمنحك اطمئنانًا سريعًا، ولا تقتحمك بأيّة عدوانيّة مجّانيّة. قلت له: يبدو أنّ السيّد كمال يشبه قاضيًا في جلسة مداولة، يصعب عليه أن يصدر حكمًا قبل مراجعة جميع الأوراق ومحاولة لجم نداء القلب.. انتبه الجميع فجأة إليه. ظلّ على نظراته العميقة. تراجع بظهره فوق الكرسي. أخرج سيجارة وظلّ يضربها على العلبة لضغط التبغ داخلها. أخيرًا ابتسم: c'est que je suis vraiment dans l'embarras je.... كاميليا التي لم تقل شيئًا منذ «حادثة الخشبة»، تحرّك فيها فجأة دافع فضولي: on attend tes explications cher Kamal..

je suis à toi ma Kamélia..

ضربت أحلام الطاولة بقبضتيها وهبّت واقفة: لا أحبّ هذه التورية.. إيّاكما.. إنّني أنتظر أوّل فريسة..! جذبها الراهب من مرفقها وجلست. عاد الهدوء، وعاد كمال إلى الكلام: تساءلت منذ انطلاق حركة ٢٠ فبراير: ما الذي يجعل هذه الحركة «حدثًا تاريخيًّا» لا شبيه له في ماضينا..؟ كلّنا رفعنا في هذه الحركة شعارات إنسانيّة وكونيّة: الدولة المدنيّة. الهويّة المتعدّدة. حرّيّة المرأة. حرّيّة المعتقد. بروز الذات. سيادة القانون. الشرعيّة الدستوريّة. السيادة الشعبيّة.. لأوّل مرّة، لا نجد حركة تتمسّح بالماضي وتستجدي شرعيّتها من «الأمس الأزلي». لم يعد هناك أوثان. هذا كلّه جميل، والكلّ رحّب

Twitter: @ketab_n

به وصفّق له. لكن ما الذي يجعل المغاربة يرتدّون فجأة ويحرقون سنوات من النضال، ومن تبنّيهم لحركة ٢٠ فبراير لمجرّد رؤية جسد شبه عار لممثّلة على المسرح..؟ لو كان الأمر يتعلّق بالجماهير الشعبيّة لكانت المسألة مفهومة، ما دام أنّ هذه الجماهير لا تمتلك ثقافة عالمة. لكن أن ينتفض كثير من المثقّفين والمناضلين والفنّانين ضدّ الممثّلة، هذا ما يدعو للاستغراب. نحن أبطال عندما يتعلّق الأمر بالشعارات، لكنّنا نصبح أسوأ حرّاس للعقيدة والهويّة الأخلاقيّة، عندما يتعلّق الأمر بفعل خارج عن «الإجماع». نقبل بتواجد أجساد عارية بالشواطئ، ونرفض جسدًا شبه عار على الخشبة. رغم أنّنا متّفقون سلفًا على أنّ جسد الممثّلة هو وسيلتها الوحيدة. نريد من المدرسة أن تكون أخلاقيّة، ونحن نمتنع عن التربية الجنسيّة، ونريد من المسرح أو السينما أن يكونا وسيلتيْ وعظ وإيمان، ونحن نعرف أنّ ذلك يمثّل كذبًا على الذات. نريد أن نستمتع بأرقى ما وصل إليه العلم، ونحن نكرّر دومًا أنّ ديننا وتاريخنا يحتويان على كلّ الإنجازات العلميّة! وعجزنا عن عدم فهم النصّ المقدّس هو الذي حال بيننا وبين الأسرار العلميّة المبثوثة في اللغة المتعالية. ماذا نريد..؟ هذا هو السؤال الذي لا نريد أن نطرحه.

تدخّل الراهب. كان هذه المرّة جادّ الملامح. كان لوجهه عمق البحار وخفّة الطيور: تعرف كمال لماذا لا يمكن أن نكتب أدبًا حقيقيًّا وننتج فكرًا عميقًا..؟ لأنّنا بكلّ بساطة لسنا ثقافة تراجيديا. ربّما نحن الثقافة الوحيدة التي لا مشكلة لديها، ما دام الجواب محسومًا ونهائيًّا ومبثوثًا في النصّ المقدّس، وما علينا سوى أن «نفقه» أعماق اللغة لنستنبطه. لم يتقدّم الألمان إلّا لأنّهم أقرّوا بحقيقة تأخّرهم التاريخي قياسًا إلى فرنسا وإنجلترا، ولم يتقدّم الروس إلّا لأنّهم وصلوا إلى

Twitter: @ketab_n

عقدة تخلّفهم رغم إيمانهم بالعظمة السلافيّة. لقد قال الروس في القرن التاسع عشر: نحن نعيش زمنًا متثاقلاً. ففي الوقت الذي تحقّق شعوب أميركا وأوروبا واليابان أعمالاً جليلة وعظيمة، نحن نهدر الوقت في مسألة القنانة والأبويّة القيصريّة والخلاص الأورثوذكسي. هذه الشعوب لم تكذب على نفسها. لقد عرّت جسدها تمامًا.

نعم أيّها الراهب، حين عرّيت جسدي، كنت أعرّي تاريخي الزائف، وأضعه أمام حقيقته. لقد كنت أشبهَ ما أكون بأبوين لا يريان في ابنهما سوى طفل بريء ووديع وشبيه بالملائكة، حتى اللحظة التي يفاجئانه في الحمّام منهمكًا في الاستمناء، فيشبعانه ضربًا وتأنيبًا ووعيدًا بالنار، عوض أن يعترفا أنّ ابنهما وصل مرحلة المراهقة، وأنّ الضغط الجسدي، بكلّ ما يعنيه من رغبات جنسيّة جارفة، لا مجال لإنكاره. هكذا يكبر الابن متوجّسًا من جسده ومن أبويه ومن محيطه، ويكبت «أناه» في أبعد نقطة من ظلامه اللاشعوري. في ليلة ما، أذكر، كم عانقت ميلاد. كنت أمصّ شفتيه كرحيق محرَّم، وأبحث عن مراقصة لساني بلسانه. ليلتها اكتشفت أنّ الشاعر كائن ينحت لغته بمعزل عن البلاغة والركوع أمام القواميس. بل هو كائن يصغي لما تحت الجنازات من أناشيد لتمجيد الطبيعة وتأبيد المواويل. كان مغنّي الأطلس الشهير قد توفّي قبل أيّام. لم يكن موته رسميًا ووطنيًا ومحتفى به. فقط لأنّه لا يغنّي بلغة السيوف الجائعة. قال ميلاد في شذرته التي ربّما لم يتفاعل الكثير معها في القاعة:

المغنّي الذي مات

حمل الفرحَ الراقص في جنازته.

كان يفتح باب الآخرة

Twitter: @ketab_n

الرقص والمواويل كالغناء الذي يجعل الجرح شاهقًا ومتعاليًا على كلّ جنازة، ويجعل عالم الغيب أشبه بثدي منتظر لا ينام الطفل حتى يمتلكه.

ضمّني ميلاد بدوره. كان ضائعًا على رضاب شفتيّ، وكنّا في حالة حلول صوفيّ، وعلى ملامحه بقايا دمعة بهيجة.

احتفلنا على طريقتنا ليلتَها. كنّا وحدنا، وثالثنا الفرح. كنّا وحدنا والفرح ورابعنا الجسد الموشوم بالأنخاب. أعرف أنّ ميلاد لا يفقه كلمة واحدة في الأمازيغيّة، ولكنّه دائم الإعجاب بما أترجم له من مقاطع شعريّة أمازيغيّة. حينها أحسّ بنبضه. بين ذراعيه، كان جسدي العاري شذرة تشبه تموايت تصدح في الإذاعة الأمازيغيّة عند الخامسة من كلّ مساء. في الكهوف الضاجّة برسوم الأقدمين، كانت الكاهنة تمنح جسدها كلّ ليل للقدر كي تنتصر على نزيف الساحل الممتدّ من بكتيريا التاريخ إلى رأس يوبا الثاني المصنوع من نحاس. لكنّ التاريخ لم يحتفظ للكاهنة سوى بلقبها العربي: الداهية.

ونحن في قمّة النشوة، سألني ميلاد فجأة: أسلين. . ماذا تنتظرين من نضالك الأمازيغي. .؟ لم يكن لديّ جواب جاهز. لكنّي كنت متأكّدة من شيء واحد. قلت له: اسمع ميلاد. . أنا لا أؤمن بأنّ القضيّة الأمازيغيّة هي قضيّة سياسيّة. نحن لا نبحث عن وطن للأمازيغ، ولا عن استقلال عن الدولة، ولا عن شوفينيّة خرقاء. القضيّة ثقافيّة بالأساس، تتعلّق بالاعتراف بلغتنا كلغة رسميّة، وباعتبار المكوّن الأمازيغي جزءًا أساسيًّا من الهويّة الوطنيّة، وفتح بوّابة التاريخ للرجوع إلى ما قبل مجيء عقبة. هذه مسألة ملحّة، تتعلّق بمصير وطن

Twitter: @ketab_n

بأكمله، وليس بنا نحن الأمازيغ فقط. يجب أن نتعامل مع الواقع كما هو، بمنأى عن فكر الفقهاء وحرّاس العقيدة. ذلك ما قاله يومًا عبد الكبير الخطيبي في «النقد المزدوج»: «إنّ التعدّد اللغوي أو الازدواجيّة قوّة للمعرفة والتسامح، عندما يكون لها مركز ثقل محدّد للهويّة، وتكون تعبيرًا عن الإجماع، فيما تتحوّل إلى عامل من عوامل ضياع الطاقات وانكفاء المجموعة حين يتمّ إخفاؤها أو إنكارها». تنهّد ميلاد، كأنّه يولد، وجعلني أحسّ بنبض شعره، وجعله يغوص فيما وراء جسدي العاري. سمعته يقول: أسلين.. هل تعرفين كيف وصل باراك أوباما إلى البيت الأبيض..؟ لأنّه قال ذات يوم: ليس هناك ولايات متّحدة أميركيّة بيضاء وولايات متّحدة أميركيّة سوداء.. ليس هناك ولايات متّحدة أميركيّة ليبراليّة وولايات متّحدة أميركيّة محافظة. هناك فقط ولايات متّحدة أميركيّة واحدة. ففزتُ فوقه وأنا أستبق بقيّة كلامه: ليس هناك مغرب عربي ومغرب أمازيغي، مغرب دخيل ومغرب أصيل. هناك فقط مغرب واحد. فتح قبضته اليمنى وهو يقترب من كهف الأسرار: آه لو كنّا أحرارًا في اقتحام مغارة علي بابا كما نريد..! آه أيّتها الأسرار اللعينة.. أيّها التاريخ الغبيّ.. لماذا لا نرى غير الموت يا أدونيس عندما نتمثّل التاريخ، كما تمثّلته أنت حين قلت:

وها هو التاريخ،

حاضر يدبّ في أكياس من الورق

في عربات تجرّها عظام الموتى..؟

في تلك الليلة، أحرقتُ أزهار الأرق على فحولة ميلاد. تذكّرت طارق. تذكّرت يبّا ويمّا وآزرو كلّها. ماذا يقولون عنّي؟ ما هو ردّ

Twitter: @ketab_n

فعلهم؟ هل سيسحلوني مثلما حاول البعض هنا في العاصمة؟ هل سيذهبون إلى مهرجانات عين اللوح وإيفران وإيموزار والحاجب وخنيفرة جاهزين للمواويل وأحيدوس، كعادتهم منذ آلاف السنين، أم سيعتبرون جسدي فضيحة لا تُغتسل إلّا بالدم؟ لم أكن محاصرة. كنت في تناغم مع ذاتي. كان الآخرون هم الذين يعانون من حصار مزمن، حوّلوه إلى بيرق للأخلاق والقيم. تذكّرت روائيّة فرنسيّة في منتصف عمرها، سألها مذيع في برنامج ثقافي: ما السعادة بالنسبة لك كمبدعة..؟ أجابت من دون حرج: bien manger.. bien dormir.. bien baiser.. ضحك كلّ ما كان في البلاتوه، ولم يقف أحد بالتهديد والقتل. في الغد، رنّ المحمول. كان أخي طارق على الخطّ: صباح الخير أسلين.. صباح الخير طارق.. توجّست من مكالمته. في العادة عندما يهاتفني طارق مبتدئًا بالعربيّة، أدرك أنّ مزاجه غير رائق. سمعت أنفاسه على الخطّ مشوّشة. لكن تبيّن لي أنّ الخطّ هو الذي كان مشوّشًا. لم أرتح إلّا بعد ان سمعته يبلّغني بلغتنا الأموميّة: ما نواش أسلين.. لا باس غِيرَكْ..؟ لا باس أوْما طارق.. آش عندك نهار السبت والحدّ..؟ والو كيما ديما.. إذن أنت مدعوّة لمهرجان البلدة.. ننتظرك.. لا أقبل أيّ عذر..

ارتحت. البلدة الصغيرة الأطلسيّة الموشومة الصامتة تحت جبال الأطلس المتوسّط وأشجار الأرز وصياح القردة المتقافزة. البلدة الماء الجسد السهر الفرح.. حفيف الأنثى وشهقة الذكر. مهرجانها الأمازيغي السنوي يعيد للبياضات المحمّلة بالمعنى زغاريد من كانوا هنا وما زالوا وسيكونون. لم أتردّد. اقترحت على الشلّة مرافقتي. كالعادة، كان الراهب أوّل من يمدّ لسانه بالسخرية: سمعت أنّ الجنس في هذه البلدة الصغيرة كالرقص وحطب المواقد..! لم أعر سخريّته

Twitter: @ketab_n

أيّ اهتمام. قلت له: أنت عشت زمنًا طويلاً في الحواضر الكبرى، هل وجدت مدينة بلا جنس؟ المواخير.. المراقص.. الفنادق.. البيوت المغلقة في كلّ مكان.. فلماذا بالضبط نقف عند بلدة صغيرة، ونشنقها على مقصلة الفضيلة والورع..؟ أراد الراهب أن يجيب، لكن كمال سبقه: هو التاريخ كما يكتبه المنتصرون ويصدّقه المنهزمون ويقاتل من أجله الضعفاء.. كالعادة، كانت كاميليا في الموعد بسيّارتها رباعيّة الدفع (٤ × ٤). وابتلعتنا الطريق إلى آزرو.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ـ ١٢ ـ

حاولت طوال حياتي أن أخفي إحساسي بالتفاهة والدونيّة بواسطة السخرية وبمزيد من الإباحيّة والاستهتار بالعالم. لكنّني أمام الورقة البيضاء، أرتدي فجأة أكاليل المجد. لم نلتق منذ الطفولة، منذ وضعت أمّي سفودًا حاميًا أسفلَ صرّتي، وطبعتني إلى الأبد بوشم جسدي يجعل «حادثة» الطفولة موجعة في الذاكرة. قالت كاميليا ذات سرير: صالح الطفلَ المحروقَ في داخلك..! ربّما كانت على حقّ. لكنّني لم أخبرها بشيء. كيف استقرأت أعماقي المظلمة؟ قد يكون لجلساتها مع طبيبها النفساني دور في ذلك. ربّما.

لم نلتق منذ الطفولة. أذكر أنّني أنا وجلال لم نتحرّر من الإقامة الجبريّة في «ذكرانا الأليمة». صوت أمّي المزلزل، عيناها الجلّادتان، الزبَد المتناثر من شفتيها، قبضتاها المرعبتان وهما تلهبان خدّي بكلّ عنف، والسفود المحمرّ من النار الذي كوت به أسفلَ صرّتي.. كلّ ذلك أطاح بي في درَك الحقارة واتّهام الذات. ألهذا الحدّ لم يفارقني الشعور بالتفاهة والوضاعة..؟ هو يركض حافيًا وأنا ألاحقه. الحومة

Twitter: @ketab_n

خالية في ظهيرات غشت الحارقة. تسمح لنا قيلولات الكبار أن نتمتّع بشغبنا كما نريد. هو يركض وأنا ألاحقه. نتصبّب عرقًا، ولا نحسّ بشمس الظهيرة الكاوية. أبدًا لن تسبقني يا جلال.. أنا أسرع منك.. عبثًا أحاول. جسده خفيف مثل طير ضامر، وقدماه لا تلامسان الأرض، وحتى عندما أريد الإمساك به، تنزلق يداي لأنّ جسده دائمًا عار، كما لا يسمح عَرَقه بإحكام يديّ على جذعه. نغيّر اللعب: الدوّامة.. البلي.. الغمّيضة.. كلّ الألعاب استنفدت سحرها. فجأة يقول لي: لِمَ لا نلعب بيل أو فاص؟ (وجه أم كتابة؟). أوافقه دون أن أتساءل عمّاذا سنتراهن. يضحك مثل شرّير، لا يكشف عن نواياه الإجرامية. يُخرج قطعة النقد النحاسيّة من فئة عشرين سنتيمًا، ويطلب منّي أن أختار. أختار الوجه ويختار هو الكتابة. يحدّق فيّ بمكر من يعرف ماذا يريد. يطبق على القطعة النقديّة بين يديه ويقول لي: الآن لا مجال للتراجع.. لقد اخترت الوجه وأنا الكتابة. وكأيّ طفل يستعجل لذّة اللعب، أحرّك رأسي بالموافقة، لكنّي لا أسمعه حين يقول: من يربح الرهان سيكون هو البادئ..! خُيّل لي بعد لحظات أنّي سمعت كلماته المبهمة، فأجبت على الفور: موافق طبعًا.. ترك جلال مجالاً للغموض القاتل الذي غالبًا ما يكون لصالح القويّ في تأويل «الاتّفاق». ألقى بقطعة النقد في الهواء ثم أمسك بها. كانت يداه مطبقتين عليها، وكنت أستعجل النتيجة. لم يبدُ عليه أيّ خوف من النتيجة. لم أحسّ في يوم من الأيّام أنّ جلال خائف أو متوتّر أو مرتبك. كان أمير التهوّر. حتى وهو يركب درّاجة، يسوق بأقصى سرعة ويفرمل بشكل مباغت وينقلب في الهواء ويرتطم بالأرض، ثم ينهض مليئًا بالخدوش والكدمات، وكأنّه انتصر على النهار. فتح يديه. كان الوجه. لقد كسبت الرهان. سأكون إذن أنا البادئ. فرحت كثيرًا،

Twitter: @ketab_n

واستعددت للاحتفال بانتصاري. لأوّل مرّة أربح معركة مع جلال. نظرت إليه بتطاول الفاتحين: لقد ربحتك جلال.. سأكون أنا البادئ.. لم يقل شيئًا. أمسكني من يدي وقادني إلى خربة مهجورة. لم أفهم. كنت دائمًا أخاف من هذه الخربة المهجورة. لكن كفّيه أطبقتا عليّ، فاستسلمت. في الخراب العفن، وقف مثل كائن ظلامي اعتاد على هذه الأماكن. فكّ أزرار سرواله وأفلته ثم أفلت تُبّانه، وقال لي: هيّا ابدأ..! جفلت وحاولت التراجع. لم أتصوّر أن يصل رهاننا إلى هذا المستوى «الخرِب». أحَسّ بفزعي، وظلّ واقفًا مثل عمود الإنارة العموميّة. قال لي بعد لحظات: أنا لا يهمّني إن فرّطت في دورك.. لكنّني لن أتنازل عن دوري.. عليك أن تختار..! لم أدرِ ما أفعل. اقتربت منه وبقيت جامدًا. التفت إليّ وفكّ أزرار سروالي وأنزل تبّاني وقال لي: ما عليك سوى أن تضع «قلمك» على «محبرتي».. المسألة بسيطة.. نفّذت ما طلب. وجاء دوره وفعل مثلي. كنّا متعادلين. وقبل أن نغادر الخربة المهجورة، سمعته يقول لي: غدًا نستأنف اللعبة.. لا.. ليس هنا.. ردّدت في ذعر.. زرّر سرواله وأمسكني من يدي: هي مجرّد لعبة.. لا تخف.. سنلعبها فوق السطوح إن شئت.. قرأت فصولاً من روايتي الجديدة على كاميليا. في كلّ مرّة كانت تحدّق في عينيَّ غير مصدّقة، وتقول لي: أيّها الراهب.. ما حدود التداخل بين الواقعي والمتخيّل في روايتك..؟ ما المسافة التي تفصل السارد عن المؤلّف..؟ كنت أعرف أنّها تلمّح إلى أنّ كلّ رواية تكون مطبوعة بجانب حقيقي من حياة الروائيّ الواقعيّة، ولن يستطيع أيّ روائيّ أن ينسلخ عن سيرته المعيشة. أضع المسوَّدة من يدي، وأقول لها: كاميليا.. أنتِ تمتلكين رؤية ثقافيّة «غربيّة».. هل كان أوسكار وايلد سيتمتّع بالعمق الروائي النابض لو لم تكن رواياته

Twitter: @ketab_n

صدى بشكل من الأشكال لجنسيّته المثليّة..؟ ألا يمكن أن نفهم العلاقة التراجيديّة التي جعلت رامبو يطلق النار على صديقه فيرلين من دون وضعها في سياق العلاقة «السدوميّة» التي كانت بينهما..؟ الروائي ليس فقيهًا ولا مربّيًا ولا قدّيسًا ولا زعيمًا مثاليًّا. الروائي يشبه الساحر، صانع الأوهام l'illusionniste الذي يجعلنا نطلّ على الجانب الغامض من الأشياء من دون أن نمتلك القدرة على فكّ شفرة «سحره» رغم تواطئنا المبدئي على أنّه يمكر بنا فقط. إنّه بقدر ما يمتّعنا، بقدر ما يضحك على عقلنا النمطي الرتيب، ويدعونا إلى حياة أخرى تتجاوز حواسّنا العاديّة في إدراك الأشياء. في عينيْ كاميليا شهوة مجهضة. سؤال ينفث في الرماد. أفهمها وأفهم ما ترمي إليه: أعرف أنّكِ تريدين أن تعرفي ما إذا كانت العلاقة بين السارد وجلال علاقة حقيقيّة بيني وبين صديق قديم لي يحمل هذا الاسم أو اسمًا آخر..؟ لم أنظر في عينيها وأنا أستعدّ للجواب. آه كاميليا.. إذا كان شخصي تافهًا.. فكتاباتي ليست كذلك. قلت لها: لست معنيًّا بهذه الإشكاليّة.. هذه مسألة متروكة للناقد والمتلقّي.

أعرف أنّ كاميليا فهمت الشيء الكثير، وهي ليست في حاجة لاعترافاتي. لكنّني وجدت في هذا الالتباس الدقيق بين الواقعي والمتخيّل، ما جعلني أستردّ كامل كبريائي كمبدع. أحسست بأناملها الناعمة تنحدر ببطء من صدري إلى بطني إلى أسفل صرّتي. كانت تبحث عن الحقيقة العارية موشومة على جسدي. أمسكت بيدها، وكأنّني أريد أن أوقف تطفُّل الواقعي على حميميّتي الإبداعيّة. فاجأتني ضحكة هستيريّة. قلت لها:

- يعني كاميليا.. لم تصدّقي ما قلته لكِ.. تريدين وثيقة جسديّة تثبت أو تنفي الحقيقة..

Twitter: @ketab_n

ـ أنت تعرف أنّ اللغة بمجرّد ما تتدخّل تجرّ الحقيقة إلى مخدعها.

حملتها بكلتيْ يديَّ، وجعلتها تعلوني، ويكون نظرها في نظري تمامًا. كنت أحاول أن أثبت لها مسافة الوهم بين المؤلّف والسارد. أمسكت وجهها ببطن كفّي:

ـ هل سينفجر العالم لو عرفتِ أنّ ما كتبته كان حقيقيًّا..؟ يا عزيزتي.. عندما نستسلم للحقيقة كما هي ننتج أبشع أنواع الديكتاتوريّات الإبداعيّة. أحسّت كاميليا أنّها تطفّلت أكثر من اللازم. لكنّي رأيت في نظراتها اعتذار من يقول لك: إنّي لا أبحث فيك عنك بل عنّي..

عندما تتثاقل ساعات الأرق، وينفلت سحر السرد الزمني من فتنته الروائيّة، كنت أوقظ جلال من شرّه الطفولي، وأنفث فيه نفَس السارد الحائر بين كرباج الماضي البعيد واشتراطات العمل الإبداعي. يستيقظ جلال. لم يعد بوسعك أن تتراجع. سأفشي سرّنا للجميع. أنا لا يهمّني. الجميع يعرف شيطنتي ومكري، ولن يصدّقوا سوى أنّك «المفعول» وأنا «الفاعل». استحوذ عليّ جلال. بل استحوذتُ عليّ. كان للعبة الجسد عبقها الخاصّ ولحظتها التي لا تقاوم. كنّا معًا نكتشف أنّنا أمام تفّاحة إلٰهيّة لم نستطع منع نفسينا من أكلها. ذات يوم، قال لي النوري: أيّها الراهب هل ستمتلك الجرأة لكي تقول إنّك سدومي..؟! كان يحدّثني عن فكره السينمائي المبنيّ أساسًا على موضوعة الجرأة الجسديّة. قلت له: اسمع يا نوري. أنا كاتب يحمل في قرارات جسده دودة تنهش كلّ ما يصل إلى بطنه حتى لا يُصاب بالسمنة، ويظلّ محافظًا على رشاقته مثل أيّة عارضة أزياء عالميّة. من أجلها أعيش، وبها أبرّر وجودي. وكما قال يومًا صديق لماريو

Twitter: @ketab_n

فارغاس يوسا: «كلّ حياتي الآن لا أعيشها من أجلي، ولكن من أجل هذا الكائن الذي أحمل داخلي؛ والذي صرت خادمًا له.» وهو يعني بالكائن هنا، هذه الدودة التي تسكن كلّ مبدع والتي نسمّيها الموهبة الأدبيّة. ما الذي يهمّ إن كنت فحلاً أو غير فحل..؟ ما يهمّ هو ما سينتجه المخملي أو الفحل من أثر إبداعي جميل. لم يقتنع النوري تمامًا، واستطرد في تحقيقاته: لو افترضنا مثلاً إنّني حوّلت روايتك إلى فيلم، هل تقبل أن تلعب دور البطل في علاقته بجلال بكلّ ما يقتضيه الدور من تماهٍ مع الشخصيّة..؟ أشعلتُ سيجارة. أخذت نَفَسًا عميقًا. قلت له: لو كنت ممثّلاً حقيقيًا، لاعتبرت جرأتي قمّة الأداء الفنّي. هل أقول إنّ شخصيّة جلال أنقذتني من البطالة الروائيّة وأزمة الثقة في مخزوني الكتابي؟ جلال كان الدم المتدفّق في شرايين الرواية. كان الشيطان الداعي إلى حفلات الخمر وأناشيد الصبايا وألعاب القوى في فترات السلم الإغريقيّة.

تبادلنا الأدوار على سطحيْ منزلينا. كما نذهب إلى «جامع» الحومة، كما نحمل وصلة الخبز إلى الفرن الشعبي، كما نجري وراء كرة القماش في الفضاءات الفارغة، كما نطارد القطط والكلاب السائبة، كنّا نلعب بجسدينا. لكن جلال كان خبيثًا أكثر من اللازم. كان يحكي لي كيف يتجسّس على أمّه وأبيه، ويتنصّت على تأوّهاتهما في غرفة النوم الضيّقة. من فتحة المفتاح، كان يطلّ على أبيه يخور مثل فحل فوق جسد أمّه ممسكًا بعباءته بين أسنانه، وهي تتلوّى تحته وقد انحسر سروالها البلدي الفضفاض عند قدميها. تعلّم من خلال التجسّس عليهما أنّ للأجساد أسرارها وخباياها، وأصرّ على اقتحامها، وذلك ما قاده إلى اللعب معي. كان يعرف كلّ شيء في الحومة. زهرة بنت جلاسة الحمّام، تتحيّن غياب أمّها الطويل في الحمّام لتفتح

Twitter: @ketab_n

المنزل خلسة لعبّاس الحافي، بائع المعقودة في الجوار. الحاجّ منصور يعتدي على الخدّامة السوداء بمجرّد ذهاب زوجته لزيارة أهلها. أبي أنا، السكّير الذي لا يصحو، على علاقة مشبوهة بشامة اللبّانة، ويلتقيها مرّتين في الأسبوع أسفلَ روضة البلدة. لم أصدّق ذلك. لكن منطقه كان أقوى من بساطتي. توجّست من انحشاريّاته. خفت أن تمتدّ به الأسرار إلى أمّي. لكنّه كان ذكيًّا. كان حريصًا على جسدي وعلى متعتنا المشتركة. قادني مرّة إلى مغامرة أكثر جرأة. قفزنا من سطح إلى سطح حتى وصلنا منزل الزهوانيّة. كان الجميع يعرف أنّها قحبة وقوّادة وتدير منزلَ بغاء. لكنّها كانت منسجمة مع ساكنة الحومة. لا أحد استنكر في يوم من الأيّام ممارساتها «الرذيلة». كانت تزور البيوت معزّزة مكرّمة مثل أيّة سيّدة متزوّجة ومحترمة. وصلنا سطح الزهوانيّة، ولبدنا صامتيْن في مكاننا. كان هناك صمت مطلق. المومسات في قيلولة الظهيرة القائظة. ما عدا طنين الذباب وشخير البغايا، لا شيء يدلّ على الحياة. فجأة سمعنا طرقًا على الباب. استمرّ الطرق بشكل تصاعدي حتى استفاقت إحدى البنات، وفتحت. دخل شابّ طويل قويّ البنية وعلى ملامحه سمرة الأسفار والعائدين من المناطق الجنوبيّة. كان جنديًّا عائدًا في إجازة. يرتدي بذلة العسكر الكاكيّة، وينتعل حذاء جلديًّا سميكًا، وتفوح منه رائحة عطر رخيص يشبه عطور الحجّامين في الأسواق. سمعناه يقول للبنت: أريد الزهوانيّة.. جاءت المرأة بلحمها المكتنز وقامتها المتوسّطة وأردافها التي تُخَضُّ فوق مؤخّرتها. فتحت فمها. كانت أسنانها الفضّيّة البيضاء مخيفة. لم يكن في وجهها ما يوحي بالوداعة المثيرة. قالت له مباشرة: ملاقيّة ولاَّ مباتة..؟ (مضاجعة سريعة أم قضاء ليلة؟). وضع كيسه الصغير الذي كان يحمله، ومسح عرق جبينه. أجاب: ملاقيّة.. ردّت العجوز: إذن

Twitter: @ketab_n

٥٠ درهم تحطّها دابا. بدت علامة الاستغراب على وجهه: غا ١٠ دراهم آ لالة الزهوانيّة.. هذي هي الطريفة.. رجّت الفضاء بضحكتها الفاجرة وهي تردّ عليه: بصّح هناك عند الصوبيصات الخانزات.. لكن هذا زاير مكّة.. وأشارت إلى فرجها. ضحكت البنات. كنّ يعرفن أنّ الزهوانيّة حجّت مرّتين. ولذلك استحقّت احترام الحومة كلّها، رغم أنّ الجميع امتنع عن مناداتها بالحاجّة. لم يجد الجندي ما يقول. كان في حالة انكسار أمامها: بزاف آخالتي الزهوانيّة.. غليتِ الشغل.. أمسكته من تلابيبه ورجَّتْه بقوّة: الله يخلّي خيمة باباك.. شفتيني شارفة بحال أمّك.. سرْ أعطي فلوسك لشي عطّاي معاك ف القشلة.. خرج الجندي الشابّ متعثّرًا في مشيته. كان واضحًا أنّه لم يلمس امرأة منذ شهور، ولكن كان واضحًا كذلك أنّ جيبه لا يسمح له بتجاوز سعر معقول.

أوقفت الكتابة في منتصف النزيف. استعدت أسئلة كاميليا حول حدود الاتّصال والانفصال بين الواقعي والمتخيّل. لماذا أبعث جلال من رماد الذاكرة..؟ هل أكتبني..؟ هل أعترف أمام كاهن الذات..؟ أم أنّني مجرّد روائي يستعيد الزمان عن طريق خلق كائنات وحكايات وأماكن وشخوص، ربّما لم تكن موجودة بالكيفيّة التي ترد في السرد..؟ عثرت على الجواب في إحدى رسائل ماريو فارغاس يوسا إلى روائي شابّ: «من أين يأتي هذا الاستعداد المبكر لخلق كائنات وحكايات، هي نقطة انطلاق موهبة الكاتب؟ أظنّ أنّ الجواب يكمن في التمرّد. وإنّي لمقتنع أنّ الكاتب بإبحاره في حيوات بعيدة عن الواقع يعبر بشكل غير مباشر عن رفض نقدي للحياة والعالم الحقيقيين، وعن رغبة في رسمهما بحسب خياله ورغباته». تحسّست أسفلَ صرّتي آثار السفود الحارقة. تصبح ساردًا أثيمًا يضع قناعه

Twitter: @ketab_n

ويحمل سيفه ويرتدي عباءته السوداء ويخرج شاهرًا على الناس هذيانه المظلم. أيّها الراهب.. إذا كان شخصك تافهًا، فرواياتك ليست كذلك. كنت أودّ أن أقول للنوري إنّ الروائي يشبه موديليست تعرض جسدها العاري من أجل بثّ الحياة في لوحة رسّام. وجلال كان الموديليست عندما استعدتُ الزمان، وكنتُ الرسّام الذي يخلق الحياة من خياله ورغباته ودمه. كنت مستعدًّا لاحتضان الهزائم من أجل نسف الحدوس المطمئنة.

لم تتقبّل كاميليا فكرة الهزيمة. لكنّي قلت لها: نحن ندمن الهزائم ما دمنا مفصولين عن أجسادنا.. يومَ نُشْرِع بوّابات أجسادنا ونحتفل بها كأيّ طقس بدائي، سنبلغ لحظة الانتصار المنتظرة..

ـ ألا تدعونا للخلاعة أيّها الراهب..؟ قالت كاميليا. أجبت:

ـ الخلاعة ليست في انفتاح وتحرّر الأجساد.. بل هي موجودة في رؤيتنا للعالم. حين نتعرّى، تتهاوى رؤانا المقدّسة بأكملها.. لكنّ العالم سيظلّ هو هو في كلّ مكان..

يباغتني جلال بسخريّته عندما يقول لي: أنت الآن الدجاجة وأنا الديك. يستدرجني للعبة التناوب التي تنمحي عندها كلّ الفوارق بين المذكّر والمؤنّث. نكتشف جانبنا الآخر الضارب في أعماق الظلام: الجانب الأنثوي.. من الأنثى؟ من الذكر؟ حتى الشمس نفسها لا تستطيع أن تضيء أيّة إجابة محدّدة. لكن جلال كان يملك من المكر ما يجعله يتفوّق عليّ بتخيّلاته واستيهاماته. عندما ننتهي من لعبتنا ونجلس غارقيْن في ملوحة عرقنا، يلتفت نحوي كأيّ خليع ماجن، ويقول لي: أنت الدجاجة.. عندما تستيقظ في الغد ستجد أنّك بضت في فراشك.. كان دائمًا يسبقني بخطوتين، برؤيتين، بابتكارين،

Twitter: @ketab_n

بفعلين. كلّ تصرّفاتي تكون مجرّد ردود أفعال ينقصها وهج المفاجأة والجِدّة. ظللنا نتجسّس من السطوح على منزل الزهوانيّة. كنّا نتمتّع بأجساد البغايا نصف عاريات تحت الشمس في فناء المنزل. مرّة جلب جلال معه مقلاعًا صغيرًا، وانتظر حتى تعرّت إحدى البنات تمامًا لكي تغتسل. كانت تدلك جسدها بصابون بلدي رخيص. نشّفت جسدها بالفوطة، وانتظر حتى بدأت تدهن لحمها وتضع «الشبّة» بين فخذيها. كانت مرغمة على فتح ساقيها لكي تمرّر الدهان بشكل جيّد، ولكي تنفذ الشبّة إلى المناطق الحسّاسة من لحمها. عندما انفرجت شفتا فرجها الذي يسوده زغب خفيف، سمعت لهاث جلال. كان مثل طير مذبوح. استلّ المقلاع من جيبه، ووضع حصاة صغيرة فيه، وطوّح بها في اتّجاه فرج المومس. صرخت من الألم ورفعت رأسها في اتّجاهنا. لقد رأتنا وتعرّفت علينا، وبدأت تصرخ: آويلي.. آويلي.. الله يعطيكم شي مصيبة.. ولاد لحرام.. عرفتك آولد ميرة.. آولد كانة.. آويلي.. آويلي..! خرجت كلّ البنات، وفررنا عبر السطوح بسرعة البرق. في وقت قياسي نزلنا درج منزلنا، وانقذفنا في اتّجاه الخربة المهجورة، لأنّها المكان الوحيد الذي لن يجرؤوا على المجيء إليه من شدّة قرفه. عدت في المساء متوجّسًا من خطواتي. كنت أعرف أنّ الزهوانيّة ستشتكي عليّ عند أمّي، وأمّي لن ترحمني. لم تكن ضربة المقلاع هي ما يخيفني، بل عدم قدرتي على مواجهة عيون أمّي عندما تتّهمني بالتجسّس على فروج البغايا، مثل أيّ خليع داعر. لم تقل أمّي شيئًا. لكنّ صمتها كان مريبًا. حتى إنّها لم تسألني لمَ تأخّرت في الزنقة حتى ساعة متأخّرة في المساء. عيناها كانتا هدوءًا يضمر عاصفة استوائيّة. نمت ليلتها وأنا أتساءل إن كانت حصاة المقلاع قد اخترقت فرج المومس أم لا.

Twitter: @ketab_n

في كلّ ليالي الأرق البيضاء، أشرب نبيذًا فرنسيًّا على مهل، وأتأمّل في المسودات المتراكمة فوق مكتبي. أستعيد مشهد المقلاع والمومس، وأحاول أن أصوغ سؤالاً حارقًا: ما جدوى الكتابة إن لم تكن حصاةً تخترق فرج متلقّية أو مؤخّرة متلقٍّ..؟ ألا نتعرّف على العالم من خلال تنظيم عمليّتي التبوّل والتبرّز، حيث يختبر الطفل تناقض المشاعر بين لذّة التخلّص من نفاياته البيولوجيّة وعنف التربية التي تجعله يتحكّم في قضيبه وشرجه..؟ بعد يومين، التقينا فوق سطح منزلنا بعد الظهيرة. لم نستطع منع نفسينا من اللعبة التي تمحو كلّ فاصل بين الذكورة والأنوثة. كان الجوّ حارًّا وخانقًا. في كلّ الحومة يمكنك أن تسمع شخير الكبار في قيلولة الظهيرة. الصمت جافّ وطنين الذباب يزعج سكينة الأشياء. كانت القيلولة قانونًا أزليًّا لا يرتفع، مثل متوازيين لا يلتقيان. لكنَّ هندسة أمّي في تلك الظهيرة كانت لاإقليديّة، وأمكن للمتوازيين أن يلتقيا. فاجأتنا عاريين ومندمجين. وضعت القلم. أفرغت آخر كأس لهذه الليلة. هل هذه هي الرواية التي نذرت نفسي لكتابتها شارخًا جسدي على مذبح الاعتراف الصادم..؟ تحسّست أسفلَ بطني. في الوقت الكامد، حيث يتداخل رحيل الليل بميلاد الفجر، تذكّرت ما قاله فرويد عن وقائع الذاكرة. إنّها تشبه رجلاً يضع وردًا على قبر جنديّ مجهول. فإمّا أن يذكّره ذلك بأهوال الحرب ومآسي العالم، فينتهي إلى أنّ الحياة لا تستحقّ أن تُعاش، وبذلك يوقف الوجود كلّه عند هذه النقطة؛ وإمّا أن يقول إنّ هذا الجندي المجهول هو رمز لمن ناضلوا وضحّوا وقاوموا من أجل حياة أفضل. لقد حدث ما حدث من مآس وأهوال، وذلك جزء من العالم، ولكنّ الحياة لا تتوقّف، وهي تستحقّ أن تُعاش لحظة بلحظة. وبذلك يعطي لوجوده زخمًا جديدًا. أنهيت كلّ ارتباطاتي بالمسوّدات. ارتديت

Twitter: @ketab_n

سروالي وقميصي ومعطفي وحذائي، وأحببت أن أضع «شابّو» أسود على رأسي. كنت أودّ أن أعطي لنفسي مظهر مخبر سرّي يحقّق في جريمة. ذهبت إلى أقرب مقهى يشتغل ليل نهار. طلبت قهوة سوداء خفيفة من دون سكّر، وأشعلت سيجارة مالربورو. في أدخنتها المتصاعدة، ارتسم سؤال مخنوق: لماذا لم أبحث عن جلال..؟ في الجهة الأخرى من المقهى، كانت هناك مرآة كبيرة، رأيت صورتي فيها، وسمعتُني أهمس لي: هل تودّ التحقيق مع جلال في جريمة الذاكرة..؟ وضعت «الشابّو» الأسود، وأجبتُني: بل أريد فقط أن أثبت لي أنّني محقّق محترف.. هل كنت أهلوس..؟ هل أوصلني الأرق إلى حدّ الهذيان..؟ كنت في حاجة لعطر أنثى وصمت شارع طويل وجرأة طائر مهاجر. فكّرت في كاميليا. لا يهمّ. مهما كانت الساعة، لا بدّ أن أكلّمها. أنا محتاج إلى عطرها وشفتيها وذوقها الرفيع في تأثيث العالم. أخرجت المحمول وركّبت الرقم. لم يطل الرنين. سمعتها تقول: الراهب.. هل أصبحت تفيق مبكرًا..؟ لم أنم بعد.. أحتاجك كاميليا.. هل تعرف كم الساعة..؟ أعرف فقط أنّ عطرك في انتظاري.. سأحضر في الحال.. مجنون.. وأغلقت المحمول. فتح لي البوّاب. جاءني صوتها من غرفة نومها. كانت الساعة قد جاوزت الخامسة صباحًا. حتى الخدم استغربوا قدومي في مثل هذه الساعة. لكنّهم تعوّدوا على حياة كاميليا المتحرّرة من ضوابط الزمان والمكان. كانت مستلقية في فراشها بقميصها الطويل الشفّاف ذي اللون الكستنائي. كانت بلا مكياج، لكنّها كانت أكثر نصاعة وأكثر ألقًا وإثارة. في عينيها كبرياء السادة، وفي شفتيها فتوّة المغامرين. نزعت الشابّو، وجلست على حافّة السرير العريض، ولم أقل شيئًا. ظلّت مستلقية، ومدّت يدها نحوي في دلال بهيج: قلت إنّ عطري في

Twitter: @ketab_n

انتظارك.. هيّا اقترب..! تخلّصت من معطفي الطويل، وأبقيت على ملابسي الأخرى، ونمت جنبها. انفلتت منها ضحكة هادئة: هل أصبح الراهب فجأة راهبًا..؟ قالت لي، وأمسكت وجهي بين يديها الليلكيّتين، ومصّت شفتيَّ بشفتيها، ثم أردفت: لماذا تحتاج عطري أيّها الراهب..؟ لأنّه عطر باريسي رفيع.. هذا جواب المنافقين.. جذبتها إليّ، وضِعتُ في روائحها الأفروديسيّة. كنت أبحث عن نقطة ارتكاز تثبت لي أنّني أنتمي إلى عالمي الواقعي وليس إلى عالم جلال. آه.. كاميليا.. عطرك لا يثبت الحياة فقط ولا رفعة المقام فقط، بل يثبت فحولتي أمام أنوثتك..! كنت أهذي وأنا في كامل قواي العقليّة. أدسّ أنفي في ثياب كاميليا وأشفط عطرها الباريسي بخياشيمي المستنفرة. وهي تمسّد شعري كأيّ أنثى مستعدّة لاحتضان حماقات الرجل.. اهدأ.. تقول لي، وكأنّها تهيّج حواسّي لشفط ما تبقّى فيها من حياة: أريد أن أنسى رائحة جلال.. رائحة أمّي.. رائحتي..

في الانسلال الغامض لأوائل الضوء الفجريّ، أراهنّ.. عاريات.. بائسات.. ساقطات.. تقتحمني رائحة زفارة غريبة لا علاقة لها بالعفن المألوف في حومتنا. زفارة أجساد تبيع المتعة بمكياج رخيص وشبّة تلملم اهتراءات الفروج. توقظني كاميليا، وأجبرها على الاستسلام لاستيهاماتي: ولكنّهم ليسوا سوى شخوص من ورق.. أنت الذي خلقتهم بمحض خيالك الروائي..! أراها شاحبة مثل عصر خريفيّ. ترفض أن تكلّمني. في عينها دمعة. دمعة بلا معنى. دمعة فقط، كانت آخر وسيلة للتواصل بيننا. لم تكلّمني أمّي منذ كوتني بسفود حام أسفل صرّتي. آه كاميليا.. مزيدًا من عطرك الأفروديسي.. رائحة الشواظ تخرّب خلايا روحي. لم يحترق لحمي فقط.. بل فقدت كلّ رغبة في حبّ العالم بشكل ساذج.

Twitter: @ketab_n

ـ أنت تخيفني أيّها الراهب.. لكأنّك تتحدّث عن حقيقة ذاتك وليس عن شخوص متخيّلين.. أَنسيْت أنّك وعدتنا برواية فاصلة..؟

كاميليا العطر والحياة. الرغبة والنهار المشعّ. أحسّ أصابعها تمتدّ نحو أزرار قميصي. أوقفها: دعينا من هذا كاميليا.. فقط احميني من روائحهم.. من ذكراهم.. من قال لك إنّ الروائي مفصول عن أبطاله..؟ قبل أن يموت أيّ بطل، يكون الروائي قد أقام له جنازة في جسده وروحه..

امتدّ الصمت بيننا قرونًا وقرونًا. عندما ودّعتها للرحيل إلى العاصمة لمتابعة دراساتي الجامعيّة. كانت دمعتها القديمة ما تزال مزمنة في عينيها. لمحت في يدها سفودًا حاميًا وانكسارًا أبديًّا وقليلاً من التعاطف الأمومي. ومن يومها لم أسمع عنها أيّ شيء.

ـ ألهذا تتصرّف مثل أبطالك.. تبحث عن أمّك المفقودة في أجساد نساء يعبرن سريرك باستمرار..؟

تركتها تعانق الفراغ. وضعت الشابّو وارتديت المعطف، وتسلّلت نحو البياضات المتولّدة في أوائل الفجر. كنت أودّ أن أقول لكاميليا: أنا لا أبحث عن أمّي المفقودة.. بل أمعن في قتلها.

Twitter: @ketab_n

ـ ١٣ ـ

جسمها الفتيّ الرشيق الذي أخطأ موعده مع المتعة، وصوت الماء ينساب فوقه مثل عاشق رجيم، وهي تمرّر كيس الصابون بين نهديها وبين فخذيها وتحت إبطيها مثل أفعى ملتوية. خلف الستارة الشفيفة الفاصلة بين المرحاض ووسط المنزل، نتواطأ معًا على لحظة محرّمة تخترق رائحة البؤس المنتشرة في كلّ مكان. أنا وهي والصمت الزاني. أسمع أغانيها الشعبيّة البذيئة باللكنة الشاوية: «جيبوه ليّا.. جيبوه ليّا.. يخوي بزطامو عليا..». من هذا الذي تريدين من الآخرين أن يأتوك به يا أمّي ليفرغ حافظة نقوده عليك..؟ أحسّ بها ترقص في غنجِ صبيّة لم تتجاوز العشرين. ينزل الغاسول من شعرها ويندلق خارج المرحاض بلونه الرمادي، وشعر أمّي يزداد ليونة وهي تسرّحه بمشط تقليدي منحوت من قرن بقرة. وكأنّما تمعن في إحراقي أو في إحراق البؤس، فيتصاعد غناؤها: «ندخلو للنوايل ونديرو ديك الفعايل..!» لم أكن أفقه بذاءة الكلمات، ولا ما يعنيه أن تغنّي أمّي: ندخل الكوخ ونمارس تلك الأفعال..! لكن نبرات صوتها كانت

Twitter: @ketab_n

عاهرة وصفيقة. ومع ذلك، كانت تمثّل بالنسبة لي نقطة ضوء في منزل حطّمه ظلام الفقر والحرمان. لكنّ الآخر لا يستجيب. وفي مسرح المرحاض البائس، تتحوّل العاشقة، المفتونة بالماء الذي يهدهد جسدها، فجأة إلى ساحرة شرّيرة، فتنقلب على فارس أحلامها: «اعطِيوْني الكومة.. نمحيه م الحومة..». بغريزة غامضة، كنت أعرف أنّ الشخص الذي تريد أمّي أن تمحوه من الحومة بممحاة، ليس إلّا أبي. تأخذني المسافات بعيدًا بعيدًا. ما الذي أجبر صبيّة حارقة الجسم على الزواج من رجل لا جسم له..؟ كيف أفلتُّ أنا وأختي من محارق رحمها لنولد كإبنين لها..؟ لم أكن أجد في مسامّي وفي الفراغات الموحشة في أعماقي، أدنى علاقة بيني وبين أبي. كنت أشكّ في أنّ البؤس قد ترك لنقطة مائه المقهورة أدنى فرصة لتخصيب بويضتها النافرة. في لحظات كثيرة، كنت أتمنّى لو كنت ابن عشيق أمّي. ربّما في الحقيقة كنت ابنه غير الشرعي. من يدري..؟ كان يوحي بالفتوّة والحياة والوهج. في غيابات والدي الطويلة والبلهاء، كان يحضر إلى منزلنا كلّ ظهيرة. كنت أراها فاتنة وضاحكة وراقصة فوق حلبة من أحلام ورديّة. كان يقرص أذني بلطف، ولا يقول شيئًا. أراه يدخل مخدعها، وتنزل هي الستارة الفاصلة خلفه. لم يكن لغرف المنزل أبواب، بل ستائر رخيصة فقط. أسمعه يغنّي المرساوي، وتردّ أمّي عليه بعيوط الشاويّة والحوز، وينفجر المكان بقهقهاتها الماجنة: «جيبوه ليّا.. جيبوه ليّا.. يخوي بزطامو عليا..». ويردّ عليها: «زينة يا ربّي العالي.. شكون تكوا بحالي..؟». آه يا زينة يا أمّي.. أنت تستحقّين أن يكتوي عاشق مثل عشيقك من أجلك..! رائحة الغاسول والعكر الرخيص تنبعث من غرفتها. أغاني الشاويّة وعيوط الحوز تخلق متعة من عدم. لم يكن لجسد زينة الأمّ أن يسقط في خرافة الأسرة

Twitter: @ketab_n

الفقيرة البسيطة المسحوقة الراضية. كان جسدًا من ماسّ، من زمرّد، لا يمكن أن يلمع ويعلن عن أصالته إلّا بتعريضه لدرجة عالية من النار. كانت كفّه العريضة أقوى من كلّ جلّاد. تنزل على قفاي كمنجنيق روماني، فأسقط أرضًا. يلتقطني من أذنيّ البارزتين، ويطوّح بي في الهواء. القسم مخفر شرطة، والمعلّم شرطي قاس. يوقظني من تهويماتي، وعلى لسانه حراب من القذف والاحتقار: مولود..؟ إلك لك ولد زينة.. كذّبوا على يمّاك.. أنت ولد الزنا.. صفعة المعلّم الساديّة ولعناته الجارحة، تختطفني من عيوط أمّي الحوزيّة ومرساوي عشيقها الشاوي، وتلقي بي في جحيم القسم الذي لم يتوعّد به أيّ دين كفّارَه. كنت في القسم الرابع ابتدائي، وكان السي الجيلالي المعلّم طويلاً كظهيرة صيف حارقة، قاسيًا كضجيج بؤس ذهاني، وعنصريًّا كأيقونة نازيّة على ذراع يمينيٍّ حليقِ الرأس. وحدنا نحن الفقراء نؤدّي ثمن الزفارة المتفشّية من عَرَق الأرجل وصنان الآباط وتدنّي رواتب المعلّمين. لا يكتفي السي الجيلالي بصفعي وقذفي بعهارة أمّي وتشكيكي في شرعيّة بنوّتي، ما دام يلعب على التشابه الصوتي بين اسم أمّي زينة، وكلمة الزنا، بل يأمر تلميذين قويين في القسم بنزع حذائي المطّاطي الطويل، فتخنق رائحة رجليّ النتنة القسم كلّه، فيزداد غضب معلّمي. يمدّدني على الطاولة، ويضربني أسفلَ قدمي، أو ما كنّا نسمّيه «تحميلة». لم يكن مسموحًا لي أن أصرخ أو أستغيث أو أتضرّع، لأنّ كلّ ذلك يضاعف عقابي مرّات ومرّات. عندما يتعب السي الجيلالي من «تحميلي»، يتوقّف فجأة وينظر في عيون التلاميذ ليزرع رعبه في أبعد نقطة ممكنة داخل نفوسهم، وليعطي إشارةَ رعب قادم لا يعلمه سواه. يلقي بالعصا الغليظة بعيدًا، وتمتدّ يداه نحوي ويشرع في فكّ أزرار سروالي وسحّابته، ثم ينزعه عنّي تمامًا، ويأمرني أن «أنقلب»

Twitter: @ketab_n

على بطني، فتظهر مؤخّرتي عارية ترتعش كقطّة خائفة. يقهقه المعلّم: يا ولد الزنا.. حتى السليب ما لبسوش..!! ويهوي بخيزرانته على أستي مصحوبة بتطوّر دراماتيكي في بذاءاته: وشكون كال لينا ما تديرش حرفة أمّك.. الله ينعلها سلالة..؟؟ تطير سامية من فراشها غير مصدّقة، فتسقط أجندة المذكّرات بعيدًا عن سريرها: لا.. لا.. ميلاد.. هذا رعب لا يصدّق!

نبيلة التي تعوّدت على حماقات أمّها، تهرول مسرعة نحوها وقد سمعت حركة سقوط الأجندة وصراخ سامية: قلت لكِ ماما.. أنتم شلّة مجانين.. لكن أجمل ما فيكم هو أنّ عهارات ألفاظكم تعكس صدق دواخلكم.. سامية لا تصدّق ما كتبه ميلاد في مذكّراته: هل يعقل يا ميلاد أن تكون بهذه الشاعريّة العميقة المؤذية في كثير من الأحيان، وقد عشت كلّ هذه الإهانات والمآسي!؟ وتعود إلى قراءة المذكّرات.

كان السي الجيلالي ينتقم من فقري ومن زفارة رجليّ، وكانت أمّي تنتقم من بؤس أبي وظلم العالم، وكنت أمحو كلّ فاصل بين السماء والأرض، لكي أجد لنفايات جسدي وروحي مساحة نائية تغطّي على نتانتها. ومع ذلك كنت نبيًّا بمعجزة. كانت معجزتي أنّني لم أتخلّف يومًا عن الذهاب إلى المدرسة، مثلما حدث لكثير من أصدقائي الذين لم يتحمّلوا «تحميلات» السي الجيلالي وغيره، وفضّلوا حقارة الجهل المتسامح على مجد العلم الساديّ. وحده صوت أمّي وغناؤها وتحرّش الماء بجسدها الفتيّ خلف ستارة المرحاض، كان يخلق لي وميضًا من سديم مطلق.

كانوا متحلّقين حول علب الهَينِكن، وقناني السكوتش، الويسكي. سامية تنظر في عينيه وتقرأ على ملامحه كلّ سطر كتبه في مذكّراته.

Twitter: @ketab_n

أحسّ الجميع، بعد الأمسية الشعريّة، أنّ ما قرأه ميلاد كان بطعم البوح الرجيم الذي يعتصر نهديَّ الحياة، فتتفشّى في دمه سراديب الألم والمتعة. تناهى إليهم صوت أحلام وهي تردّد مقاطع من القصيدة التي قرأها ميلاد، نصفَ شاربة، نصفَ صاحية. كانت القصيدة حوارًا بين الشاعر ومستجوِبة مجهولة:

ـ شهوة أخرى تنقصني..

* ما هي..؟

ـ أبديّة لها رائحة الحياة..

* وماذا حملتَ في حواسّك..؟

ـ لحظةً توغل في الهروب

تدمي أظافري وأنا أوقفها..

لذلك ابتكرتُ امرأة من عَرَق

لأسكب ما في دمائي من أفق..

لا تسأليني ثانية

كلّ أجوبتي أرق!

تفرغ أحلام كأسها، ولا تستطيع أن تتندّر من ميلاد: أيّها الشاعر لن أسألك ثانيةً، لأنّني امرأتك التي ابتكرتها من عَرَق.. في عينيْ ميلاد آثار لعنة ما سكنته في زمن بعيد. آثار امرأة تنتشر في دمائه مثل أفق مسكوب. عيناه حائرتان، تستجديان لهفة عمر كان يصنع زرقته الحميمة من سماع صوت الماء المحتكّ بجسد أمّ كانت مضرّجة في دمائها. لم يتكلّم الراهب على غير العادة. لكن كاميليا لم تحتمل

Twitter: @ketab_n

تواطؤ الصمت وزخم الحياة المتفجّرة في كلمات الشاعر. لم تحتمل فراغ المسافة بين الخمر والشعر، بين السهو والجمال، بين وجع الذاكرة وعطر الكلمات. اقتربت من ميلاد وناولته سيجارتها المشتعلة، وطبعت على خدّه قبلة راقية: أنت ابتكرت امرأة من عرق.. أنا ابتكرت عاشقًا يتعالى على ألوان المعتقد.. الراهب ابتكر نصفه المنسيّ ونفخ فيه روحًا من ورق.. أحلام ابتكرت غلامًا يلحس ملوحة توقظ ثعبانًا هلاميًا.. أسلين ابتكرت اسمًا يعكس رنين الدفوف الأطلسيّة.. والنوري ابتكر فحولة تسترجع طفولة من أفلام تبعث الحياة في حائط.. أيّها العالم.. نحن الذين ندمن النهار كأبديّة لا ترحل.. اترك لأجسادنا أن تُعيد حكاية «سدوم» التي لم يدمّرها فسادها، بقدر ما دمّرها عدم قدرتها على رفع شهواتها إلى مقام القوانين التي لا ترتفع. لم تكن سدوم موغلة في درَك الرذائل في الأسفار التوراتيّة فقط؛ كانت سدوم راقصتنا التي نتلوّى تحت خصرها في الليل ونرجمها ألف مرّة في النهار..

أعود من المدرسة مثقلاً بشبح السي الجيلالي الرهيب. معلّم فارع الطول، يزن أكثر من مئة كيلو، وفي فمه أسنان فضّيّة، وأنا بين يديه بالكاد أزن عشرين كيلو، ولا يتجاوز طولي مترًا واحدًا وبضع سنتميترات، وجسمي يرتعد من الخوف ومن البرد ومن الجوع. صراع غير متكافئ، ولا خصم غيره، ولا حكَم غيره، ولا ضحيّة غيري. وتهمتي أنّني ابن زينة، وأنّني أنتعل حذاءً مطّاطيًّا يجعل رائحة قدميّ زنخة في فصل قائظ. وحدي كنت. لا أذكر أنّ أمّي انتبهت إلى خوفي وتباطؤ مشيتي من جرّاء «التحميلة والفلقة». هي دومًا منهمكة في مَشط شعرها ووضع العكر الأحمر على شفتيها، وتبديل مناماتها الملوّنة التي لم أكن أعرف كيف تحصل عليها، ولا كان أبي على دراية بها. أعود

Twitter: @ketab_n

إلى حصص الزوال. أسمع تلميحات التلاميذ النابية: شكون ولد «الزينة»..؟ شكون اللي مّو زوينة..؟ شفناها.. شفناها.. كُحَيْلة ويابسة.. شكون هي..؟ هي.. هي.. سْويوَةْ (تصغير مؤخّرة احتقارًا) لَبْنِيّة..؟! . وأتحمّل لا عن قدرة على التحمّل، بل لأنّي عاجز عن الردّ والمواجهة. لقد كنت عاريًا في وجه العالم: أمّي التي أكلتها الألسن، ومؤخّرتي التي تفرّج عليها الكلّ.. ماذا تبقّى لي..؟

كعادته يعود كلّ يوم في تمام السادسة مساء، منهدًّا وبلا مجد. جسمه بلا ظلّ، وملامحه بلا ألوان، ويداه لا تنتجان غير انكسار الأعماق وخواء الأمعاء. يجد أمّي في قعدتها وسط المنزل منشغلة بتسريح سوالفها أو تدليك فخذيها، وغائصة في عيوطها الحوزيّة التي تتصلّب فجأة مع أوّل إطلالة لأبي. يسلّم علينا متوجّسًا من نبرات صوته، ويضع عدّة البناء في الركن المحاذي للمرحاض. أمّي لا ترفع رأسها أبدًا نحوه، لا تنظر إليه ولا تردّ على تحيّته. يسمع منها الموّال المشروخ نفسه: اغسل يديك.. أتاي (الشاي) والخبز ف الكوزينة.. لم أكن أحسّ بالشفقة عليه، وربّما أختي كذلك. تواطأنا في المنزل على احتقار نظراته. كنّا في حاجة لصوت أبويّ يملأ المكان قوّة وطيبوبة، ويؤكّد حرارة الدم العائليّ في أحشائنا. كنّا في حاجة لأب يسأل ويغضب ويحتجّ ويفرح ويعانق ويعنّف ويصنع عالمًا من لا شيء. من كذبة. من حكاية. من مزحة. من بطولة مزيّفة. لكنّه كان يشبه عدّته التي لا تدلّ سوى على بؤس صاحبها الذي لا يمتلك القدرة على أن يصبح بنّاء مبدعًا. الصوت الرجّالي الوحيد الذي كنّا نسمعه، كان صوت الرجل الذي يأتي كلّ ظهيرة ويختلي بأمّي. لكنَّ ملامحه كانت تتغيّر، فيأتي رجل آخر وآخر وآخر. ولا ينقطع الغناء، ولا تنقطع حمّامات أمّي، ولا ينقطع تلصّصي على تحرش الماء بجسدها الحارق

Twitter: @ketab_n

الذي لا يزداد إلّا شبقًا. لم تكن لأبي، ولم تكن لعشّاقها الكثيرين. كانت لي. حمّامها لي. غناؤها لي. سوالفها لي، وأمومتها ذات الرائحة الملتبسة بين ملوحة العرق والعطر الرخيص، كانت لي.

أوّل أنثى التقيتُها بكلِّيّة الآداب، وكانت عشيقتي، قالت لي: أنت تشرب كما لو كنت تمصّ نهدًا نافرًا، وتمصّ نهدي كما لو كنت تشرب ويسكي قاتلاً..! لم تكذب. كنت أتلصّص خلف نهديها العاريين على صورة امرأة تتلوّى وهي تمرّر كيس الصابون بين فخذيها وتحت إبطيها وبين نهديها، والماء يردّد عيوطها الحوزيّة والمرساويّة. لم أكن أتلذّذ بجسد عشيقاتي العابرات. كنت أموت لأحيا في صورة طفل أنكرتْ عليه حقارات أبيه وعهارات أمّه أن يصل إلى ذاته. لكنّي وصلت حين انتهيت شاعرًا. ولكن من أين أمتح حدوسي وصوري ومادّتي الإبداعيّة..؟ هل يمكن لقاتل أن يختبئ في جبّة شاعر..؟ يمكن لمبدع أن يستبطن الموت الحقيقي كصفّ في كتيبة الإعدام التي كانت مستعدّة لإطلاق النار عليه، لكنّ القدر أخطأه، مثلما حدث لدوستويفسكي، وأن يمتح من فكرة الإعدام كلّ عالمه الروائي العظيم. لكنّ أيّ جنديّ واقف في كتيبة الإعدام، ويقتل باسم الواجب والقانون بضمير مرتاح، لن يكون أبدًا مبدعًا. إنّه مجرم برداء ديني ومدني واجتماعي وأخلاقي. أمّا المبدع فهو عشيق دونجواني للحياة.

في تلك الظهيرة، عاد أبي من ورشة البناء قبل موعده المعتاد. رائحة الغاسول وصابون الكفّ والعكر الأحمر والعطر الرخيص وعرق رجل آخر أتى من لامكان، تملأ المنزل كلّه. كنت قد عدت من حصّتي مبكرًا في ذلك الزوال. كنّا وحدنا، أنا وأمّي وعشيقها وأختي التي كانت غارقة في قيلولتها. لم يكن الرجل الذي يختلي بأمّي مثل الذين مرّوا من هنا وخبّأوا فحولة أصواتهم الشعبيّة في جدران المنزل.

Twitter: @ketab_n

كان قصيرًا وبدينًا وذا أنفاس متقطّعة. كانت لكنته غريبة. ربّما كان سوسيًّا. لم يكن يغنّي مع أمّي. كان مستعجلاً. أسمع كلماته المتقطّعة وهو يحاول دفع أمّي نحو الغرفة من دون عيوط أو غزل أو مزاح بذيء. في كلّ مرّة كان يتحسّس جيبه ويحرّك نقوده فتحدث رنينًا مزعجًا، وكأنّه كان يريد أن يؤكّد أنّ نقوده جاهزة. وغاب معها في الغرفة من دون غناء أو قهقهات. عندما سمعت أوّل صوت، وضعت أصابعي على أذنيّ وضغطت على طبلتيهما. لكنّ الأصوات كانت مجلجلة، وفوق احتمال طفل كان يرى الجنّة تنسحب من تحت أقدام الأمّهات. كنت أسمع حكايات التجّار السوسيّين الذين يغلقون عليهم في دكاكينهم عندما يصِلون إلى البلدة، ولا يخرجون إلّا لإفراغ «مياههم النتنة» مرّة كلَّ سنة. ربّما كان واحدًا منهم. في صوته كان موتي. في شخيره كان إعدامي. وفي تأوّهاته كان اغتصابي. كنت أموت، وكان ذلك السوسيّ الحقير يمعن في قتلي حتى دون أن ينظر في عينيَّ، ودون أن يتحمّل مسؤوليّة موتي. كنت أسخر من ذلك الذي قال بأنّ موت الآخر يتّهمني ويضعني موضع تساؤل، لأنّ لامبالاتي تجاه موته تجعلني أتحمّل مسؤوليّة جريمتي. لم تطأطئ رأسها. لم تحاول حتى أن تعتذر أو أن تبرّر فعلتها. لم ترتسم على وجهها أيّة علامة للعار والفضيحة. لم يستحقّ منها أبي حتى نظرة خوف منه كزوج وفحل. رأيته يفتح الباب الخارجي، ويدخل. اندهشت. لم يكن من عادة أبي أن يعود في هذا الوقت. وضع عُدّة حقارته جانبًا، وتخلّص من بلوزة الشغل المهترئة. رأى في عينيَّ ما جعله يسمع الضحكات البذيئة في غرفة أمّي. هناك صوت رجل آخر في المنزل. انهار أمام الباب الخارجي قبل أن يخطو خطوة واحدة. ظلّ كذلك للحظات طويلة حتى انقطعت الضحكات المجلجلة وانزاحت ستارة الغرفة. كان

Twitter: @ketab_n

السوسيّ يزرّر سرواله ويغلق سحّابته، وهو يعُدّ نقوده في كفّ أمّي. تنبّه مذعورًا عندما رأى أبي منهارًا عند الباب. ربّما فوجئت أمّي بزوجها، فهي لم تعتد على رجوعه في هذه الأوقات. لكنّي رأيتها تضع النقود في جيب سروالها البلديّ الفضفاض الذي كان نصف ساقط، وكانت تحاول ضبطه على خاصرتها. حاولت أن أسعف أبي. صببت عليه ماء، لكنّه ظلّ في حالة ذهول؛ فيما دفعت أمّي السوسيّ النتن إلى الفرار بعد أن فتحت له الباب. غسلت وجهها وسوّت شعرها المتطاير وما بقي من مكياجها الرخيص. بعد ذلك، وقفت على والدي واضعة كفّيها على طرفيْ خاصرتها مثل راقصة ساقطة، وانهالت عليه بلسانها السليط: آشنو.. يصحاب ليك أنت رجل..؟ فين فلوسك..؟ فين «ديالك»..؟ فين قلدتك..؟ علاه باش عايشة أنا وولادك وأنت..؟ ماشي بـ «هذا»..؟ وأشارت بأصبعها إلى «مقدّمتها». «..ماشي هاذو»..؟ وأشارت إلى ردفيْها.. نوض.. نوض.. خلّيك م البهلان.. زعما ما عارفش وداير فيها رجل بصحّ..؟ نوض.. سير ارجع قلّب على خدمة أُو ما تورنيش كمارتك الكحلة هنا..!! ثم ذهبت إلى غرفتها متبخترة مثل مومس «أعطت» بـ «مقابل». ولم ينقطع غناؤها المرساوي وعيوطها الحوزيّة وضحكاتها البذيئة. ظلّ أبي في مكانه كأنّما أصيب بالشلل. وعادت أمّي مرّة أخرى إليه.

في الخيريّة التي أصبحت «دار أطفال» فيما بعد، قرأتْ مربّيتي ما يختبئ خلف قلمي من حياة حارقة. لم تكن إنشاءاتي مجرّد تمرينات فارغة على قواعد اللغة، وتنويعات للأسلوب. كانت دمي الذي كتب أعماقي. يأتي صوتها خفيضًا مثل طيبوبة قسّ. أسمعها تقول لي: لم تعد مولود مودي.. أنت منذ الآن ميلاد. إنّك تولد من جديد، والكتابة عالمك الموعود، هويّتك التي لم يمنحك إيّاها أبوان أو وطن

Twitter: @ketab_n

أو سقف تاريخيّ. اكتب ليراك الآخرون.. لتحفرْ في صخرة المجد اسمك.. ابدأ بكتابة مذكّراتك.. سترى أنّ العالم أجمل، وأنّ المستقبل أروع.. ستكون قادرًا على التسامح..

كانت تصرخ وتصرخ: آ الجيفة.. آ العيفة.. آبوزبال.. آجيو تشوفو..؟ إلك رجل.. إيوا إيلا كنت رجل بصحّ ورِّيني آش تيديرو الرجال..؟! تجاوزت صرخاتها الحومة كلّها. تجمهر الناس خلف الباب الخارجي المغلق. كان الجيران يدقّون ويدقّون، وتتعالى صيحاتهم كلّما اشتدّت صرخات أمّي. لم ينهض أبي. ذهبت أمّي إلى المطبخ وأحضرت سكّينًا كبيرًا، ووقفت ممعنة في التحدّي: ها الموس.. إيوا اذبحني.. ورّيني علاش قاد آ «سيد» الرجال..؟ عندما استفاقت أختي ربيعة من ذهولها، كانت أمّي مضرّجة في دمائها، وكان رجال الشرطة يبعدون الجيران عن مسرح الجريمة، وكان أبي مصفّدًا يحيط به شرطيّان ضخمان وهو ذاهل عن العالم لا يقول شيئًا. آخر شيء رأيته: دمها الذي كان مكياجًا حقيقيًّا غطّى كلّ جسدها. في عينيها بقايا بذاءات ساقطة، وعلى فمها ضحكات مجلجلة اختنقت فجأة. كانت عيناها تنظران بشكل منحرف ناحيتي حيث أقف. نزعوا السكّين من يد أبي برفق، ووضعوه في بلاستيك، ثم صفّدوه. قاسوا أبعاد الجثّة وما يحيط بها، ثم أسدلوا عليها غطاءً أبيض. كان ذلك آخر ما رأيت، وحملوني مع أختي إلى مخفر الشرطة، بعد أن شمّعوا باب المنزل، ووضعوا عليه شرطيًّا لحراسة مسرح الجريمة من التلاعب. أمامي كان أبي مقيّدًا في سيّارة شرطة لم تتوقّف شاراتها الحمراء عن الإضاءة التعاقبيّة. كان ينظر ذاهلاً ناحيتي أنا وأختي. ولم نعد من يومها إلى الحومة.

لم نشهد محاكمة أبي، لكنّ المربّية في الخيريّة قالت لي إنّه حُوِّل

Twitter: @ketab_n

موقّتًا إلى مستشفى للأمراض العقليّة نظرًا لسوء صحّته النفسيّة واختلال شخصيّته بعد أن حوكم بالمؤبّد. لم أعد أذكر من أبي سوى عينيه مساءَ الجريمة. كان ينظر إليّ في شرود، تمامًا مثلما أسلمت أمّي الروح وعيناها منحرفتان ناحيتي. جاءت امرأة بدينة ذات وشم إلى الخيريّة، وتبنّتْ ربيعة. بقيت وحدي في العالم. مرّت أيّام قبل أن أطلب من مربّيتي أن تدلّني على عنوان السيّدة التي تبنّت أختي. راجعتْ بعض السجلّات، وكتبت لي الاسم والعنوان، وطلبت منّي أن ترافقني في زيارة أختي. لكنّي رفضت بدواع أخويّة وحميميّة. فلم تقل شيئًا.

سمعت الضحكات البذيئة نفسها. الأغاني المرساويّة والعيوط الحوزيّة نفسها. لكن هذه المرّة سمعت كذلك مواويل أطلسيّة. الوجوه نفسها بالملابس والمكياج الرخيص نفسه. شممت رائحة صابون الكفّ ومسحوق الغاسول ورائحة الشبّة. الوجوه نفسها التي تناسلت من وجه واحد تركتُه مضرّجًا في دمائه، وكان ينظر إليّ بعينين منحرفتين. أوقفتني المرأة البدينة الموشومة على الباب الخارجي وسألتني: آش باغي آ وليدي..؟ أنت صغير على هاذ «الشي»..؟.. لم أفهم. قلت لها في حيرة: أنا خو ربيعة.. باغي نشوف أختي.. بُهِتت المرأة فجأة. رأيتها تتصنّع أدبًا زائفًا وضحكة ميتة. نادت على إحدى البنات: السعديّة.. السعديّة.. جاءت البنت ووشوشت في أذنها كلامًا لم أسمعه، ثم التفتت نحوي: اسمح لي وليدي.. ما عرفتكش.. ها انت تا تشوف.. ما نقدرش ندخلك وأنت رجل.. عندي غا البنات ف الدار..! لم أقل شيئًا. لكنّي رأيت ربيعة في مثل ملابسهنّ. عانقتني بحرارة. لم أكن قد رأيتها منذ أكثر من سنة. شممت على جسدها الرائحة الرخيصة نفسها ذات النفاذ المؤذي. لكنّها في تلك اللحظة كانت أختي، وكنّا وحيدين في بريّة موحشة. وقفنا طويلاً على عتبة

Twitter: @ketab_n

الباب. كانت تتفقّدني وتمسّد وجهي وقفاي وتسوّي شعري، وتسألني عن أحوالي ودراستي بالخيريّة. كنت سعيدًا بها. كانت آخر ما تبقّى لي. لقد كبرتْ كثيرًا خلال السنة التي لم أرها فيها. مدّت يديها إلى ما بين نهديها وأخرجت صرّة نقود، وناولتني كلّ ما فيها: خذ.. مولود.. خذ.. أنت محتاج ليها.. القراية واللبس والصبّاطة.. خذ.. خويا.. وخلّيني نشوفك قاري.. قاري.. وعالي.. عالي.. أنا هنا.. فين ما احتاجيتيني أنا هنا.. ولأوّل مرّة رأيت دمعة عائليّة تنزل من عينين حقيقيّتين. عانقتني كابن عاد بعد ضلال، ثم أوصدت الباب دوني، وتركتني أحترق بدموعها. عندما اقترحت عليّ مربّيتي زيارة أبي في المركز السجني، رفضت بشدّة. لم تجد مربّيتي سببًا مقنعًا لرفضي. سمعتها تقول لي، وكأنّها لا تعرفني: الكتابة ليست مجرّد مهارة لغويّة ووصف بليغ للأشياء. الكتابة إنسانيّة..! يومها لم أفهم مقصدها، لأنّها لم تكن تعرف الحقيقة. كنت أودّ أن أقول لها: كيف يمكن الجمع بين الكتابة والجريمة..؟! وكأنّما قرأت عالمي الباطني، فأهدتني يوم نجاحي في البكالوريا رواية «الجريمة والعقاب» لدوستويفسكي مترجمة إلى العربيّة. قالت لي وهي تعطيني إيّاها: هناك جانب نظيف في العمق الإنساني يجعله يبلّغ عن جانبه الإجرامي. عندما ذهبت إلى الجامعة، كانت هديّتها أثمن ما حملت في حقيبتي البسيطة. ولم أر مربّيتي بعد ذلك نهائيًّا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ـ ١٤ ـ

عندما اتّصلت بأسلين أعبّر لها عن تضامني معها، كنت مثل مسافر تائه في الصحراء عثر على ما يشير إلى واحة أو بئر أو أطياف بشر. كنت أعرف أنّ المغرب لم يعد ذلك الفضاء المخزني العتيق الذي لا يتكلّم فيه غير صوت الشرع والسوط، بل هو مغرب آخر في طور التحوّل. لكنّي كنت أعرف كذلك أنّ أفظع المراحل التاريخيّة هي مراحل الانتقال من نهاية حقبة إلى بداية حقبة. يصبح التاريخ مثل ذئب جريح، وتزداد شراسته وعدوانيّته وإحساسه الدائم بالجوع وحصار الحيوانات المفترسة. إنّ المرحلة لا تَنفَق، وهي مثل أيّ كلب دهسته سيّارة، يملأ العالم زعيقًا وأنينًا وفظاعات، ولذلك لا تستسلم المرحلة إلّا وقد جرفت معها ضحايا كثيرين في الطريق. هل أنا ضحيّة..؟ هل أسلين ضحيّة..؟ ربّما امتلكت أسلين الجرأة والشجاعة هي وفرقتها المسرحيّة لتصدم المتلقّي التقليدي، وتزعزع أفقه العقائدي ورؤيته التقديسيّة للجسد..ولكن أنا ماذا فعلت..؟ لحدّ الآن أخرجت بعض الأفلام القصيرة التي رحّب بها أساتذتي في المعهد العالي للسينما

Twitter: @ketab_n

بباريس، ورأوا فيها سينما حقيقيّة وحميميّة واعدة. لكنّ فرنسا لا تعنيني إلّا من حيث هي شريك لي في الإنسانيّة والفكر المتسامح. إنّ ما يعنيني هو جسد بلدي الحقيقي معروضًا على الشاشة في كامل عريه المادّي. اقترحت على أسلين مشروع بطولة في فيلم أقوم بإخراجه، ورحّبت بالفكرة. فاجأتني إيميلدا ذات يوم، وكانت ممدّدة في صالتها الفسيحة على الصوفة تنصت لشارل آزنفور:

Hier encore j'avais vingt ans..

Je caressais le temps..

قالت لي: اسمع، نوري.. أحبّ هذه الأغنية كثيرًا لأنّ لها علاقة بالزمان. يقال إنّ شارل آزنفور أُصيب برعب شديد عندما بلغ الأربعين من عمره، واعتبر أنّ الزمان يختلس شبابه دون إرادة منه، ولذلك كتب هذه الأغنية. لم أفهم مقصد إيميلدا، لكنّي أجبتها: هي بالفعل أغنية رائعة جدًّا.. فيها إحساس غريب.. نهضتْ من الصوفة واقتربت منّي. طوّقت كتفيَّ بذراعيها في حنوّ غامر:

- c'est ça Nouri.. tu l'as dit..

- J'ai dis quoi Emilda..?

ناولتني كأس كونياك وخفضت بصرها ثم ابتسمت: هذا الإحساس الغريب في الأغنية هو إصرار لاشعوريّ من المغنّي على الانتصار على الزمان والاحتفاظ بنضارة الوجود.. أعجبني تعليقها. فيه ذكاء ومعرفة. قلت لها: Eh oui je suis tout à fait d'accord.. لكنّي شعرت أنّ كلامها ما زال ناقصًا. كانت ترمي إلى شيء آخر، واتّخذت أغنية شارل آزنافور ذريعة لذلك. لم أعبّر عن هاجسي. تركتها تكمل الباقي. بالأمس عاد جيل نورماند حزينًا من المعهد على غير عادته. كان مكتئبًا بالفعل. لم يخلع ملابسه في غرفة

Twitter: @ketab_n

النوم، ولم يرتدِ الروب الأرجوانيّ والشبشب الصوفيّ، ولم يُحضِر رواية مارسيل بروست من مكتبته، ولم يشعل سيكاره الكوبي. جلس مباشرة معنا، أنا وإيميلدا. صبّ لنفسه كأسًا شربها دفعة واحدة بشكل متعجّل، وفكّ عقدة ربطته. لم يقل شيئًا. بادرته إيميلدا: Qu'ya-t-il cher.. تكلّمتْ بهدوء الواثقين وحنوّ الأمّهات. أمّا أنا، فكنت متوجّسًا من كآبته وخائفًا على انفضاح علاقتي بزوجته. سمعته يقول: طوال حياتي وأنا أدافع عن سينما بسيطة.. حقيقيّة.. مفعمة بالحياة وذات اتّصال مباشر وحميمي بين اللقطة والمتلقّي.. ردّت إيميلدا: Eh oui c'est vrai Jules.. أفرغ كأسًا أخرى بانفعال غير عاديّ: لكن واقع «البوكس أوفيس» شيء آخر.. من يصدّق أنّ أعلى المداخيل وأعلى نسبة مشاهدة، تحقّقها اليوم أفلام سيلفستر ستالون وآرنولد شوارزينجر وبروس ويليس..؟ ما الحياة الحقّة التي تقدّمها هذه الأفلام..؟ ما الأفكار العميقة التي توصلها إلى الناس..؟ كان نيتشه يقول: «لقد صار عالم الواقع في النهاية حكاية..». ويمكنني القول لقد صار عالم الواقع السينمائي في النهاية تكنولوجيا..! سادت هنيهة من الصمت قبل أن تتدخّل إيميلدا: ماالجديد يا حبيبي..؟ كنتَ دائمًا تعرف هذه الحقائق المؤسفة.. أكيد أنّ وراء انزعاجك أمرًا آخر.. فكّ ربطة عنقه تمامًا وخلع معطف طقمه الأسود. لم يتوقّف شارل آزنافور عن محاولة امتلاك الضياع واستعادة مملكة شبابه عندما كان في العشرين فقط قبل البارحة. ـ المحزن إيميلدا هو أنّ المعهد العالي الذي أفنيت عمري لأجعله «آغورا» للسينما الحقّة، قرّر فجأة أن ينخرط في السينما المعاصرة. وداعًا للبساطة.. للّقطات الطبيعيّة.. لحركة الممثّلين الحقيقيّة.. للأصوات الفعليّة والمشاكل الإنسانيّة في كامل عفويّتها.. سيكون علينا منذ الآن أن ننتج أفلامًا بواسطة تصميمات

Twitter: @ketab_n

ومؤثّرات وتفاعلات يضعها الكمبيوتر وليس الشعور الإنساني الحيّ. الأمر يشبه «تيتانيك» معلوماتيّة لمحاكاة التيتانيك الفعليّة الغارقة منذ مئة سنة.

الصمت كان بيننا. لم يكن الصمت فشلاً للكلام، بل كان ضجيجًا من حوار غير مسموع. ليس لأنّنا لم نجد ما نقوله في تلك اللحظة، بل لأنّ الصمت، كما خبرت ذلك «معهم»، يشبه فراغًا معبّرًا في ديكور صالة أنيقة. تثاقل جيل نورماند في نهوضه. لقد عبّر عن موقفه بأقصر العبارات الممكنة، وترك الصمت يقوده إلى غرفة نومه في الطابق العلوي. كانت أغنية شارل آزنافور ما تزال تحفر في طمْي الشعور، وتنفخ في رماد السنوات الخامد لتشعل جمرةَ شباب توشك على الانطفاء. Revenons à nos moutons ، قالت إيميلدا. وهززت رأسي موافقًا.

ـ ربّما يكون الأمر بسيطًا نوري.. بلوكاج نفسي ربّما!.. كنت أعرف ما تعنيه. لم أتحرّج من كلامها. في نبرات صوتها صدق امرأة وعدتْ جسدها بملح الحياة مهما كان الثمن. أحسست شفتيها مرتعشتين فوق فمي المحموم. حاولت أن أعدم الشخص المغربيّ الذي تربّى على ثقافة الفحولة والتستّر والإشارة. لكن للدم حمضه الثقافي والحضاري الذي لا يمكن أن تحطّمه أيّة ثقافة أخرى. أسميته في مناسبة أخرى: الحمض البدوي. كنت أراه يقترب برأسه الحليق المرعب المليء بندوب الشجّ وآثار الشجارات التي لا تنتهي. خميس حبش يترجّل من العتمة فجأة ويهاجم ساحة الخرّوب، حيث صمت المتفرّجين أمام سينما الحائط. يصنع أجنحة للتحليق خارج الأرصفة المحفّرة والأزقّة الموحلة. كان خميس حبش رعبًا حقيقيًّا. ليس لأنّه كان يسلبنا مع عصابته كلّ ما نملك من بقايا للبؤس والتّعاسة، بل لأنّ

Twitter: @ketab_n

غاراته لم تكن تتوقّف عند حدود السلب والنهب. كانت فحولتنا مهدّدة معه في أيّة لحظة. في زمن مارق، يمكن أن تصير مومسًا في عباءة ذكر. ظلّ رعبه مسيطرًا عليّ حتى بعد أن كبرت. في الطريق إلى المدرسة، كنت أصارع ثلاثة أعداء لا يرحمون: الجوع والبرد وخميس حبش. كانت أمّي تلبسني فوق ثيابي الداخليّة معاطفَ أبي الطويلة القديمة. ولكي لا يبدو المعطف متدلّيًا فوق ركبتيّ، كانت تدخله تحت سروالي ثم تشدّ عليّ بحزام من أشرطة قماشيّة. لكنّي سرعان ما أشعر بضغط شديد وسخونة غير عاديّة، فلا أحسّ إلّا وحذائي المطّاطي الطويل امتلأ فجأة بسائل ساخن. أتخفّى خلف الأشجار المحيطة بالمدرسة، وأنزع حذائي لأفرغه من بولي المصفرّ، ثم أتابع طريقي نحو القسم. ألتفت إليها. أجدها بنكهة ذرة ساخنة في يوم ماطر. آه يا إيميلدا.. أنت لم تشمّي رائحة المدرسة ممزوجة ببولي أسفلَ قدميّ وبين فخذيّ. لكنّي أرى في عينيها وفي صوتها حدسًا غير عاديّ يخترقني كأشعّة ليزر ليعرّي دواخلي. بحكم تجاربها في جيش الخلاص المتطوّع لمساعدة المتشرّدين، ربّما امتلكت القدرة على تأويل النظرات ولحظات الصمت وانكسار النبرات لدى أيّ شخص يعاني. لم تتخلّ عنّي، ولم تنظر إليّ كمغاربي قمْحيِّ الملامح يغري بالفحولة الانشطاريّة وقصص الصحراء وأكل رؤوس الأغنام المغليّة. لقد أحبّت شيئًا ما فيَّ، لكنّني لم أستطع تحديد ما هو. يأتي صوتها كزخّة مطر حليمة: peut-être que tu dois voir un Psy. دون شعور منّي، ألتفت مذعورًا. وكامرأة تقف في منتصف الشعور بين الأمّ والعشيقة، أنظر إليها فأجد عينيها عصفورتين ربيعيّتين، فيعود إليّ هدوئي. وتتابع هي: الطبيب النفسي هو طبيب عادي مثل أيّ طبيب. مهمّته الأولى هي منحك فرصة البوح خارج كلّ تأنيب أو حكم أخلاقي.. سترى أنّ

Twitter: @ketab_n

الذهاب إلى «البسي» مثل الذهاب إلى عملك مع الممثّلين لإخراج فيلم. . . أريد أن أبكي فوق ذراعيها مثل أيّ طفل، لكنّهم «هناك» عوّدوني أنّ «دمعي في الحوادث غال». . إنّ الرجال الحقيقيين لا تليق بهم الدموع مثلما تليق بالنساء. .

ـ تعرف نوري. . عصرنا هذا هو عصر الجسد بامتياز. . كلّ شيء مثبّت في خلاياه. . حضارات الروح المتعاقبة منذ سقوط المدينة اليونانيّة، غطّت على الجسد وألحقته بكلّ ما هو سافل ودنيء وحقير je peux maintenant paraphraser Pascale: le Corps a ses raisons que la Raison ignore. شرحت لي كيف حوّلت مقولة الفيلسوف الشهيرة: le cœur a ses raisons que la Raison ignore، بما يتلاءم ورؤيتها للعالم المبنيّة على فلسفة الجسد المعاصرة، ولم تنسَ أن تعتذر للفيلسوف الجانسنيست الذي وصفته بالرائع. نعم إيميلدا. . عشت مرعوبًا من جسدي، خائفًا من اغتصاب خميس حبش لمجد العرق الفائر منه. عوض أن أنصت إلى «مقدّمتي»، ظللت دومًا خائفًا على «مؤخّرتي». الجسد مغارة مظلمة، تفتحها بكلمة سرّيّة، فتفاجئك إمّا بكنوز الأربعين حرامي، وإمّا بثعابين وتنانين الملاحم القديمة. في تلك الليلة الباردة، غادرنا الشقّة. تركنا أستاذي جيل نورماند وحده شبه ثمِل. أخذتني إيميلدا إلى تجوالاتها الليليّة مع جيش الخلاص. لم تأخذ معها شيئًا: لا أغطية ولا أغذية ولا كحول ولا سجائر. استغربت؛ فقد عوّدتني دائمًا أن تأخذ معها شيئًا للمتشرّدين، حتى ولو كان قطعة شوكولاتة فقط. أدركتْ استغرابي، واستمرّت في سيرها الصامت. وصلنا محطّة ميترو. نزلنا النفق. كان دافئًا، تنبعث منه روائح نبيذ وصوف أغطية ومعاطف ممزوجة بروائح أكل وسجائر. كانت الحركة شبه مشلولة. الساعة كانت قد تجاوزت

Twitter: @ketab_n

الثانية بعد منتصف الليل. اقتربت إيميلدا من رجل كهل ملتحف ببطّانيّة صوفيّة، وفي حضنه كلبه. لحيته شقراء وأنفه أحمر وخدّاه متورّدان. لا شيء يدلّ على تشرّده وبؤسه. كان ملتحمًا تمامًا مع كلبه الدلمسيان ذي الفرو الحنّائي. أشارت إيميلدا بعينيها ناحيته، كأنّها تقول لي: انظر..! نظرت في اتّجاه الكهل الخمسيني، وبدت منّي حركة تدلّ على أنّ الأمر عاديّ. الرجل متشرّد وبلا مأوى، مثله مثل الآخرين. فما الذي أثارها فيه..؟ قالت لي: أنت مخرج سينمائي نوري.. على عينيك وحواسّك أن تختطف اللقطة في زخمها الأوّل الذي لم يتأثّر بأيّ عامل خارجي.. أعدت النظر في الرجل. كان أليفًا بحزن داخلي يشوبه فرح ما. حتى كلبه الدلمسيان لم يكن كلبًا يدلّ على حرمان أو تسيُّب. كان مثل كلب آت لتوّه من فيلّا راقية. في عينيّ الرجل ما يشبه قنديل ديوجين الباحث عن الحقيقة. مررنا أمامه. حيّته إيميلدا بلطف وردّ بصمت بليغ. هذا أستاذ جامعي شهير يدرّس الأدب العالمي في السوربون. بدأت تحكي لي إيميلدا. إنّه ليس متشرّدًا وبلا مأوى مثل الآخرين. هو عضو في جيش الخلاص. تطوّع مثلنا لتقديم المساعدة للآخر «المتشرّد».. «الصعلوك».. «البدون مأوى ثابت».. يقتطع جزءًا كبيرًا من راتبه لفائدة هذا «الآخر» الغريب.. المنبوذ.. الجدير بالشفقة. في كلّ شتاء يأتي بسيّارته رباعيّة الدفع الألمانيّة محمّلة بالأغطية والأغذية والنبيذ والأدوية والمأكولات المعلّبة، ويوزّعها على سكّان أنفاق الميترو والقطارات المهجورة والبنايات المهدّمة. يومًا ما سمعته يردّد قولة الفيلسوف الوجودي كييركجارد: «إنّ ما ينقص عصرنا، ليس التفكير بل الشغف..». تخلّى عن كلّ شيء، ما عدا وظيفته بالجامعة. باع كلّ ممتلكاته، ولم يترك لابنته الوحيدة وزوجته سوى شقّة صغيرة في باريس. أصرّ على أنّ عمل جيش الخلاص،

Twitter: @ketab_n

مهما كان نبيلاً، يبقى في حدود «التفكير» و«التخطيط» بالوكالة لمساعدة الآخر المتشرّد، لكنّه لا يرقى إلى مرتبة التجربة الحقيقيّة المبنيّة على الشغف، لكي تستطيع الذات أن تختبر معاناة الغير. كنّا في اجتماعاتنا نتحدّث عن الجوع والبرد والوحدة والمعاناة، بلغة من يوجد في غرفة أنيقة، تدفّئها مدفأة مبنيّة بطراز هندسيّ رفيع، ومن خلالها يتابع مشهد الثلج في الخارج، ويحاول أن يصل إلى الشعور بالبرد وتجمّد الأوصال الذي يعاني منها متشرّد يتسكّع على الأرصفة. دفعه «الشغف» إلى المبيت في العراء وإلى فقدان الدفء العائلي وبذخ المال ونفوذ المكانة الاجتماعيّة. إنّه ينام كأيّ متشرّد، ويجوع كأيّ صعلوك، ويعيش الوحدة كأيّ منبوذ. في النهار يذهب إلى الجامعة، ويقدّم دروسه بلغة من يستدفئ بنار خفيّة لا يراها الآخرون، وفي الليل يأتي مع كلبه ويظلّان متعانقين حتى الصباح. تأتي ابنته التي لا تتجاوز العشرين مع أمّها التي تبدو كأخت كبرى لها، وتمكثان معه لبعض الوقت ثم تنصرفان. لقد اقتنعنا تمامًا بموقفه «الوجودي» المبنيّ على فكرة «الشغف». إنّه شخص لا يعانق إلّا كلبه ولا يكلّم إلّا كلبه، ولكنّه عبر هذه التجربة، يعانق العالم «الآخر»، ويكلّمه بلغة الأمعاء الباردة والأيادي المرتعشة والبطن الجائع والصقيع الذي «يبتر» الأصابع. هذا ما أسميته أنا تجربة الاتّصال الحميميّ المباشر. طوال حديثها وأنا ذاهل. التفتت إليّ إيميلدا. يداها مزروعتان في «الشغف» الشخصي الماثل أمامنا مباشرة. قالت لي: كما يلتصق هذا الشخص بكلبه في هذه التجربة الإنسانيّة، أريدك أن تلتصق بسينماك العفويّة المباشرة. لم أجب. كان كلّ شيء أكبر من وجداني. لكنّ إيميلدا فاجأتني: ما رأيك لو تصحبني معك إلى بلدة سينما الحائط..؟! كانت زياراتي لبلدتي الصغيرة قليلة جدًّا. أنزل بها مرّة كلّ أربع أو خمس

Twitter: @ketab_n

سنوات. أزور أمّي وأختي وخالتي الكسيحة. أمكث معهنّ لحظات قليلة جدًّا، ثم أذهب إلى العاصمة أو الدار البيضاء أو مراكش. عند ذهابي إلى فرنسا والتحاقي بالمعهد العالي للسينما، دخلت تجربة مريرة جدًّا: أن أتخلّص من الارتباط العاطفي المدمِّر بالعائلة الذي يهدم كلّ خططي وبرامج عملي وقدرتي على التفكير المستقلّ بعيدًا عن أيّ ضغط خارجي. لم يتقبّل أيّ واحد فكرة أن أكون مستقلًّا عن جوّ العائلة. أمّي تريد منّي أن أحضر كلّ الأعياد الدينيّة بلا استثناء، وأن أنصت لثرثراتها التي لا تنتهي عن نساء الحومة والصبايا المقترَحات لزواجي؛ وأختي تريدني أن أحدّثها باستمرار عن باريس ونساء باريس وآخر التقليعات وفضائح الفنّانين، التي تنشرها صحافة الأرصفة أو تصوّرها عدسات الباباراتزي. لكنّي صمّمت على الصمود أمام دموع أمّي واتّهامها لي بالعقوق لفائدة «النساء الروميّات». وانتهى الجميع إلى الاقتناع بأنّني شخص حرّ ومستقلّ، مرتبط بأشغال لا تنتهي، ولا وقت لي للعواطف النبيلة التي لا تنتج غير الرداءة. كيف أصحب إيميلدا إلى البلدة؟ كيف أقدّمها إلى أمّي وأختي وخالتي الكسيحة؟ ما الذي تبقّى من البلدة النائمة في ظلام اللّاشعور وأحراش الحنين الضاربة في القدم، لأقدّمه لها؟ لكنّي مع ذلك وجدت الفكرة رائعة. لماذا لم أنتبه للأمر؟ لماذا لم يخطر ببالي أن أزور ساحة الخرّوب وأتفقّد ما بقي من ذكريات وآثار؟ كيف تخلّصت من العاطفة المدمّرة لأسقط تحت دولاب الذاكرة الضاغطة؟ عند تجوالاتنا الطويلة بين الأماكن المهجورة التي يأوي إليها المتشرّدون، كنّا في حالة عياء وبرد. إيميلدا تقود سيّارتها بكلّ هدوء. أغاني البلوز الشجيّة تنبعث من سي دي المسجّلة الرقميّة: جيمي ريد.. جون هاملتون.. جون لي هوكر.. لويس أرمسترونغ.. أغاني الحزن الأزرق والدفق الدمويّ الغميق. الأغاني التي حوّلت

Twitter: @ketab_n

معاناة الزنوج الأميركان من أصول إفريقيّة إلى ملحمة فنِّيّة وقيمة إنسانيّة عالميّة. إنّها أغاني «الاتّصال الحميميّ».. أغاني الشغف والانفعال الحيّ المنفلت من كلّ «تأمّل». من قبل، لم أكن أحبّ أغاني البلوز الزنجيّة. كنت أراها مثل الجاز، تعتمد على قوّة الآلات ونفخ أوداج العازفين السود. مع إيميلدا، مع جيش الخلاص، وفي أعين المتشرّدين الحزينة وأوصالهم الباردة، كان لكلّ إيقاع قصّة ولكلّ نغمة دم ولكلّ صوت شجن. كانت إيميلدا تدندن بشفتيها وتضرب بأناملها الرقيقة على المقود، وتختلس النظرات إليّ. نعم إيميلدا، أعرف ما تفكّرين فيه: لقد ارتفع البلوز بالمعاناة الزنجيّة من حقارة العبوديّة إلى ألق الوجدان. وبذلك فرض نفسه واستحقّ تقدير العالم. كثير من المغنِّين البيض يتحرّقون، عندما يغنُّون البلوز، للوصول إلى قمّة الصدق الشعوري الداخلي، لكنّهم لا يستطيعون، لأنّهم لا يمتلكون حميميّة الاتّصال الشغفي المباشر بدم الذاكرة. قلت لها: هل ما تقومين به من أجلي هو فقط بدافع الحبّ..؟ استمرّت في دندناتها الهادئة ونقراتها الخفيفة بالأنامل على المقود. الظلام مطلق، وأنوار السيّارة المسلّطة على ثلج الطرقات يمنح الأمكنة بياضًا مذهّبًا لا يتوقّف عن الانفلات. توقّفنا في الطريق أمام بيسترو ضائع في ثلوج باريس. كان دافئًا بأدخنته وروائحه المتداخلة. روائح نبيذ وقهوة وسجائر وحطب مواقد. البيسترو كلّه مبنيّ من أشجار سميكة تعزل البرد والحرارة. جلسنا في ركن قصيّ. طلبتْ كأس كونياك وطلبتُ كأس فودكا روسيّة. أخرجتْ سيجارتين وناولتني واحدة، وسبقتها إلى إشعال سيجارتها. لم يكن البيسترو مليئًا بالروّاد، لأنّ الوقت كان متأخّرًا جدًّا. بعض الكهول الضخام الذين كانوا سائقيّ شاحنات كبيرة تقطع مسافات طويلة. امرأة خمسينيّة تجلس وحدها تشرب، وتحاول أن تتابع بعض المشاهد ممّا

Twitter: @ketab_n

يعرض التلفزيون الرقمي المعلَّق فوق المشرب، وعاشقان شابّان على هيئة طالبيْن بوهيميين يبحثان عن دفء للمعنى في هذا العراء الثلجي، فيما كانت النادلة الشابّة في شبه غياب عن أحوال الروّاد. كانت تكتفي بتنزيل الكؤوس والقناني وعصر القهوة، ثم تعود لوضع كيت في أذنها موصول إلى آيبود في جيب بلوزتها. أفرغت إيميلدا كأسها، وقالت لي: كما تقولون أنتم في ألف ليلة وليلة: وسكتت شهرزاد عن الكلام المباح.. ها أنا أسكت لأنّ الصباح على وشك الطلوع. انزعجت جدًّا عندما سمعت ألف ليلة وليلة وشهرزاد، ولم أخفِ تضايقي: نو.. نو.. إيميلدا.. دعينا من خرافة الشرق ورائحة الجنس في المخادع والحرملك.. لقد تجاوزنا هذه الثنائيّة الخرقاء عن شرق غامض ودافئ وموغل في ألقه الروحي، وغرب واضح وعقلاني بارد ومادّي.. نحن هنا، أنا وأنت وثالثنا الشغف الإنساني.. وضعت يديها فوق يديّ، واعتذرت برقّة زائدة: معذرة نوري.. لم أقصد.. أكرّر اعتذاري الشديد.. فقط أردت أن أقول لك إنّني تكلّمت وحكيت مثل شهرزاد، ولم أسمع لحدّ الآن أيّ ردّ فعل منك.. كذلك قالت خالتي بهيجة الكسيحة يوم حملت حقيبتي وودّعتهنّ دون انفعال زائد: هذا الولد لا يقول شيئًا.. قلبه مغلق.. رفعتْ أمّي عينيها نحوي، ومنعتها دموعها من أيّ تعليق. كنت قد خطّطت لاكتناه أسرار الحائط الأبيض في ساحة الخرّوب، حيث كانت تُبثّ أفلام تشبه روائح شعبيّة تظلّ عالقة في الخياشيم. فتحت عينيَّ على عالم نسوي: أمّي وأختي دليلة وخالتي بهيجة. لم أتساءل يومًا عن سبب وجود خالتي بهيجة بيننا، ولا عن سبب كساحها. بالنسبة لي، كانت جزءًا من عالم الأسرة والذاكرة. لقد كنت دومًا متخوّفًا على فحولتي وعلى جسدي من غارات خميس حبش، لكن منزلنا كان يجهر رعبًا أنثويًّا يبحث عن ظلّ رجل وحسّ

Twitter: @ketab_n

فحل ومهابة بطل. كنت أحاول أن أطلّ عليّ من شرفة أخرى، من كوّة مغايرة تُدخِل ضوءًا غير مألوف ورائحة غير عائليّة. إيميلدا كانت الشرفة الأسطوريّة التي صادفتها في تهويماتي، فاعتمدتها للإطلالة عليّ والخروج منّي في الوقت نفسه. وكأنّما أحسّت بي. هي التي تمتلك حدسًا مخترِقًا مثل أشعّة سينيّة. قالت لي: ربّما تفيدك باريس في المعرفة والفكر والوسائل التقنيّة، لكنّك لن تكون مبدعًا إلّا عندما تُخضِع كلّ ذلك لحدسك الداخلي. يعجبني كثيرًا أن أستمع إليها. كلامها يشبه أغاني إيديث بياف الشجيّة والمبهِجة. لم أعلّق. واسترسلتْ: لم يصبح بول غوغان رسّامًا عالميًّا إلّا بعد أن ذهب إلى أصول الإنسانيّة المتعرّية والراقصة والمتحرّرة في تاهيتي، حيث نقل عالم الضوء إلى لوحاته. قال يومًا لتلامذته: «لكي نرسم حقًّا، لا بدّ أن ننفض عنّا المتحضِّر الذي نحمله على كاهلنا، ونُخرج المتوحّش الذي في داخلنا». عندما عدنا، كانت غرفة المكتبة في الطابق العلوي مضاءة. خمّنّا أنّ أستاذي جيل نورماند مصاب بالأرق، وغارق في التهام مطوّلة مارسيل بروست الصعبة والعصيّة. لكنّنا وجدناه نائمًا على الأرض، مُحاطًا بكلّ الروائع الإنسانيّة، من سوفوكل وأسخيليوس إلى اعترافات القدّيس أوغسطين وجان جاك روسو إلى مسرحيّات شكسبير وراسين والروايات الروسيّة في القرن التاسع عشر، إلى أعمال غابرييل غارسيا ماركيز وبورخيس ويوكيو ميشيما. هل كان يحاول القبض على جمرة الإنسانيّة المهدّدة بالانطفاء؟ هل كانت آخر محاولة يائسة لإنقاذ الشغف الوجداني؟ لم يشعر بوجودنا. أحضرت إيميلدا بطّانيّة وغطّته تاركة فوضى الكتب تمنحه نوعًا من الخلاص الذي افتقده على جسدها. ألهبني قوامها الرشيق في تلك اللحظة الموشكة على التلاشي بين الظلمة وغبش الفجر. كان جسدها «البلوزي» متفجّرًا مثل

Twitter: @ketab_n

ساكسوفون يعزف عليه زنجيّ ذاهل. حاولت أن أغوص في أعمق منطقة في غرائزي المتوحّشة، لعلّي أمنحها دفقًا سائلاً تُشعِرها لزوجته بأنّها ما زالت على قيد الأنوثة. لكنّها لم تستجب لي. قالت لي بنبرة أقرب إلى اليأس: أفضّل أن أنام وحدي.. وأغلقت غرفتها، فيما نزلت الدرج لأتمدّد على الصوفة لعلّي أغفو قليلاً. قلت لنفسي وأنا أحاول أن أسحب البطّانيّة فوقي: هل كان خميس حبش متحضّرًا أم متوحّشًا؟ سمعت إيميلدا في أعماقي تقول: عليك أن تستعيده في كامل توحُّشه مهما كان بذيئًا.. ألم تسمع عن جمال القبح..؟ كاسيمودو أجمل شخصيّة ذميمة رسمها ڤيكتور هوجو.. ونمتُ دهرًا بأكمله..

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ـ ١٥ ـ

صبَّ سليم بنيس كأسًا له وكأسًا لي، وجلس يتأمّلني في الروب الأرجواني الذي أرتديه. لم تكن في نظراته شهوة أو إرهاص بحريق. أعرف هذه النظرات المحايدة من دون أن تكون جامدة وجافّة تمامًا. هي تشبه نظرات رسّام إلى جسد أنثى في كامل عريّها تتمدّد أمامه كموديل. كنت أجلس قبالته مثل نوتة موسيقيّة مكتوبة على الورق، يحاول عازف ما أن ينقلها عبر يديه وآلته إلى نغمات حقيقيّة مسموعة. وقف دون أن يفارق كأسه. جال في مرسمي بين اللوحات. لوحات مكتملة معلّقة. لوحات ناقصة مركونة على الأرض. بداية لوحات سورياليّة. أخرج غليونه وملأه بتبغ ذي رائحة رفيعة وأشعله. منحه الغليون مسحة كبرياء فكري بعيد عن كلّ غرور. في كلّ حركاته ونظراته وأنفاسه وأدخنة غليونه، كانت رائحة البحث عن الحقيقة واضحة كإعلان إشهاري. توقّف عند لوحة موضوعة على الحامل ومغطّاة بقماش أسود. أمسك القماش بيديه، والتفت نحوي بضحكة خفيفة: أتمنّى ألّا يكون هذا لون حداد..! لم أضحك. ربّما لأنّ

Twitter: @ketab_n

ملاحظته كانت من الذكاء بحيث نبّهتني إلى شيء غاب عن فكري. قلت له: بكلّ تأكيد.. لا شيء يتمّ بمحض الصدفة في نظر التحليل النفسي.. أخذ نَفَسًا من غليونه وردّ: الصدفة لا مكان لها في أيّ فكر علمي.. أزاح الستارة السوداء وتراجع إلى الخلف. لأوّل مرّة أسمع شخصًا يحدّثني عن الخلفيّة المتوارية للّونين الأرجواني والزعفراني على لوحة من لوحاتي. في اللوحة حمرة مذهّبة تشبه غروبًا على شاطئ، ولون نيليّ خفيف وتدرّج في الرماديّ. لكنّه لم ينتبه إلّا للأرجواني والزعفراني. لم يكونا لونين طاغيين. كانا يمثّلان خلفيّة اللوحة. ولكنْ لماذا لم ينتبه الطبيب إلّا إليهما..؟! حين بدأتُ رسم اللوحة قبل سنتين، لم تكن لديّ فكرة واضحة عمّا أريد أن أنجزه. كنت مدفوعة بحدس فنّي لاقتناص لحظة عصيّة تملك مفاتيح عالمي الغامض:

ـ حاولي كاميليا أن تتذكّري.. أنت تخفين شيئًا!

وعاد إلى وضع الغليون في فمه وتفحّص خبايا اللوحة. أخبرته بالحقيقة، ونحن بشقّته ببلاس بيتري: إزرا، أنا حامل.. لم يبدُ عليه تأثّر كبير. جهَّز قهوة سوداء، وجلس قبالتي في السيجور المؤثّث ببساطة راقية. فتح علبة سجائره وناولني واحدة وأخذ لنفسه أخرى. انتظرت أن يقول شيئًا. لم يكن ما بيننا شعور بالعار أو الفضيحة جرّاء هذا الحمل السِفاح. كثير من أصدقائنا بالبعثة وقعت لهم المسألة نفسها، واستمرّت الحياة. كنّا محصّنين وراء قيم الحضارة الليبراليّة التي تجاوزت هذه السفاسف. كنت فقط أحاول أن أجد تبريرًا لموقف ماما وبابا عندما تسامحا مع حمْلي، ولم يتسامحا مع ملّة الشخص الذي حملت منه. بكلّ هدوئه الرواقي، أطفأ إزرا عقب سيجارته في المنفضة، ونهض صوب اللوحة التي رسمها لي. وقف أمامها كأنّه يكتشفها لأوّل مرّة في معرض. تحسّسها بأصابعه. السيجارة في فمي

Twitter: @ketab_n

وأنا أنظر جانبًا بطرف عيني نحو شيء ما، وعلى ملامحي آثار شهوة مجهضة. التفت إزرا نحوي، وقال بسخريّته الهادئة: كان عليّ أن أضيف إلى البورتريه جنينًا لا اسم له.. لم أفهم. ما الذي لم تفهميه كاميليا..؟ قال لي سليم بنيس. ثم أضاف، كأنّه اكتشف في بوحي واقعة جديدة: كنت سأقول لكِ إنّ لونك الأرجوانيّ في اللوحة يخفي آثار ولادة لم تتمّ..!! صببت لنفسي كأسًا أخرى، ونهضت من مكاني. غبت لحظات، وعدت حاملة مخطوطًا أنيقًا مكتوبًا باللغة الفرنسيّة. التمعت عينا الطبيب النفسي. هي التماعة لا تختلف عن التماعة رجلِ تحرّي حين يضع يده على وثائق إثبات جديدة.

هذه مذكّرات بابا.. قلت له. تناولها منّي بلهفة عالم آثار عثر على حجر منسيّ في منطقة نائية من قارّة مجهولة، لكنّه فتح به مغاليق الحضارات القديمة. قرأت الحيرة في عينيه. كنت قد استبقت أسئلته: قبل أن تسأل.. أنا أجيبك.. وجود المذكّرات في حوزتي يعني أنّ بابا لم يعد موجودًا معي.. نعم هذا صحيح.. جلس بقربي. لأوّل مرّة أسمع ارتعاشة أعماقه. في صوته ارتباك رجل لم يفلح في إخفاء خوفه من الظلام. ظلّ صامتًا. قلت له: إزرا.. هل أنت خائف..؟ الأمر عاديّ.. في أكدال مصحّات عديدة تقوم بالإجهاض..

ـ لست خائفًا كاميليا من حملك غير الشرعي.. يمكنني تحمُّل مسؤوليّتي كاملة.. كما يمكنني موافقتك على الإجهاض.. لكن..

لم يكمل إزرا. تكفّلت أنا بالإجابة نيابة عنه: أعرف.. لو كنت أوروبيّة لهان الأمر.. لكنّني مغربيّة. ـ مغربيّة.. عربيّة.. مسلمة.. وأنا يهودي..

ـ لكنّك مغربيّ إزرا. أجدادك عاشوا هنا وما زالوا يعيشون..

Twitter: @ketab_n

على الأقلّ، أنتم لم تهاجروا إلى أوروبا وإلى إسرائيل غداة الحركة الوطنيّة.. انغمس سليم بنيس بكلّ طاقته الأنفيّة التي تتعقّب روائح الحقيقة في المخطوط. كان مكتوبًا بخطّ مدادي أنيق وبلغة فرنسيّة راقية، لا يفصلها عن لغة هوجو وفلوبير إلّا صدفة الشهرة أو النكران.

ـ خذ المخطوط معك دكتور بنيس.. ربّما تجد فيه ما يجيب عن أسئلتك..

من فضاء البعثة إلى شوارع أكدال الراقية إلى ديسكوات الرباط التي تعرف كيف تتستّر على الشهوات لكي لا يطفو إلى سطح الوجدان غيرُ لون البياض متكلّفِ البراءة، لم نتوقّف عن معانقة الحياة. دائمًا الأزواج نفسها: أنا وإزرا.. سالي وإيديث.. لينا وإيدي.. بالنهم المعرفي نفسه في حجرات الدرس، كنّا نمارس حقّنا في الشمس والنهار وعرق الجسد. كنّا في السنة النهائيّة من البكالوريا الفرنسيّة، ولم يكن قد تبقّى على الامتحان المرعب سوى شهرين أو أقلّ. تخلّصت من الجنين. كان موقف إزرا غامضًا. لم يتهرّب من مسؤوليّة ما فعله. لكنَّ شيئًا ما انتصب فجأة أمامه، منعه من الاحتفال بكائننا المشترك. لم أفهم ذلك إلّا حينما وجدت الموقف نفسه لدى بابا وماما.

عدت يومًا من البعثة. لم أجد الجوّ كالمعتاد. ماما لا تطالع في مجلّات الموضة، ولا تتابع مسلسلها المفضّل الذي لا يتقادم: «العرّاب». بابا ليس بغرفة مكتبته يقرأ روايات دوستويفسكي. لا موسيقى بالفيلّا ولا صوت، ولا حتى رائحة صمت رفيع. في نظرات بابا، استيقظت فجأة وصايا الأجداد وتعاليم العقيدة، وفي ملامح ماما، تلك الحيرة النسويّة المخيفة التي لا تفرّق بين امرأة رفيعة وامرأة رقيعة. أدركت بالفطرة أنّ شيئًا ما انهار في العالم. لم أتلقَّ غير سلام

Twitter: @ketab_n

بارد حين حييتهما. وقبل أن أصعد الدرج نحو غرفتي، سمعت بابا يناديني: كامليا.. لحظة لو سمحت..

توقّفت عند العتبة الأولى. لم أكن خائفة من أيّ شيء. كنت أنضج حرّيّةً شخصيّة. تعلّمت من خلال الثقافة الفرنسيّة التي أنتمي إليها، ومن خلال البعثة، أنّ حرّيّتي ليست منحة من أحد: لا من العائلة ولا من السلطة ولا من المجتمع ولا من المدرسة. إنّها جوهريّة بلغة الفلاسفة، وخليّة حيّة بلغة البيولوجيين. اقترب بابا. لأوّل مرّة يتطاول عليّ. لم يطلب منّي أن أناوله شنطتي الصغيرة التي أحملها فوق كتفي. انتزعها منّي بعنف غير معهود، ثم فتحها وبدأ يخرج محتوياتها: السجائر مباحة.. الحشيش الخفيف مباح.. البريزيرفاتيف مباح.. حبوب منع الحمل مباحة.. كلّ شيء مباح.. مباح.. لم نعترض يومًا على شيء.. كان يلقي بالمحتويات أرضًا في عصبيّة غير مبرّرة: نحن نعرف كلّ شيء.. نعرف أسرار المراهقات والمراهقين وما يحدث بينهم من «احتكاكات» جسديّة.. لم نتدخّل يومًا ما في أيّ شيء.. هي حرّيّتك الشخصيّة.. حتى عندما حبلت اعتبرنا الأمر عاديًّا وقابلاً للمعالجة السريعة..

نظرت في اتّجاه ماما. كانت تبكي. هي التي كانت تتندّر من النساء العربيّات، وتصفهنّ بأنّهنّ «بالوعات دموع» وكأنّها ليست عربيّة. لا شيء الآن يفصلها عن أيّة امرأة عربيّة بالوعة. فجأة اختفى ذلك الكبرياء الحضاري من وجهها، مثلما تلاشى ذلك العمق الفكري من صوت بابا وسلوكه: N'est-ce pas Sophie؟..، وألقى بالشنطة بعيدًا. استجمعت قواي. تذكّرت المثل الفرنسي: chasser le surnaturel, il revient au galop... ها هما والداي يظهران على حقيقتهما التي طالما تنطّعا بإخفائها. قلت لبابا: je ne comprends

Twitter: @ketab_n

toujours rien. أجابني: je t'explique. سمعت شهيق ماما. انخرطت في بكاء حارق. كان صوتها مخنوقًا وهي تحاول أن تكلّم بابا: Kader.. Kader. لكن بابا في تلك اللحظة كان رجلاً شرقيًّا خرج للتوّ من كهفه الألفي..

ـ هل تعرفين أنّ جنينك يهودي..؟!

ـ أعرف..

ـ لا.. أنت لا تعرفين.. تكلّمي صوفي.. قولي شيئًا..

لم تتكلّم ماما. لكنّي وجدت في أعماقي شجاعة استَرَدّيْتها بعد صدمة السلوك المفاجئ لبابا.

ـ ألا تعرفان أنّ إزرا حاييم مغربي يهودي ويدرس معي في البعثة الفرنسيّة..؟

ضرب بابا كفًّا بكفّ. وواصلت كلامي:

ـ أين المشكلة بابا..؟ أنت لست ضدّ الحبل غير الشرعي، ولا ضدّ علاقتي بإزرا، ولا ضدّ كلّ ما أقوم به من حرِّيّة شخصيّة.. بل أنا مستعدّة للإجهاض.. أين المشكلة إذن..؟

ـ هل تعرفين بأنّ طفلك سيكون يهوديًّا..؟!

ـ من جهة الأب نعم.. لكنّك نسيت أنّني أمّه وسيكون..

لم يتركني أكمل. صرخ في وجهي:

ـ أنتِ أمّه.. هذه هي المشكلة.. هذه هي المشكلة..

وابتعد عنّي. تَوَاصل صراخه لدقائق أخرى بدت لي أزليّة متثاقلة. عندما انقطع صراخه، لم أجد حتى ماما أمامي. غادرتُ الفيلّا. ركض

Twitter: @ketab_n

عمّي روحي ورائي، فأوقفته بإشارة من يدي: لا أحتاج السيّارة عمّي روحي.. توجّهت إلى بلاس بيتري. وجدت إزرا في مقهاه المعتاد بمارشي النوّار. كان يتصفّح «جريدة لوموند» ويدخّن مارلبورو. طلبت منه أن نذهب إلى شقّته: أنا في حاجة إلى كونياك.. إلى أكثر من جوان.. وإلى..!!

هدّأني إزرا برواقيّته الحليمة: أنت في حاجة «إلى صمت الحملان».. أنا أعرف كلّ شيء.. وتوقّعت كلّ شيء! في شقّته، لم نستجب لغرائزنا المتحرّرة. فتح إزرا زجاجة سكوتش وصبّ لي كأسًا، وقادني إلى مكتبه: مسوّدات.. مخطوطات.. كتب مجلّدة.. موسوعات.. أعمال مؤلّفين كاملة.. كاسيتات.. بورتريهات.. لا شيء يدلّ على رائحة التيه وعبادة العجل ومزامير داوود والنجمة السداسيّة. قال لي بنبرته الساخرة:

ـ لو أحببت... يمكنني أن أجرح يدي لتري أنّ دمائي عاديّة، ولا..

ـ دماؤك مزروعة هنا في أحشائي..

وازدادت نبرته الساخرة: لو ذهبت عند أيّ طبيب نسائي وعملت إيكوغرافي.. سيظهر جنينك عاديًّا بقلب ينبض ودماغ يشتغل وأعضاء حيّة!

كنت أعرف ما يرمي إليه. غمزاته هادئة، لكنّها موجعة..

ـ لكن بابا قال: إنّني أمّ الجنين وهذه هي المشكلة.. يعني لستَ أنتَ المشكلة بل أنا..

حدّق إزرا فيّ طويلاً. لم أفهم دلالات الدهشة على وجهه. كانت عيناه تفكّران وملامحه تتأمّل وصمته يحوم حول حقيقة ما. تغيّر

Twitter: @ketab_n

سلوكي تمامًا تجاه بابا وماما. لم أحتمل نظرات الإدانة الغامضة في كلامهما وحركاتهما وصمتهما القاتل. لم أفهم حقيقة موقفهما من حملي غير الشرعي من إزرا. كنت أهاجم بابا في كلّ مرّة ألتقيه بالڤيلّا: هل أنت فعلاً بابا الذي أحببت فيه المثقّف المتنوّر المتسامح المتعالي على سفاسف العقائد والتقاليد القروسطيّة..؟

كان يسمعني وينظر إليّ كأنّه شخص آخر مصاب بالزهايمر، ثم أمعن في مهاجمتي. اترك من يديك روايات دوستويفسكي التي طالما تغنّيت بعمقها الفكري وغناها الإبداعي.. انزع عنك مسوح الليبرالي المتفتّح.. ما المشكلة بابا..؟ أنت غاضب منّي فقط لأنّي حامل بطريقة غير شرعيّة..؟ أم لأنّي حامل من إزرا حاييم اليهودي..؟ هيّا تكلّم..! تأتيني عينا ماما كسيرتين. على ملامحها غموض مريب.. ضياع بين عوالم كانت مترسّبة في قعر الذات زمنًا طويلاً..

ـ أنت لا تفهمين شيئًا كاميليا.. يقول بابا، وأنقضُّ عليه:

ـ أنتَ أفهمني.. سأجهض.. أنت تعرف ذلك.. لكن هذا الموقف من إزرا حاييم..؟ فقط لأنّه يهودي..؟ هل نسيت بابا ما ظللت تصرّ على ترسيخه في وعيي: الشخص قيمة في حدّ ذاته، جدير بالاحترام ويمتلك كرامة، فقط لأنّه يمثّل صورة من الإنسانيّة الكامنة فيه، بغضّ النظر عن لونه ودينه وثقافته ومركزه الاجتماعي..؟ هل نسيت بابا المبادئ الكونيّة الكبرى المؤسّسة للإعلان العالمي لحقوق الإنسان..؟ هل أذكّرك بالثورة الفرنسيّة.. روسو.. فولتير.. كانط.. هيجل..؟

لكن بابا لا يمتلك سوى لازمة واحدة: أنت لا تعرفين شيئًا كاميليا! وأصرخ:

Twitter: @ketab_n

ـ بل أعرف بابا.. أعرف.. أعرف أنّ إزرا مغربي من الطائفة اليهوديّة.. ومن أبسط حقوقه الإنسانيّة والمدنيّة أن نعترف له بالحقّ في اختيار معتقده.. هو لم يختر ذلك.. مثلما لم نختر نحن أن نكون مسلمين أو عربًا أو أمازيغ.. الحقيقة الوحيدة التي أعرفها أنّني على علاقة بإزرا.. وأنا حامل منه.. وإزرا بالنسبة لي شخص يتقاسم معي الانتماء إلى الإنسانيّة.. أليست هذه كلماتك بابا..؟ أليس هذا ما دفعتني لتعلّمه في البعثة الفرنسيّة..؟ ألم تسْعَ بكلّ ما أُوتيت من قوّة أن ننسلخ عن كلّ القيم التي لا تنتمي إلى التقاليد الليبراليّة والحداثيّة..؟ اسمعا.. بابا.. ماما.. إمّا أن توضحا لي حقيقة ما تخيفكما.. وإمّا أن أحتفظ بالجنين..

في أفق اللوحة اللازوردي، لم أعرف كيف تسلّل الرمادي شيئًا فشيئًا لكي ينزوي في الخلفيّة. الساعات الطويلة التي كنت أقضيها في المرسم معزولةً عن العالَم، كانت تزرع أمامي طرقات، تمتدّ من خلايا الرمال المترامية في الوجدان إلى درب التبّانة الذي يغيم كلّما حاولت أن أتحقّق من أنواره البعيدة. لم أكن أرسم. كنت أدفن أجزاء من ذاكرتي تحت ركام من الألوان، التي تقفز فجأة من لاوعيي لكي تترامى على امتداد اللوحة.

في الأيّام التي أعقبت لقائي بسليم بنيس في بيتي، كنت أجلس في سريره الإكلينيكي محاولة أن أستجيب لمحاولاته المتكرّرة في أن أترك خطّ الشرخ يمتدّ إلى أقصى نقطة مظلمة في عالمي الداخلي.

ـ اسمعي كاميليا.. أنتِ لم تنتقمي من جارك بإحراق منزله فقط.. بل تسبّبت في إحراق الحيّ بأكمله.

التفتُّ إليه. لوَّح بمخطوط مذكّرات بابا:

Twitter: @ketab_n

ـ بدأت بقراءة المذكّرات.. لا أعرف النقطة التي سيتوقّف عندها الحريق..

تذكّرت لقاءاتي بالشلّة الرجيمة: الراهب.. سامية.. أحلام.. أسلين.. النوري.. ميلاد.. كنّا نتبادل التعاليق على أعمالنا الفنّيّة. كلّهم كانوا يجدون لوحاتي حريقًا مهولاً أودى بقرية بأكملها. كان الراهب يردّد دومًا: ألوان لوحاتك هي ألسنة نار ملتهبة.. وتضحك سامية: هل تتحدّث عن رسّامة أم عن مجرمة..؟ يتدخّل ميلاد: ألا يقترف الفنّان جريمة بحقّ الأشياء حين يحوّلها من بطانتها المتدفّقة الحيّة إلى صيغ جماليّة غامضة..؟ وفي العيادة يسألني طبيبي: وبماذا كنت تردّين عليهم كاميليا..؟

ـ كنت أعرف فقط أنّ إزرا يفِحُّ مثل كوبرا شرسة في ألواني القاتمة والفاضحة..

قفز بابا نحوي. أمسكني بعنف: ستجهضين..هذا الجنين.. هذا الجنين..!! ولم يستطع أن يكمل..

ـ هذا الجنين هو ابن إزرا حاييم بابا.. هذه حقيقة بديهيّة.. أعرف.. وأعرف أنّها حقيقة يهوديّة..؟

كان في كلام بابا ما يفتح علبة الباندورا. لكنّه لم يُفصح عن شيء. اكتفى بتوجيه الكلام إلى ماما:

ـ صوفي.. تكلّمي مع ابنتك.. عليها أن تجهض.. هذا الجنين سيؤثّر على مسارها الدراسي..

ـ بل سيلوّث العائلة بدم يهودي.. هذا ما ترمي إليه.. قلت له. ولم تستطع ماما أن تقول شيئًا.

Twitter: @ketab_n

كنت ممدّدة على الأريكة الإكلينيكيّة، وكان هو، بغليونه ونظراته الهادئة ووثوق ملامحه، يقف عند النافذة ويطلّ على العالم الخارجي. لم أسمع بيانو شوبان في جهاز السي دي الرقمي، ولم أسمع صوت المطر في الخارج. على مكتب سليم بنيس، كان مخطوط المذكّرات مفتوحًا مثل تفّاحة تغري بالخطيئة. كنت أعرف أنّ الطبيب سيلتهمه حرفًا حرفًا، وسيقف عند كلّ تفصيلة، لكي يحلّل ويتساءل ويصوغ الفرضيّات ويبدأ في رسم الخطوط الأولى للتأويل.

رأيت بابا في المخطوط. فرنسيّته ذات كبرياء باريسي مرهف. كنت دومًا، وأنا طفلة، لا أتجاوز السابعة من عمري، أراه يغلق عليه في مكتبه لساعات طويلة. الصمت في كلّ مكان. الفيلّا صامتة. الأشياء صامتة. ماما صامتة. الحرّاس في حديقة الفيلّا يتحرّكون في صمت. لكأنّ بين اعتكاف بابا في مكتبه والعالم تواطؤًا على صمت مريب. لم أكن أعرف أنّه يكتب إلّا حين تفتح ماما عليه باب المكتب، وتقبّله على شفتيه وتناوله سيجارة وفنجان قهوة. تتكلّم معه في همس، ثم تغادر. أثارني مخطوط بابا. سجلّ من الحجم الطويل، بأوراق تميل إلى صفرة خافتة تنتهي بإطارات مذهّبة. كان بابا أعسر، وكانت طريقته في إمساك القلم ذي الحبر السائل تبدو لي راقية، وتليق برجل فكر وكاتب. حاولت ما أمكن أن أطّلع يومًا على المخطوط، لكنّه كان يغلق عليه في الدرج حالما ينتهي من الكتابة، ويهمُّ بمغادرة المكتب.

ـ كاميليا.. لماذا أعطيتني المخطوط..؟ سألني طبيبي.

قلت له:

ـ هذا سؤال ماكر.. حين نتساءل عن سلوك عادي.. يكون سؤالنا لصًّا يتربّص بظلام الأمكنة!

Twitter: @ketab_n

ـ أنتِ تعرفين أنّني قرأت المذكّرات..

ـ طبعًا..

بعد حملي من إزرا، وبعد موقف بابا الغامض، أدركت بحدس الأنثى أنّ خلف الأشياء خبايا لن يضيئها كلام النهار الملفوظ من شفتين في حالة وعي كاملة. لا بدّ من النبش فيما وراء الكلام. الكتابة حاملة للحقيقة وخزّان للمعنى الخفيّ. والكتابة كانت تعني مخطوط بابا. عندما أصررت على عدم الإجهاض نكاية في بابا وماما، بدا بابا وكأنّه يتضاءل. كنت أسمع ماما تطوّق كتفيه وتعانقه:

ـ نو.. قادر.. الأمر لا يستدعي كلّ هذا الحريق..

وكان جوابي يأتي كزيت تصبّ على الحريق:

ـ أيّها المتخلّفان.. لطالما تخفّيتما وراء شعارات التحرّر والحداثة الزائفة، وأنتما أخبث من أيّة حشرة تافهة.. لكن، لن أكلّمكما عن علاقة السيّد والعبد التي تربطكما بالحرّاس وخدم الڤيلّا.. هذه تراتبيّات اجتماعيّة قد لا يكون لكما دخل فيها. لكن أن ترفضا إزرا حاييم فقط لأنّه يهودي.. هذا ما يجعلكما أحقر من عمّي تومي وعمّي روحي اللذين لا يبدوان لكما إلّا كرفش أو معول أو مطرقة..

كان بابا في مكتبه يكتب، عندما سمع إهاناتي المتكرّرة. لم يتحمّل. انهار فجأة، وسقط من كرسيّه. صرخت ماما، وأسرع الخدم والحرّاس وحملوه إلى فناء الصالة الفسيحة. نادت ماما الإسعاف. وغاب بابا في السيّارة ذات الزعيق الصاخب والضوء الأحمر اللمّاع. بقيت وحدي. لم أحسّ بأيّ تعاطف تجاه بابا، بل ازددت احتقارًا له. بدا لي إغماؤه محاولة للهروب من مأزق ضاغط أو استدرارَ عطفٍ رخيص.

Twitter: @ketab_n

أسرعت نحو المكتب. كان المخطوط فوقه. في لحظة السقوط، نسي بابا أن يغلق عليه في الدرج. فتحته من الصفحة الأولى.

السبت ١٥ يوليو ١٩٦٧.

مقهى **الماسة الفريدة** بأكدال. كعادتنا كلّ مساء سبت، ذهبت أنا وصوفي إلى مقهى **الماسة الفريدة**، وهو في الوقت نفسه مطعم يقدّم وجبات فاخرة من كلّ الأصناف الأوروبيّة. كنّا نحبّ هذا المقهى ـ المطعم نظرًا لهدوئه وألوانه الصامتة ونوعيّة الروّاد الذين يأتون إليه. نشرب أربع أو خمس بيرات، ونأكل بيتزا مهيّأة على الطريقة النابوليّة، وندخّن ونحن نتكلّم حول آخر ما قرأناه من إبداعات باللغة الفرنسيّة. كان قد مرّ على زواجنا أكثر من ثلاث سنوات ولم ننجب. بعد الفحوصات والتحاليل المخبريّة تأكّد أنّني عقيم، ولا أمتلك أدنى فرصة للإنجاب مهما أخذت من أدوية. لم أصدم. كان عالمي أكبر من صخب الأطفال وهموم الأسرة. وحتى صوفي لم تناقش معي أيّة فكرة حول الموضوع. كانت تقول لي بفرنسيّتها المتكلّفة: KaderÛÛ tu es mon bébé avant tout. لم نسقط في مناحة العمر الضائع والاسم العائلي الذي لن يجد له وريثًا. كنّا نمارس حبّنا على الطريقة الحداثيّة التي ترهن كلّ قرار بإرادة الذات، وليس تحت الإذعان لصوت الجماعة.

في ذلك المساء الصيفي الهادئ، كنّا نحتفل بحبّنا في مقهى **الماسة الفريدة**، كما اعتدنا دومًا، وكان إلى جانبنا شابّ مع زوجته وابنته التي قدّرت أنّها لا تتجاوز سنتها الأولى. كانا أنيقين وراقيين وهادئين. وكانت الطفلة تتلكّأ في مشيتها. لهذا بدا أنّها تصارع من أجل المشي. شيء واحد أثارني، مثلما أثار صوفي. كانا يناديان ابنتهما كلّما سقطت: Oh Rachelle.. bravo.. tu arriveras..

Twitter: @ketab_n

bravo.. كانا يشجّعانها على مواصلة الحركة وتحمّل ثقل الرجلين. لم يكونا بعيدين عن طاولتنا. كانت الطفلة تلامس مقعدي كلّما سقطت، وكنت أمسّد شعرها في حركة متأدّبة تليق بشخص «متحضّر». وفي كلّ مرّة، كنت أسمع كلمات شكر من الشابّ وزوجته. خلقت الطفلة حركة دافئة في فضاء المطعم - المقهى الصامت. حتى صوفي أطفأت سيجارتها احترامًا لسنّ الطفلة، واهتمّت بمتابعة حركة جسدها الصغير. ربّما كانت تفكّر في الطفلة التي حُرمت منها. لكنّني أنا كنت مأخوذًا فقط بتأمّل السعادة التي ترشح من وجهيّ الزوجين. سقطت الطفلة عند رجلي تمامًا. لم أتمالك نفسي. قمت وحملتها بين يديّ وأنا أحاول أن أنطق بكلمات الدلع الملطّفة التي نتلفّظ بها أمام الأطفال. وكانت هي تضحك معي غير مبالية أنّها بين يديْ شخص غريب. وضعتها على الكرسيّ قرب والديها، وسلّمت عليهما: je me présente.. je suis Nabil Kader et voici ma femme Sophie. وبكلّ أدب أجابني الزوج: Enchanté.. moi c'est Amos Evraim et elle c'est ma femme Shola Cohen.. et cette jolie princesse c'est Rachelle. قرأ الاستغراب على وجهي. لكن يبدو أنّه تعوّد على ذلك. قال لي: eh oui nous sommes des marocains.. des marocains juifs..

تداركت نفسي، ومددت يدي للمصافحة:

enfin de compte nous sommes des citoyens marocains.. des êtres appartenants à l'Humanité.

كنت أحاول أن أبدو في مستوى العالم الذي يهيمن في المقهى.

أجاب الشابّ:

Twitter: @ketab_n

tout à fait mon ami.. alors au nom de l'Humanité pouviez-vous vous joindre à nous?

ناديت صوفي، وانضممنا إلى طاولتهما. صفّق عاموس إيفرايم بيديه، وطلب لنا بيرتين. كانت صوفي مأخوذة بالطفلة، فانخرطت في حديث جانبي مع شولا كوهن أمّ البنت. سمعتها تقول: أنجبتها في باريس.. نحن نعيش في المغرب ولا يمكن أن نعيش إلّا في المغرب.. لكن أنت تعرفين.. من أجل مستقبل البنت فضّلنا أن تولد في باريس، ليكون من حقّها أخذ الجنسيّة الفرنسيّة بشكل آليّ حالما تصل الثامنة عشرة من عمرها.

تبادلنا المجاملات، كما تبادلنا التعريف بأنفسنا وأخذ العناوين وأرقام الهواتف.

الأحد ٢ يوليو ١٩٦٧.

صبيحة غير عاديّة. اعتدنا، أنا وصوفي، أن ننام إلى حدود العاشرة صباحًا، ونستيقظ لكي نجد فطورنا جاهزًا بالصالة الفسيحة. أيقظتني صوفي مبكرًا في حدود الثامنة. أحاطتني بذراعيها وقبّلتني كما لم تقبّلني من قبل: هيّا استيقظ حبيبي.. مفاجأة.. لقد أعددت لك الفطور بنفسي..

كان عطرها نافذًا وقميصها النومي الشفّاف الأزرق النيليّ وعيناها اللتان تنطقان شهوةً وحياةً.. كان كلّ ذلك يعِدُ بصبيحة غير عاديّة. أخذت حمّامي سريعًا، ونزلت إلى الصالة. كان للمائدة شكل غير معتاد. نفَس صوفي وأنوثتها في كلّ مكان.. بتي بان باريزيان.. بان فوري.. جبنة هولنديّة.. عسل أسود خالص.. أومليت ساخنة.. عصير برتقال .. عصير باناشي.. قهوة بعبق إيكزوتيكي.. وفوق كلّ

Twitter: @ketab_n

ذلك، كانت صوفي تغري بامتصاص رحيق العالم. إيديث بياف على الشين تحمل باريس بكلّ أرصفتها المطريّة الثلجيّة لتضعها أمامي كقشدة سائحة: وات صوفي..؟ سألتها على طريقة الأفلام الأميركيّة..

كان جوابها واضحًا وبدون مواربة: أعادتني راشيل إلى الحياة.. عانقتها مثل قطّ يوشك على البكاء: أنا سعيد من أجلك حبيبتي.. لكن..! لم تترك لي فرصة للكلام: لا.. لا حبيبي.. أنا لا أقصد أيّ شيء.. فقط أحسست أنّ شيئًا ما تحرّك في داخلي عندما رأيت الطفلة.. ما رأيك لو ندعوهم للعشاء عندنا..؟ لم أتمّ كلامي حتى سارعت بكلّ لهفة: نعم العائلة اليهوديّة.. أجبتها: كما تريدين حبيبتي..

أنهينا فطورنا. ولكي تكتمل الشهوة الفرِحة، أمسكتني صوفي من يدي وقادتني إلى غرفة النوم. لم تترك لي حتى فرصة تنظيف فمي: لا تخف.. سألعقه..

في موائها الشهواني، جاءتني رائحة أمومة مجهضة. تحت جسدي، كانت صوفي أنثى ترفض الضياع والانصياع لانكسار الوجدان. قلت لنفسي: حرام على هذا الجسد ألّا يهب العالمَ كائنًا من دمه المشتعل.. اتّصلت صوفي بالعائلة، وحدّدت يوم السبت موعدًا للعشاء.

السبت ٨ يوليو ١٩٦٧.

كلّ شيء كان رقيقًا وجميلاً ودافقًا بالمشاعر. حضر عاموس إيفرايم وشولا كوهن وطفلتهما راشيل. تعشّينا وشربنا ورقصنا على إيقاعات شارل آزنافور وجو داسان. كنّا مفتونين بلحظة رائقة ما تنفكّ عصيّة على القبض. كانت راشيل حياة سائلة. منحتنا من الجذل

Twitter: @ketab_n

الغريزيّ ما جعلنا نتعالى على تفاهات العقائد. تحادثنا في موضوعات الأدب والفنّ والسينما وآخر النظريّات الفلسفيّة في فرنسا كالوجوديّة والبنيويّة والبنيويّة التكوينيّة وأنثروبولوجيا كلود ـ ليفي ستروس. لم نتحدّث نهائيًّا عن أصلهم اليهودي، لأنّهم بكلّ بساطة، كانوا يرون أنفسهم جزءًا من الوطن. حتى موقفهم من الصراع العربي الإسرائيلي، كان واضحًا: ليس لنا وطن غير المغرب، وما يحدث في الشرق الأوسط هو صراع عالمي تتحكّم فيه قوى إمبرياليّة فوق الجميع.

دعونا بدورهم إلى منزلهم في **حسان** قرب الكاتدرائيّة الفرنسيّة. أمضينا ليلة جميلة. في النهاية أصبحنا أصدقاء حميميّين. كثيرًا ما كانت شولا كوهن تمرّ على صوفي وتترك معها راشيل إلى حين عودتها من العمل أو من قضاء حاجة. وأنا اعتدت أن ألتقي عاموس إفرايم في المقهى تقريبًا كلّما أتيحت لنا الفرصة.

السبت ١٥ يوليو ١٩٦٧.

لم توفّرنا الحرب. عبرت كلّ الخطوط والأقاليم والحدود، واكتسحتنا من حيث لا ندري. لم يكن شهر يونيو شهرًا عاديًّا. كان شهر الهزيمة والنكسة العربيّة. كلّ الكبرياء القومي تلاشى في لحظة دراماتيكيّة ماكرة. اليهود الصامتون دومًا، حطّموا الجيوش العربيّة المدجّجة بالخطابة والبلاغة والحماسة الجوفاء. زارنا عاموس إفرايم وشولا كوهن بعد أيّام من النكسة. كان الخوف باديًا في عينيهما. القلوب ممتلئة، والذات المفلولة لم تكن مستعدّة لتقبل دمارها العظيم. كانت في حاجة لأيّ ردّ فعل كيفما كان لاستعادة الهيبة الفارغة. كانا مقبلين على سفر إلى مراكش، لكنّهما كانا خائفين. في المقاهي والأماكن والمتاجر والمؤسّسات التي كانا يرتادانها، كانت نظرة العداء في عيون الآخرين قاسية وساديّة. سمعا تهديدات هنا وهناك، وإهانات

Twitter: @ketab_n

من أشخاص لم يتحمّلوا قساوة النزول من خطب جمال عبد الناصر القوميّة إلى وحل الهزيمة الصارخة على أرض الواقع الفعلي، البصري، المكتوب والمسموع. كان واضحًا أنّهما لم يكونا خائفين على نفسيهما بقدر ما كانا خائفين على راشيل. أعدَّتْ صوفي جلسة حميميّة. حاولت من خلالها أن تلطّف الأجواء، وأن تفهمهما أنّ المغرب وطن للجميع، وأنّ التسامح ليس منحة من أحد يمكنه أن يسحبها متى شاء. إنّه امتياز بلد يجد في تعدّده الثقافي واللساني والعقائدي ما يصنع غناه ومجده. عندما نهض عاموس، رأيت شولا تنتحي بصوفي جانبًا وتكلّمها في همس. سمعت صوفي تجيب منشرحة:

bien sûr Shola.. ça nous fait tellement plaisir..

كان اليوم الأوّل الذي قضت فيه راشيل ليلتها معنا. لم يشأ عاموس وشولا أن يصحباها معهما إلى مراكش، نظرًا لطول المسافة، ولعدم اطمئنانهما على الوضع العامّ.

الاثنين ١٧ يوليو ١٩٦٧.

سافر الزوجان يوم السبت إلى مراكش. لكن أخبارهما انقطعت. لم يتّصلا بالهاتف ليلة السبت وطيلة ليلة الأحد. بكت راشيل كثيرًا عندما افتقدتهما. ورغم أنّ صوفي حاولت بكلّ الحنان الأمومي أن تنسيها كلّ شيء، إلّا أنّ الطفلة أصيبت برعب الغياب.

الساعة العاشرة صباحًا. الهاتف يرنّ. صوفي تجيب. فجأة تسقط السمّاعة من يديها وتتهاوى على الأرض. أسرعتُ نحوها وأنا أسمع صوتًا على الهاتف: آلو.. آلو.. من فضلك سيّدتي.. نحن درك مراكش.. أجبتهم مرعوبًا: نعم.. نعم.. أنا معكم.. أنا زوج

Twitter: @ketab_n

السيّدة.. ما الذي حدث..؟

ـ سيّدي يؤسفنا أن نخبرك أنّ السيّد عاموس إفرايم وزوجته شولا كوهن قد تعرّضا لحادثة سير.. وقد لقيا حتفهما.. نحن فتّشنا في شنطة السيّدة، وبالصدفة عثرنا على هذا الرقم الهاتفي.. هل أنتما من العائلة..؟ نحتاجكما لمعاينة الجثّتين واستكمال المحضر..

لم أصدّق. تمالكت نفسي، ووجدت بعض الشجاعة لكي أجيب: نعم نحن من العائلة.. سأحضر إلى مراكش بعد ساعات..

تركت صوفي وحدها مع راشيل وأوصيت الخدم بهما. سافرت إلى مراكش، وعاينت الحادثة على الطريق الوطني بين بنكرير ومراكش. كانت سيّارتهما السيمكا الصغيرة محطّمة عن آخرها بعد اصطدامها بشاحنة لنقل موادّ البناء. قادني الدرك إلى مستودع الأموات وعاينت الجثّتين. أكّدت في إفادتي أنّهما لعاموس إيفرايم وشولا كوهن، مغربيين من الطائفة اليهوديّة. اتّصلوا بيهود الرباط من أجل استلام الجثمانين ودفنهما في مقابر اليهود على الطريقة الموسويّة. لكن لا أحد من الطائفة تكلّم عن البنت، وخانتني الشجاعة لكي أبوح بسرّ وجودها عندنا. لم يكن سليم بنيس يصدّق ما يقرأ. في كلّ مرّة، كان يطرح السؤال نفسه: هل حقًّا قرأتِ المذكّرات؟ وفي كلّ مرّة، كنت أردّد اللازمة نفسها: من زمان.. ويحتار السؤال على شفتيه: هل يعني كاميليا أنّك أنت هي..؟! لكنّي لا أجيب. أسمع شهقات الطفلة التي أفجعها فجأة شيء اسمه الغياب، وهي تحاول أن تتحسّس العالم بقدميها الهشّتين.

الثلاثاء ١٨ يوليو ١٩٦٧.

عدت مساء الأمس من مراكش. كلّ شيء كان فاجعًا ومروّعًا.

Twitter: @ketab_n

الفرح الذي منحنا عاموس وشولا بشكل مفاجئ، انقلب إلى تراجيديا صاعقة. مات زوجان في مقتبل عمرهما، لكن ابنتهما معنا، وليس بيننا غير صداقة نبتت كالفطر في مقهى صامت. صوفي أمّ مجهضة وأنا أب عقيم، وراشيل تزرع حياة جديدة في الڤيلّا التي لم تشهد صرخة مولود. عندما استعادت صوفي توازنها واستفاقت من الصدمة، قلت لها: سنسلّم الطفلة للسلطات.. انتفضت مثل ذئبة جريحة: لا.. لا.. لن نسلّمها.. لا أحد طالب بها حتى من الطائفة.. لا أحد يعلم بوجودها.. قدر هذه الطفلة أن تكون ابنتي التي حُرمت منها.

بقيت صامتًا للحظات، ثم قلت: سأرى ما ستقوله الأيّام فيما بعد.

الخميس ٢٠ يوليو ١٩٦٧.

لم أخبر صوفي بشيء. تذكّرت فجأة صديقًا قديمًا لي يشتغل وكيلَ دولة بمحكمة الاستئناف بالرباط. لم نلتقِ من سنتين. قصدته مباشرة، وحكيت له تفاصيل القضيّة. نصحني بالتبنّي، وأملى عليّ الخطوات القانونيّة والرسميّة التي يجب عليّ اتّباعها للحصول على إذن بالتبنّي. قلت له: لا أريد لهذه الطفلة أن تعرف أصلها اليهودي نهائيًا، وأريد أن أغيّر اسمها. قال لي: هذه أمور متروكة لاختياراتك أنت وزوجتك..

الاثنين ٢٤ يوليو ١٩٦٧.

أخيرًا، أصبحت لدينا بنت. اتّفقت مع صوفي على تسميتها كاميليا. منحناها اسمنا وعقيدتنا وتاريخنا المقدّس. في اللحظة التي أحضرت فيها الأوراق الرسميّة، تغيّرت حياتنا تمامًا. أصبحنا أبوين، وأصبح لنا بنت تمثّل كلّ الدلالات الوجوديّة التي سنعيش من أجلها.

Twitter: @ketab_n

كاميليا قادر هي كلّ العالم مختصرًا في قدمين يتدرّبان على لعبة المشي في حياة جديدة هي حياتنا نحن.

قلت لسليم بنيس:

ـ ما لا تعرفه دكتور بنيس هو أنّني لم أقرأ المذكّرات فقط، بل طالبت بمعرفة قبر والديَّ الحقيقيين..

ـ وماذا قال والدك؟

ـ قال بابا: أنا لا أعرف قبريهما.. ولكن لماذا تصرّين على ذلك..؟

ـ أريد أن أحرقهما كما أحرق أيّة ذاكرة موبوءة..

ـ هذه لغة إجراميّة كاميليا.. إنهما والداك الحقيقيّان..

ظلّ الطبيب صامتًا. كان ينتظر أن يمتدّ الشرخ أعمق فأعمق داخل خباياي الغامضة.

ـ انتفضت في وجه بابا وماما.. لا.. لا.. أنا لست يهوديّة.. أنا كاميليا ولست راشيل.. أنتما خلقتما وهمًا وصدّقتماه.. هل تريدان الانتقام منّي لحملي غير الشرعي من إزرا حاييم..؟ أنتما مجرمان.. مجرمان.. سأحرقكما..

ـ قولي كاميليا.. هل أحرقت والديك: قادر وصوفي..؟

لحظتها استفقت من الاستبطان الفرويدي. شيء ما أعادني إلى صلابة الواقع. سوّيت شعري وملابسي، وغادرت العيادة من دون أن أصافح طبيبي.

وحدي كنت. في الوحدة يصبح العالم مخيفًا. تنتصب الذاكرة مثل مشنقة تترصّد خطواتك لحظة بلحظة. كيف حدث أن انقلبت

Twitter: @ketab_n

فجأة..؟ كنت أدافع عن اليهودي عندما كان اليهودي هو إزرا حاييم.. عندما كان هو الآخر المختلف عنّي.. لكن عندما اكتشفت أنّني يهوديّة رفضت جسدي الخاصّ، واختبأت في أفظع جسد أصولي ينكر على الآخر حقّه في الوجود والاختلاف.

تتلاحق صفحات المخطوط أمامي.. تتقافز التواريخ من بداية التبنّي في الستّينيّات إلى بداياتي المدرسيّة في السبعينيّات، إلى سنوات الانخراط في التقاليد الحداثيّة والتنويريّة الغربيّة في البعثة الفرنسيّة، إلى أزمة العلاقة والحمل غير الشرعي من إزرا حاييم.

السبت ٢٩ يوليو ١٩٦٧.

أيّة لعنة وأيّ قدر ماكر..؟ من كلّ الأعراق التي تدرس بالبعثة الفرنسيّة، لم تجد كاميليا غير إزرا اليهودي لكي ترتبط به بعلاقة حبّ انتهت بحمل غير شرعي..؟ وأنا نبيل قادر، المثقّف الجامعي الذي لا تربطه بالبلد غير رمال صفراء، تهبّ من الجنوب القفر ساعة تخلد الذاكرة للنسيان.. هل أنت خائف من حمل ابنتك أم من شيء آخر..؟ لطالما أقنعت نفسك بأنّ الحداثة تمرّ أوّلاً بتحرير الجسد من كلّ رؤية شرعيّة أو موقف تقليديّ. كنت دائمًا تقول للآخرين يمكننا أن نكون حداثيين على مستوى الفكر المجرّد، لكنّ السلوك الفعلي المتجلّي من خلال الفعل المادّي المرئي والصريح، هو ما يتجلّى من خلال الجسد. إمّا أن يعكس الجسد وهج الشمس، وإمّا أن يخزّن كثبان الرمال المتحرّكة في الصحراء!! لم أغضب، لأنّي اكتشفت أنّ كاميليا مرتبطة بإزرا وتحمل جنينه، بل لأنّ القدر سفّهَ جسدي. فجأة، وبشكل صاعق، انفجرت كلّ أعاصير الرمال والموروثات المقدّدة في حواسّي وجلدي. أغلقت النوافذ على الأصل اليهودي لابنتي، فحطّمت رياح القدر بوّابة الحقيقة. لست غاضبًا من حمل ابنتي، بل

Twitter: @ketab_n

غاضب لأنّ ابنها سيكون يهوديًا خالصًا، ما دامت العرقيّة اليهوديّة تأتي أوّلاً عبر الأمّ. سأكون جدًّا مسلمًا لحفيد يهودي خالص.

انتفض سليم بنيس فجأة في وجه كاميليا. كانت ممدّدة على الأريكة، وهو يقلّب صفحات المخطوط بعصبيّة واضحة. لأوّل مرّة، لم تسمع كاميليا بيانو شوبان. لم يصلها احتراق أصابعه عبر العزف:

ـ اسمعي كاميليا.. لم يعد الأمر محتملاً.. أخبريني الحقيقة.. هل النيران المرسومة في لوحتك تعكس حريقًا حقيقيًّا..؟

لم تقل كاميليا شيئًا.. حين طرقت باب شقّة إزرا حاييم ببلاس بيتري، لم تسمع ردًّا. قال لها البوّاب بلهجة غير محايدة: تسألين عن اليهودي.. لقد سافر منذ يومين إلى فرنسا..

ـ لست يهوديّة.. لست يهوديّة.. هل تفهم..؟ لست يهوديّة..

صرختُ في وجه بابا. وحدها ماما تخلّت عن كبريائها الرباطي، وانخرطت في بكاء صارخ مثل أيّة قرويّة في بادية مغربيّة.

ـ للأسف.. هذه هي الحقيقة.. لكم أحببنا والديك أنا والماما.. آه يا عاموس.. آه يا شولا..! هل يكفي الحبّ لكي نقبل الآخر كشخص عاديّ مثلنا تمامًا..؟ أخجل من نفسي ولكن..!

كان بابا يحدّثني في الصالة الفسيحة مكسورًا كأيّ ملك مخلوع يستعدّ في لحظاته الأخيرة للنفي أو للموت..

ـ آه كاميليا.. أنتِ يهوديّة خالصة ومغربيّة خالصة.. وهذا يعني أنّك لستِ لا يهوديّة ولا مغربيّة..

توقّف سليم بنيس عن التحديق عبر النافذة. تقدّم منّي. مسح على لحيته الفرويديّة، وتكلّم بصوت خفيض:

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا يعني ذلك على أرض الواقع كاميليا..؟!

قبل أن يقوم بابا بخطوات تراجيديّة حاسمة، طوّقني بذراعيه الرقيقتين. ماما كانت تترقّب ردّ فعلي:

ـ اسمعي كاميليا.. لقد كتبت الڤيلّا باسمك على سبيل البيع والشراء.. إنّها الآن ملكك القانوني مثل أيّ مشترٍ عاديّ..

وقبل أن يكمل كلامه، قلت له بشكل مستفزّ: وبعد ذلك سيّد قادر..؟ خفض بابا بصره. لم يجرؤ على النظر إليّ. ماما كانت تنتحب كأنّما تستبق ثكلاً ما.

ـ سأسافر أنا وصوفي إلى فرنسا... لأوّل مرّة لم يقل ماما. نطق اسمها أمامي كما لو كنت شخصًا من خارج العائلة.

ـ أعرف أنّكما ستسافران.. لكن قبل السفر..؟!

غالب بابا دمعتين حائرتين. حاول استجماع قوّته: سامحني عاموس.. سامحيني شولا.. لم أستطع تحمّل دمكما الصريح في أوردة راشيل.. لم تعودي كاميليا قادر بعد الآن... لقد أسقطت عنك أبوّتي.. صعدت الأدراج في اتّجاه غرفتي. توقّفت في منتصف الصعود. التفتُّ إليهما:

ـ ولم أكن راشيل إفرايم في يوم من الأيّام..

حاول سليم بنيس أن يشعل غليونه المنطفئ من جديد. كان مخطوط المذكّرات يتفحّم في محرقة غامضة.

Twitter: @ketab_n

ـ ١٦ ـ

كأنّ شيئًا لم يحدث. تابعنا حياتنا بشكل عادي في الإعداديّة. مارسنا شغبنا كما نريد. لم يكن لغيابه أيّ وقع تراجيدي. فقط ذهب مدرِّس وجاء مدرِّس. كان حليم تيهان هنا يومًا وغاب، وكلّ بعيد عن العين بعيد عن القلب، كما يقول مثلنا المغربي. بعد فترة قليلة أدلت أمّي بشهادة طبّيّة طويلة الأمد، برَّرت بها عدم احتساب السنة الدراسيّة بالنسبة لي. لم يكن لغيابي سوى مبرّر واحد: لن أسمح لأحد أن يرى بطني المنتفخ، وأن يهينني بخطابه الأخلاقي السخيف. اعتزلت في البيت وحيدة مع حركات جنيني في الرحم. كنت في شبه قطيعة مع أمّي. لا تجمعنا سوى لحظات قليلة حول المائدة، نتبادل كلمات متكلّفة، وتعود كلّ واحدة منّا إلى عالمها الخاصّ.

كان وجهها أموميًّا في تجاعيده القرويّة الأصيلة. امرأة لم تتجاوز عقدها الخامس. عيناها مليئتان بالأشجار وأحراش الشاوية، ويداها قويّتان كحصان عربة. من غرفتي سمعت لكنتها الخشنة مثل صخور الفيافي الممتدّة على طول السهل الوسيط بين الشمال والجنوب. لم

Twitter: @ketab_n

تكن تتكلّم. كانت تنشج. كانت تبكي في شهقات متقطّعة. دفعني الفضول لأعرف ما الذي يحدث. عندما فتحت غرفتي، وجدت أمّي مطرقة برأسها في الأرض. كانت في موقف حرج أمام المرأة البدويّة. سألت: ما الذي يحدث، أمّي..؟ من هذه المرأة..؟ ماذا تفعل في بيتنا..؟

تأمّلتني المرأة من خلال دموعها. كانت تراني لأوّل مرّة. كنت في مرمى بصرها المنتحِب. بالكاد سمعت أمّي تقول: هذه هي.. ابنتي سامية..

تنهّدت المرأة ومسحت أنفها في ثيابها القرويّة. قالت: لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.. يا ربّي.. أنت العاطي والشافي.. وإحنا عبيد تحتك..

لم أفهم. لكنّ المرأة التي لم تتوقّف عن البكاء، انتبهت فجأة إلى بطني المنتفخ. نهضت واقتربت منّي: واش انتِ راضية دابا..؟! أجبتها: ما فهمتش..؟ جاء صوت أمّي: هذي عايشة المزابيّة.. أمّ.. أمّ.. ولم تستطع أن تكمل. أكملت المرأة: أم حليم.. عارفاه ياك...؟

ساد الصمت بيننا. أعادت المرأة طرح سؤالها: واش انتِ راضية دابا..؟ قلت: راضية.. علاش..؟ ازداد بكاء المرأة. انهارت فوق البونجة على السرير الخشبي: ما خرجت من الدنيا غا بولد واحد. مات أباه وخلّاه ف الكرش.. كبر يتيم.. لاكان (لكن) ما خلّيت تا حاجة تنقصو.. خدمت وتقاتلت وشقيت وعرّضت راسي للّي يسوا وما يسواش باش نكسيه ونوكلو ونقرّيه.. ف كلّ مرّة كان تيشري كتاب أو تينجح كنت تنتولد من جديد وأنا شايفة الفرحة ف عينيه. كان تيشري

Twitter: @ketab_n

القصص ويقرا عليّ ويشرح لي ويعنكني ويذوب في جلايلي بحال شي درِّي صغير..

هل كنت أصغي..؟ لا أعتقد. كنت فوق الإحساس بالذنب واتّهام الذات. كنت مراهقة تقدح نار الحياة لتحرق من يوجد حولها.. يوم نجح ف امتحان الأساتذة وتعيّن في دار بيضا ما سعتني فرحة.. كال لي صبري عليّ اميمتي عام واحد نبدا نتخلّص ونجيبك تسكني معايا هنا في لمدينة. باركة من الأرض والشقا والزلط.. غدا تشوفي أيّام أخرى ما عمرك شفتيها..

صرخت في وجهها مثل لبؤة شرِّيرة: وأنا مالي.. علاش تتعاودي لي زبورك..؟ كنت أقرأ الخجل في وجه أمّي، فيزداد شرِّي وعدوانيَّتي. أنا فقط دخلت لعبة مراهقة، قايضت فيها لحظاتٍ من عمري بجسد مدرِّس شابّ. كنت أعتقد أنّه يملك حكمة الشرق وأسرار الشوق وشعلة الكلمات. لكنّي لم أحرق فقط منزل عدوِّي، بل أحرقت الحيّ بأكمله. نهضت أمّي من سريرها. أمسكت المرأة في حنوٍّ ورفق. حاولت مسح دموعها، لكنّ المرأة امتنعت: هاذا اللي بقا لي.. عا سايرا ونبكي..! واش بيدي..؟؟

ـ الرحمة ف الله آ لالة المزابية.. هو قاد (قادر) على كلّ شي.. اللي عطى المرض يعطي الصحّة.. واللي عطى لحماق يعطي لعقل.. الرجوع لله آ لالة..

بقيت متسمّرة في مكاني. واقفة في منتصف العاصفة، أبحث عن نقطة تدلّ على اتّجاه الرّيح لأخطّط لما يجب أن أفعل. وخُيِّل لي أنّي أسمع أمّي تخاطبني: واش عارفة الأستاذ حليم مرمي في سبيطار الحمّاق في برشيد..؟

Twitter: @ketab_n

كأنّني لم أستوعب. لكن أمّي كانت أكثر من الوضوح: شفتِ صلابتك وعنادك آش دارو..؟ لمرة ما عندها غا هو شدّتيه أنت ووصّلتيه لسبيطار العقليّة.. إيوا دابا راضية آلالة سامية؟!

حليم في مصحّ المجانين. هل «قذف» بنفسه بهذه السرعة في عالم الجنون؟ تساءلت. وكأنّ المرأة قرأت ما يجول بخاطري: وصّلتيه للحماق.. ذلّيتيه.. كسرتيه.. حرّشتِ عليه أصحابك ف القسم.. خرّجتو عليه النكاتي والقصص.. ردّيتوه خرقة مرمدة.. لا كان شوفي ف عيني عادا (وبعد ذلك) جاوبيني.. شوفي مزيان.. آش بقا لي ف الدنيا..؟ والو.. لاكان ما غنفرطش ف ولد ولدي..

وكأنّني صُعقت: آش كتخرّفي..؟ نشبت عينيها في عينيّ: هذا اللي ف كرشك ولد ولدي.. وما غنخليهش ليك..

قفزت نحوها في اندفاعة شرسة: شكون كال ليك هذا ولد ولدك..؟ إحنا ما دابرين كاغيط..

دفعتها بكلّ ما أوتيت من عدوانيّة نحو الباب، وطردتها. لم تستطع أمّي أن تفعل شيئًا. نظرت نبيلة في عيني. كان سؤالها مباغتًا مثل بركان ظلّ خامدًا لقرون طويلة وثار دون سابق إنذار: سامية.. هل تعتقدين أنّ جدّتي ما تزال حيّة..؟! ارتعدت أعماقي: عمّن تتحدّثين..؟ وبكلّ خبث المراهقات ردّت: طبعًا أتحدّث عن أمّ بابا.. أكيد أنّني لست لقيطة.. لي أب.. وأبي له عائلة..

أطرقت برأسي. لم أجد جوابًا.

في الممرّ الطويل الممتدّ من غرفة الاستقبال إلى حجرات المرضى، كنت أحاول أن أجد نقطة توازن للخطوات التي سأقدم عليها. لمَ جئتُ؟ عن أيّ معنى أبحث؟ ما الصورة التي أنتظرها عندما

Twitter: @ketab_n

أرى حليم تيهان..؟ طردت والدة والد جنيني. أنكرت عليها دم النطفة التي تنمو في أحشائي. كنت مراهقة بذيئة، وكلّ ذنب حليم أنّه قال لي إنّ أنوثتي كاسحة، أنا التي تربّيت بين الغلمان في الحواري، ولم ألتفت إلى نهديَّ وهما ينفران فوق صدري كسنجابين مرتعشين. مشهد «الحمقى» و«المجانين»، كان فوق طاقتي على التخيّل. أغمضت عينيّ عن تشوُّهات العالم الذي رفض أن يوسّع منظومته خارج الكوجيطو الديكارتي. قادتني ممرّضة شابّة نحو غرفة حليم. الغرف كانت زنازن موبوءة وكامدة الألوان. كانت الحياة «معلَّقة الحكم» في كلّ فضاءات المصحّ، وكان الرقيب العقلي الوحيد هو منظر الممرّضين ضخامِ الجثث وهم «يصرعون» المرضى بكلّ أنواع العنف الجسدي المفرط، وبكلّ أشكال الحقن الكبيرة المُعَدّة في الأصل لحقن الحمير والبغال والأحصنة.

ـ أنتِ لم تَصفي لي حتى ملامح بابا.. هل كان وسيمًا.. طويلاً.. نحيفًا.. جذّابًا.. «مهضومًا» كما يقول سكّان بيروت..؟ تسألني نبيلة التي بدأت أسئلتها تستيقظ فجأة عندما اكتشفت بؤس صورتها الطفوليّة المعلّقة في الحائط. أخيرًا وقفنا أمام «الزنزانة». في يدي ورد أحمر كما يليق بأنثى رقيقة ومتحضّرة، وفي محفظتي الصغيرة، كنت أحمل ديوان «أغاني الحياة» لأبي القاسم الشابي. أذكر كم كان الأستاذ حليم يحبّ هذا الشاعر، ويحاول أن يوصل إلينا شعلة الحياة الملتهبة في أشعاره. فتحت الممرّضة الباب، وطلبت منّي ألّا أدخل إلّا بعد أن تأذن لي. كان قابعًا في زاوية الغرفة، بدون شمس ولا دفء ولا اشتعال للكلام. كان غارقًا في أعماقه من خلال وضعيّة جسده. رأسه متكوّر ومنكفئ على الصدر، والجذع بأكمله متدلٍّ على الركبتين، ويداه متصالبتان في بحث شاقّ عن مجهول لن يأتي. لم أَرَ

Twitter: @ketab_n

قدميه. كانت مسوحه فضفاضة ومتدلّية بشكل غطّى القدمين معًا، لكنّ الركبتين كانتا متلاصقتين. لم يكن ما يرتديه ثيابًا. كان شبه ملابسَ حائلة، ممزّقة وبلا لون. نادته الممرّضة بشكل متأدّب بدا مصطنعًا ومتكلّفًا احترامًا لـ «عقلي» أنا فقط: سيّد حليم.. لديك زوّار.. لم يرفع رأسه. لم يسمع شيئًا. أعادت الممرّضة النداء، ثم صرخت: حليم.. حليم.. نوض (انهض) جاوْك ضيّاف.. في غبش الضباب الذي يلفّ مناطق الحدود بين العقل واللاعقل، كان رأسه يتحرّك من مكانه، وكان جسده يحاول أن يستوعب دلالة الصوت الذي يخاطبه. كان الراهب يدهشني بعوالمه الروائيّة. وحين أرتمي فوق صدره العاري إلّا من البذاءات، كنت أقول له: إنّك تحكي مثل أحمق وتكتب مثل شاذّ جنسيّ.. كانت أحلام تضحك وهي تعقّب على كلامي: بقي أن تقولي له: وتعترف مثل سفّاح مأجور.. وحدها كاميليا، كانت تمتلك الحسّ السليم لكي تقول: لأنّه يكتب مثل روائي حقيقيّ يضع فنّه فوق كلّ مبدأ أخلاقي.. أجمل ما في الراهب هو أنّه قتل صوت الفقيه في أعماقه.. أنا لا أكتب أيّها السفلة، يُجيب الراهب على طريقته المستفزّة. أنا أضاجع.. بدون استبطان للذّة الجنسيّة لا يمكن أن نكون مبدعين حقيقيين.. والأوْلى أن نتخلّى عن أقلامنا ونبيع المواعظ في الأسواق.. خلف كلّ كتاب حكاية.. ماض.. طفولة.. تاريخ.. لا يعود الكتاب ملك صاحبه.. يصبح مشاعًا للمتلقّي. لم تكن روايات الراهب قصصًا متخيّلة. كانت زنازين لمرضى موبوئين.. لحثالة منبوذين. كان حليم تيهان هناك، وكنت أرى استجابة جسده الباطن لصوت الممرّضة. صفّقت الممرّضة بيديها وطلبت منّي الدخول، وبقيتْ على مرمى خطوات منّا. كانت مستنفَرَة إلى أقصى الحدود خوفًا على «عقلي» من «جنونه»، وخوفًا على «جسدي» من

Twitter: @ketab_n

«حطامه». حين استفاق، لم يحرّك نظره في الجوار. لم يأخذه الفضول لاستكشاف مجهول ما. ظلّت عيناه محايدتين. صعقني وجهه. لم يكن مخيفًا، رغم لحيته الكهوفيّة. كان في عينيه غموض ما لا يليق بالحمقى. تذكّرت الممرّضة البوليڤيّة التي قالت، وهي تتأمّل وجه تشي غيفارا عندما قُتل في غابات بوليڤيا الرهيبة: «آه يا إلٰهي.. إنّه يشبه يسوع المسيح..!». كان جسد التشي متعفّنًا ومتّسخًا، وكانت لحيته تبعث على القيء والقرف، ومع ذلك لم تر فيه تلك الممرّضة سوى وجه الألوهيّة المسيحيّة، وهي تعرف أنّه شيوعي ملحد!

ـ حليم.. لديك ضيوف.. هذه السيّدة سامية حوران من الدار البيضاء.. وضعتُ باقة الورد قربه على السرير، وحاولت أن أجلس بجانبه. نهرتني الممرّضة بشدّة: لا.. لا.. ابقي على مسافة منه.. لا نعرف ردّة فعله!

تجاهلتها تمامًا، وجلست قربه. شممت رائحته النتنة. رائحة جسد عطنة. رائحة ثياب التصقت بعرق جسد مريض من مدّة طويلة. رائحة جدائله المقرفة التي تشبه رائحة شواظ شَعر في طقس سحريّ لعين. في كلّ «الزنزانة»، لم يكن هناك ما يدلّ على نظافة جسد يستحقّ الحياة وإن خانته سلامة «العقل». ومع ذلك لم أشمئزّ. وضعت الورد بين يديه. أخذت وردة ومرّرتها تحت أنفه لعلّ الطبيعة تحقّق معجزة إيقاظ الحواسّ. بقيت الممرّضة الشابّة متحفّزة في مكانها، ومستعدّة لأيّ «تدخّل سريع». حليم.. حليم.. لطالما أحببت الورد.. لطالما جعلتنا نشمّه في كلّ حصّة.. في كلّ قطعة شِعر، كنتَ تدفعنا نحو تحسّس الحياة: رائحة وردة.. رائحة خبز بلدي.. صوت أمطار.. ألوان طيف متشابكة.. همهمات أشخاص عائدين في المساء إلى بيوتهم.. شهوات عاشقة تنتظر انفتاح شبّاك يمطر رسائلَ حبّ من

Twitter: @ketab_n

عاشق غامض.. تحسّستُ قطرات تنزل فوق يدي. رأيت وجهه. كنت أبكي في صمت. أحسّت الممرّضة بجلال اللحظة الحميمة، فتركتنا وابتعدت قليلاً خارج الغرفة. فتحت حقيبتي الصغيرة. أخرجت ديوان الشابي. وبحركة لاإراديّة، انفتح الكتاب على قصيدة «صلوات في هيكل الحبّ». قرأت بصوت خفيض. قرأت بإحساس من يحبّ الحياة وهو يعلم أنّه مقبل على الموت خلال دقائق معدودة. لأوّل مرّة أحسّ أنّ الشِعر هو انتصار الإنسان على حتميّة الموت. لم تكن القصيدة مجرّد تعابير لغويّة. كانت انفجارًا للحياة في أعمق نقطة ضاربة في جذور الإنسانيّة. أحسست يديه ترتعشان، لكنّ عينيه لم تبوحا بشيء. ظلّتا شاردتين ومعلّقتين بين ظلام «الجنون» وفظاعة «العقل». تلك الحركة المجاملة التي أردت من ورائها أن أثبت لنفسي أنّي ما زلت على قيد الإنسانيّة، عندما اشتريت وردًا وكتابًا. تلك الحركة التي تجعلني الآن أبعث شاعرًا، مات شابًّا، من موته، في زنزانة موبوءة ليكون باكتيريا لحياة تأبى على الانقراض. حتى الممرّضة الشابّة لم تعد تنصت بشكل محايد. رأيت في عينيها حيرة مطر يتجمّع لكي يهطل في سفح بعيد. كان صوتي مناحة وجوديّة تحرس الفرح من عبث مراهِقةٍ أحرقتها لعبة العناد الأخرق:

عذبةٌ أنتِ كالطفولة، كالأحلام كاللحن، كالصباح الجديدِ
كالسماء الضحوك، كالليلة القمراء كالورد، كابتسام الوليدِ..

حين أحسست بارتعاشة يديه، كنت أودّ أن أضعهما فوق بطني، ليرى «ابتسام الوليد». كنت أريد أن أقول له: هو طفلك يا حليم.. طفل الخطيئة الجميلة التي قادتك إلى ليل الجنون، وقادتني إلى فقدان رقّتي الأنثويّة. لكنّني لم أستطع. لم يكن حليم شابًّا فقط، ووحيدَ أمّه فقط. كان إنسانًا تشتعل أمامه الحياة بألف فرح وصخب، فنسفتُ بهاءَ

Twitter: @ketab_n

عينيه وصحو عقله من أجل كلمة شاردة لم تكن مسدّسًا ولا لغمًا ولا احتقارًا للكرامة. فقط كان جسدي محرقة نازيّة لم تحتمل أن يكون للآخرين كلامهم الخاصّ في التعبير عن الوجود. ربّما في هذه اللحظة القاتمة، ولدت في داخلي إشراقة ما. في أعماقي، كان **الشابي** فارسًا من طروادة أدخل الحصان الخشبي إلى قلعته، فكانت نهايته. كان الشعر هو الحصان الخشبي، وكان الشاعر هو طروادة التي ماتت واحترقت لكي تبلغ ذروة المجد وتتربّع على عرش التراجيديا. وكان التاريخ ماكرًا حين جعل آشيل، بطلَ الأبطال، يموت بطريقة مهينة، فقط لأنّ رمحا اخترق كعبه الذي لم تعمِّده الآلهة بالخلود:

أنتِ.. ما أنتِ؟ أنت رسم جميل　　عبقريّ من فنّ هذا الوجودِ

فيك ما فيه من غموض وعمق　　وجمال مقدّس معبودِ

أنتِ.. ما أنت؟ أنت فجر من السحر　　تجلّى لقلبيَ المعمودِ

فأراه الحياةَ في مونِق الحسن　　وجلَّى له خفايا الخلودِ..

خُيِّلَ إليّ في تلك اللحظة أنّ نبيلة تبكي في أحشائي. كان بكاؤها واضحًا ومسموعًا ومتقطّعًا. انتبهت. بقربي نبيلة نائمة تبكي فعلاً. ربّما كانت تحلم. ربّما سافرت عبر حكيي، واخترقت الزنزانة لكي تقفز فوق العصور. رفعت عينيّ وحدّقت في وجهه جيّدًا. آه.. كان جميلاً في ذهوله الجنوني. كان يشبه زعيمًا مهزومًا يفضّل مجد النهاية على مهانة الأسر. أمسكت بيديه ولمستهما برفق. كان حُنوّي صادقًا حين رأيت عينيه تتحوّلان شيئًا فشيئًا نحوي. بدأ يراني. كان في نظراته تركيز «رجل عاقل» يعبِّر عن الفكرة بملامح وجهه والتماعات عينيه. وانثال صوتي مخمليًّا. لم أكن أقرأ الشابي. كنت أقرأ ذاتي. كان شعري الذي سيولد بعد سنوات:

Twitter: @ketab_n

كلّما أبصرتْكِ عيناي تمشين بخطوٍ موقَّعٍ كالنشيدِ
خفق القلب للحياة، ورفَّ الزهر في حقل عمريَ المجرودِ
وانتشتْ روحي الكئيبة بالحبّ وغنّتْ كالبلبل الغرِّيدِ..

فيما بعد، قال لي ميلاد: غريب سامية.. أنت تكتبين بأجنحة فراشة وصهيل حصان.. تدخّل الراهب بطريقته المستفزّة البذيئة: إذن يا عزيزي عليك أن تحرق جناح الفراشة وأن تحذر «الذي» ينتصب عند صهيل الحصان..! قلت له: عليك اللعنة أيّها الخبيث.. أنا أنثى حقيقيّة من رغبة وعناد.. أنت لا تعرف شيئًا عن حرائقي..!! وعلى البديهة أجابني الراهب، وكأنّه يقرأ أسفار عوالمي الداخليّة:

كلّ شيء موقَّع فيكِ، حتى لفتة الجيد واهتزاز النهودِ

قفزت من مكاني، وصفعته على وجهه بحرقة أنثى راغبة: أيّها الخبيث.. من أخبرك أنّني تربّيت على أشعار الشابي..؟ تحسّس الراهب خدّه، وابتسم في هدوء ساخر: مؤخّرتك التي لا تتوقّف عن الكوابيس كلّما جمعنا سرير واحد..

- ملعون دينك يا ابن الـ...

حين غادرت المصحّ، تركت حليم وقد عاد إلى وضعه الجسدي الذي رأيته عليه عندما دخلت «زنزانته». قوّس كتفيه وأدخل رأسه بينهما، ثم انكفأ بجذعه على أسفل جسده. بحركة من الممرّضة، عرفت أنّ مدّة الزيارة قد انتهت.

عندما عدت إلى المنزل، لم أقل لأمّي الحائرة أيّ شيء. استبطنت آخر بيت كنت أودّ أن أقرأه لحليم، لكنّه لم يسمعه:

أنتِ.. أنت الحياة كلَّ أوانٍ في رواء من الشباب الجديدِ..

Twitter: @ketab_n

عندما جاءني خبره، كنت قد صحوت من أجل الحياة. لم أكن راضية، ولم أكن منتشية. كنت أغادر المصحّ العقلي ببطن منتفخ فارغة اليدين. تركت باقة الورد وديوان الشابي في «زنزانة» حليم. لم أصدّق ما جنته يداي. ما اقترفته أنوثتي الرجيمة. كيف أرسلت خطيبًا للحياة إلى الدرْك السفلي للموت والجنون، ولم أربح من حربي الأثيمة سوى جنين مزروع في الأحشاء سيأتي إلى العالم دون هويّة..؟ تحايلت حتى على حقيقة ابنتي نبيلة. سجّلتها في رسم الحالة المدنيّة باسم عائلتي على أنّها ابنة أبي وأمّي، ممّا يعني رسميًّا أنّني أختها فقط. لم أعرف ما الحيل والمناورات التي قامت بها أمّي لدى شيخ الحومة ومقدّمه والممرّضة القابلة بالمشفى الصغير بحيّنا. كلّ ما أعرفه هو أنّ المخاض فاجأني بعد زيارتي لحليم بأيّام قليلة. وضعت نبيلة وأنا لا أعرف شيئًا عن الرسميّات والأوراق الثبوتيّة، وقُيِّد الاسم في رسم الحالة المدنيّة وما يتطلّبه ذلك من إجراءات دقيقة. كبرت أمًّا وأختًا لنبيلة، مثلما كانت والدتي أمًّا وجدّة لها في الوقت نفسه.

جاءني خبره وأنا على بعد أيّام من الولادة. سمعت صوتًا يناديني خلف باب منزلنا. فتحت. كانت الممرّضة الشابّة. لم نجد أيّ اسم أو عنوان يدلّ على عائلة حليم تيهان. بحثنا جيّدًا. كان نكرة وبلا صفة. الذين أوصلوه إلى المصحّ قالوا كلمة مقتضبة: حليم تيهان.. مدرِّس لغة عربيّة أُصيب بالجنون..! كانت الممرِّضة تحكي لي. ولولا زيارتك الأخيرة لما عثرنا على أحد. وجدنا اسمك في دفتر الزيارات. وأخذني الفضول لأفتح الديوان الذي تركتِهِ له في الغرفة. كان الإهداء بخطّ أنثوي مرتعش في الصفحة الأولى: أيّها الموت لن تكون أفظع من أنوثتي.. هل يكفي الاعتذار لأقول لك فقط: سامحني أيّها الحليم التائه! سامية حوران، ٠٩ ـ ١٢ ـ ١٩٨٥ / الدار البيضاء.. أعتقد أنّ

Twitter: @ketab_n

زيارتك بقدر ما أحيته، حكمت عليه بالموت، وبقدر ما ردّت له عقله، ضاعفت جنونه. لم أره في مثل تلك الإشراقة من قبل. منذ جاؤوا به، لم يأتِ أحد لزيارته سوى امرأة بدويّة عرفنا أنّها أمّه. لم يتحمّل رؤيتها وظلّ يصرخ ويصرخ ويتلوّى ويخبط رأسه على الحيطان، حتى أخرجناها، فعاد إليه هدوؤه. طلب منها الطبيب الرئيسي ألّا تأتي لزيارته، على الأقلّ في هذه الشهور الأولى الحرجة. لكنّها لم تعد أبدًا. رأيت حريق الموت يلتهم خلاياها. عندما جئتِ وقرأتِ له تلك الأشعار، أحسستُ بشيء ما. أخبرت الطبيب المشرف على حالته المَرضيّة. جاء وعاين الحالة. أحسّ بارتعاشة يديه والتماعة عينيه. كان يصارع للخروج من سراديب الخرس التي سجن نفسه فيها. أخبرت الطبيب بالكتاب وبالأشعار التي قرأتِها. هو نفسه أخذه الفضول لأخذ الديوان. قال معلّقًا: آه.. ديوان «أغاني الحياة» لأبي القاسم الشابي.. رائع.. لكأنّني عندما أذكره، أذكر الفجر والصبح والجبال والحياة الناعسة، والنسر الذي يعيش رغم الداء والأعداء فوق القمّة الشمّاء.. فحصه الطبيب جيّدًا. حاول أن يكلّمه. لم تكن تجيبه غير ارتعاشات يديه النحيفتين اللتين بالكاد تحاولان أن ترسما أشكالاً ما لإيصال تعبير مارق. بصعوبة بالغة، أدرك الطبيب الدلالة الخفيّة. التفت إلينا بوجه داهمته الحيويّة فجأة: أتعرفين.. حليم يريد أن يستحمّ ويطالب بثياب نظيفة..! كان أمامنا في أسماله المقرفة وروائحه النتنة. لكنّه في تلك اللحظة، كان يعيدنا معه إلى صفاء النهار وزرقة الأفق. أعطيت تعليماتي للمنظّفات اللائي حملنه إلى الحمّام وتعاونَّ على «استئصال» أوساخه. أذكر وجهه جيّدًا. أذكر ملامحه جيّدًا. في العدم الباكتيري الذي ينهش تفّاحة الوجود من أجل تفّاحة أخرى أشهى وأكمل، كان «هناك». ربّما لم يرني.. لم يشعر بوجودي. لكنَّ يديه

Twitter: @ketab_n

اللتين بدأتا في الارتعاش كانتا تؤكّدان الحقيقة الغامضة. كان شعر الشابي هو الدودة التي تقضم تفّاحة الوجود وتنهشها من الداخل. كان وجوده «لاعقليًا»، وكانت الكلمة الجميلة عدمًا «عقليًا»، وكان صوتي «دودة التحوّل الشقيّ». لم أستطع في يوم من الأيّام أن أحكي لنبيلة حقيقة ما جرى، حين سألتني فجأة عن والدها. وحده ميلاد قرأ في صوتي نشيج القدر الإغريقي الذي أوصل طروادة إلى محرقة التاريخ، حين احتضنت الحصان الخشبي كغنيمة حرب. كان جسدي غنيمة حرب يا حليم، وأنت فتحت أسوار مدينتك لاحتضانه! لكن.. حين سمعني ميلاد أقرأ ذاتَ ملتقى شعري:

هل يحقّ لي

أن أذرف شهوتين؟

يمرّ الوقت هازئًا..

ليس في مخيّلة الأشياء

إلّا خساراتي التي تتكرّر

خمسين سنة

وشهقتين!

ـ لا أصدّق أنّ هذا مجرّد تخييل شعري..

ـ ماذا تقصد..؟

لم يبتسم ميلاد على عادته. بقي صامتًا للحظة يتأمّل خراب العالم في عينيَّ الجمرتين. قال:

ـ خلف هذه السنوات الخمسين، وحده الموت يعلم ما

Twitter: @ketab_n

«الشهوتين» وما «الشهقتين». .

ماذا أقول لك يا نبيلة. .؟ هل أحكي لك عن اللحظات الأخيرة التي عاشها والدك في المصحّ العقلي ببرشيد. .؟ هل يمكن لنبل أعماقك أن يرتفع إلى ما فوق الصَّغار الإنساني لكي تسامحيني مثلما سامحني هو، وهو يتجرّع هشيم التحوُّل الشقيّ من الوجود اللاعقليّ إلى العدم العقليّ. .؟

ـ من حقّك أن تريه قبل. . .؟ كانت الممرّضة الشابّة تقول لي. .

ـ رغم أنّه من الناحية القانونيّة لا صفة لديكِ تخوّلك رؤيته. . لكن سأتحايل وأغامر من أجل ذلك. . أنا الآن أكاد أعرف الحكاية!

ذهبت معها إلى المصحّ. لم يكن صاخبًا ومرعبًا مثل المرّة الأولى عندما أتيت. كان صامتًا وحنونًا ودافقًا بالألفة. قادتني الممرّضة إلى مستودع الأموات. لم يقاوم حين قادته المنظّفات إلى الحمّام. خلعن عنه كلّ أسماله وأدخلنه الحوض البخاري الساخن. كنت معهنّ، تقول الممرّضة. كنت أراقب كلّ شيء وأشرف على كلّ شيء. لم يكن هذا هو حليم، المدرِّس الغامض الذي لم يتفوّه بكلمة منذ أن جيء به لأكثر من ستّة أشهر. كان في عينيه صخب الكلام، وكان في يديه موسيقى الحضور، وعلى شفتيه إرهاصات لحظة حرجة. حين خرج من الحمّام، كان شخصًا آخر، جسدًا آخر، ظلًّا آخر لشجرة خفيّة. كان طيّعًا ومستسلمًا في أيدي المنظّفات. ألبسنه ثيابًا جديدة، وقصصن شعره، لكنّه امتنع عن تشذيب لحيته، فأمرتُ المنظّفات أن يتركنه. رفع بصره نحوي. قرأت في نظراته جوعَ عاشق عاد من بحار التيه بعد عشر سنوات. قدناه إلى المطبخ، وأعطيت أمرًا بإعداد فطور لائق. لم تكن الساعة تتجاوز التاسعة صباحًا. وضعنا أمامه قهوة

Twitter: @ketab_n

بحليب وعصير برتقال وزبدة بلديّة وباكيت ساخن ومربّى. لم يأكل شيئًا. شرب قهوة سوداء على مهل، وطلب سيجارة بإشارة من يديه. دخّن بنهم وشهوة. لم يكن يدخّن. كان ينفث أعماقه. ظلّ في المكان ساعات طويلة، عاد فيها ليغرق في صمته من جديد. باغتتني في تلك اللحظة فكرةٌ ذكيّة في محاولة منّي لإدامة حالة إشراقه المفاجئة. ذهبت إلى غرفته وأحضرت ديوان الشابي. أعطيته له. فتحه على القصيدة نفسها التي قرأت منها. ربّما لم يكن الأمر صدفة. كانت وردة من الباقة التي أحضرت له مدسوسة بالقصيدة. أغلق الكتاب سريعًا، ورأيت شفتيه ترتعشان وتتحرّكان. كان واضحًا أنّه يقرأ القصيدة في صمت. في الغداء، أمرت بإحضار وجبة خفيفة له، وغادرت المكان. عدت في الساعة الرابعة عصرًا. لم يأكل شيئًا، ولم تتوقّف شفتاه عن الكلام الصامت، كما أكّدت لي إحدى المنظّفات. حاولت أن أكلّمه: هل تعرف سيّد حليم أنّني أنا كذلك كنت في أيّام الدراسة الثانويّة من المعجبات بشعر الشابي..؟ أليس هو القائل:

إذا الشعب يومًا أراد الحياة   فلا بدّ أن يستجيب القدر..

نظر إليّ وحرّك رأسه بالنفي. استغربت، لأنّني كنت أعرف تمامًا أنّ هذا البيت هو أشهر أشعار الشابي. وقبل أن تزداد حيرتي، فاجأني صوته. تصوّري سيّدتي.. لأوّل مرّة سأسمع صوته. منذ أكثر من ستّة أشهر لم نسمعه يتكلّم.. قال:

أيّها الشعب ليتني كنت   حطّابًا فأهوي على الجذوع بفأسي..

حاولت أن أستدرجه إلى الكلام، لكنّه عاد من جديد إلى خرسه الأبدي: يعني سيّد حليم أنّ البيت الأوّل قدَريّ، والبيت الثاني إرادي..؟! أردت أن أستعرض بعض ما تبقّى في ذاكرتي من «معرفة

Twitter: @ketab_n

أدبيّة». . في البيت الأوّل، نجد انتظاريّة معلّقة على استجابة القدر، ولا أحد يملك مفاتيح القدر، لأنّه خارج المستطاع. أمّا في البيت الثاني، فنجد فعلاً تدميريًا حقيقيًّا تقوم به الذات وهي تنسف الأصول من أجل بناء جديد. . لم يقل شيئًا. لكنّي كنت متأكّدة أنّه كان يسمعني. حوالى الساعة السابعة مساء، طلب بحركة من يديه قلمًا. فتح الديوان من جديد على الصفحة نفسها، وكتب على الهامش شيئًا، ثم طوى الكتاب ووضعه تحت إبطه. ظلّ شاردًا في مكانه يحدّق في الفراغ. فجأة، التفت نحوي. كانت عيناه دافقتين بدمع غميق وغامض. قال لي: أريد أن أرى القمر. . ! فاجأني صوته مرّة ثانية، وفاجأني غموض طلبه. طلبت من إحدى الممرّضات أن تذهب لإحضار الطبيب المشرف. لكنّها عادت من دونه. كان الطبيب قد غادر المصحّ لتوّه. رأيته مرّة أخرى يحاول الكلام. كانت سبّابته تشير إلى الأعلى. فهمت أنّه يقصد الصعود إلى السطح. آه. . فهمت الآن ما تطلبه. . قلت له: أنت تريد أن ترى القمر من على سطح المصحّ. . لم يجب. لكن ملامحه أجابت. . نظرت في وجوه المنظّفات. كنت وحدي المسؤولة عن قراري. أوحت لي هيأته بالهدوء. فكّرت أنّني بدأت في ارتقاء سلّم النجاح المهني. هو ذا حليم في طريقه إلى العلاج. صعدنا معًا إلى السطح. أنا وهو فقط. كنت أودّ أن أمنحه لحظة حميمة للتمتّع بغروب الشمس بعد شهور من الظلام الوجودي. كان المساء أليفًا ومُذَهَّبًا بقمر مكتمل. كانت اللحظة توحي بصفاء مبتكر. الكتاب تحت إبطه. تقدّم بخطوات منكسرة فوق السطح. لأوّل مرّة كنت أرى جسده يقاوم من أجل الانتصاب. كانت شهور الجوع والألم قد تركت أثرها البائس على جذعه وحركة رجليه. رأيت الكتاب يسقط من تحت إبطه، ورأيت رجليه تسرعان نحو حافّة السطح المطلّة

Twitter: @ketab_n

على الفراغ. توقّف فجأة فوق الحافّة، ولم يترك لدهشتي أن تصرخ ضدّ الفعل. كان قد هوى من أعلى السطح. رأيت دموعها. كانت تبكي. لم أصدّق أنّ ممرّضة في مصحّ عقلي يمكن أن تبكي. مسحت دموعها، وفتحت الصندوق المنزلق. كانت الجثّة ملفوفة في قماش أبيض. عرّتِ الوجه. حليم تيهان كما لم يكن أبدًا. أليف في موته وصاخب في صمته الأبدي. لحيته مستفِزّة، لكنّها ذات حنوّ غامر. كانت عيناه مغمضتين، وعلى شفتيه ما تبقّى من «صلوات في هيكل الحبّ». إنّه حليم، والدك يا نبيلة الذي قتلته أنوثتي الكاسحة. قبل أن أغادر المصحّ، أعطتني الممرّضة الكتاب. قالت لي: لقد كتب شيئًا بخطّ يده. لم أجد من اللائق أن أقرأه. يقينًا أنّه موجّه لك.. وضعت الكتاب في محفظتي الصغيرة. توقّفت تحت عمود إنارة عموميّة، وفتحت المحفظة. أصبت بالرعب. من يمتلك أسرار الأستاذ حليم..؟ هل من حقّي أن أقرأ ما كتب..؟ ألا أتطاول على حقّ «المزابيّة» في وراثة أسرار ابنها الأوحد..؟ انفتح الكتاب على القصيدة نفسها المعلّمة بوردة. رأيت خطّه المرتعش. لم يكن حليم مدهشًا في موته فقط. كان مدهشًا حتى في آخر لحظة من حياته. أستاذ اللغة العربيّة الأنيق، لم يكتب بلغته الأمّ. على هامش القصيدة وبلون أسود، كتب بلغة فرنسيّة راقية:

Debout les morts, et à la douche! nous voulons des cadavres propres!

فيما بعد عرفت أنّ البيتين هما للشاعر الفرنسي جاك بريفير..

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ـ ١٧ ـ

على صدره العاري، انفجر الماضي فجأة كدملة متقيّحة. في تلك اللحظة الأليمة، كان كمال صبيًا يجري تحت شمس الأحراش الدافئة في سهول الوسط الغربي، حفيانَ إلّا من لمسة الطين الأسود الذي يدغدغ رجليه الطفليّتين. لكنّ القدر اختطفه فجأة من حضن الأتربة السمراء المشمسة نحو ثلوج فرنسا القاسية. عندما عدنا من البلدة إلى الرباط، ودّعنا أمّي وفي عينيها دموع تبحث عن سهل فسيح لتسقي قبر خالتي زهوة المجهول. عدنا إلى العاصمة لكي نلتحق بالشلّة في إطار بعض الأنشطة الحقوقيّة والإنسانيّة، التي جاء كمال من أجل إنجازها باعتباره منخرطًا في حركة ٢٠ فبراير. قرّرنا أن نقيم سويّة في الفندق نفسه وفي الغرفة نفسها. أعاده جسدي إلى شمس البلد وروائح البلد، وعرق البدويّات وهنّ يصعدن الطرقات الموحلة ليبعن الحليب والتين والهنديّة والنعناع والأرانب كلّ صباح. كان يتلوّى تحتيَ وهو يئنّ: آه.. أحلام.. آه أحلام.. لو..! ولا يكمل الجملة. ألعق صدره في شبق وأمسّد شعره: ماذا هناك كمال..؟ تكلّم.. ما زلتُ أحلام..

Twitter: @ketab_n

صبيّة السطح إن كنت قد نسيت.. يجيبني بمقطع لجورج براسنس: ce n'est rien q'un morceau de pain..

في الغموض الذي يكتنف رماد الذاكرة، يأتي حكيه كالأساطير الأولى. في مقصورة القطار، كان شاردًا في أدخنة سجائره المتتالية. لم تكن وجوه الراكبين إلّا أشباحًا من زمن آخر، ولم تكن أحاديثهم غير غمغمات متلاشية تنكسر على مسامعه في كلّ لحظة. لم يكن يرى من خلال النافذة الأحراشَ التي يلتهمها القطار، والسهول التي يطويها في سرعات جنونيّة. كانت الأشجار تأتيه تباعًا كأطياف من ذاكرة بعيدة. وتداخلت الأشياء في مخيّلته: البلدة الصغيرة.. الحيّ البائس.. الأرض.. الجنوب الفرنسي.. الزوجة الذابلة.. الابن الذي يتوقّد عقله في هدوء.. العمل في الأرياف.. الليالي المخمورة.. ثرثرة العمّال المهاجرين والمياومين وقدماء المحاربين.. الطوابير المزدحمة أمام مكتب صرف الأجور. أمسح دموعه وأقبّل وجنتيه في رفق: كمال.. لقد كان قدره أن يهاجر إلى فرنسا.. أنت أقدر الناس لتعرف مرارة الخبز.. يضمّني كأمّ غائبة: هو الذي روى لي هذه الحكاية أيّامًا قليلة بعد رجوعه إلى الوطن.. كنت أشفق عليه كأب وألومه كإنسان.. لم يكن يوقظه من شروده إلّا صفير القطار عند دخوله محطّة معيّنة. أناس ينزلون وآخرون يصعدون. نساء يسوّين هندامهنّ قبل الجلوس أو النزول. مراقبو التذاكر الواجمون الذين يتفرّجون على الكآبات في حياد مقرِف. لم يكن يربطه بعالم القطار سوى حركات آليّة لاشعوريّة، حين تمتدّ يده إلى جيب معطفه وتخرج تذكرة السفر ليؤشّر عليها المراقب، ثم يضيع في دخان سجائره المتتالية ويعود إلى وجومه اللاإنساني. لم يكن معه أمتعة. لا حقائب ولا مقتنيات ولا أيّ شيء. كان وحيدًا مع ذهوله وتذكرته وترخيص

Twitter: @ketab_n

غامض. حتى مراقبو التذاكر كانوا يبتعدون عنه بسرعة كلّما رأوا تذكرته مقرونة بترخيصه الغامض. لا وثائق ولا أوراق رسميّة ولا جواز سفر ولا هويّة. كان حطامَ رجل يعود من المجهول إلى بلدة ما هناك بين أحراش سمراء وأودية باذخة الامتداد وأحياء حوّلت بؤسها إلى دفء يومي. كانت البلدة تتردّد في جوانحه كوخز إبرة صدئة. تلك البلدة التي استقبلت جثمان زوجة مكسورة، وفتحت لها في أرضها قبرًا ضائعًا. الركّاب الذين يدخلون المقصورة، كانوا يجفلون للوهلة الأولى عند رؤية شبح مفحّم، ضائع في ضباب سجائره التي لا تنطفئ. ينْفُر زغبُ لحيته الخشن من وجهه، ويعطيه هيأة مجذوب ملسوع على باب ضريح في الجنوب الصحراوي، ويكشف معطفه الشتوي الطويل عن بقايا إنسان كان. بعضهم كان يقرف من رؤية هذا الشبح، فيغادر المقصورة باحثًا عن مكان آخر رغم أنّ القطار كان يعجّ بالمسافرين. كان قطارَ مهاجرين عائدين إلى الوطن في العطلة الصيفيّة. حتى الممرّات كانت مزدحمة بجثث أناس هدَّهم التعب والنوم. روائح عرق اللحم الآدمي تزكم المكان. كان القطار عالَمًا متحرّكًا يضجّ بالحياة والموت. بكاء صِبْية.. زعيق أمّهات مرضعات يغيّرن حفّاضات صغارهنّ. روائح حياة حيوانيّة نتنة تنبعث من سلّات المهملات في المقصورات. وتضجّ الذاكرة بأحداث ووجوه وأمكنة بعيدة وقريبة، موحشة وأليفة. لغات متصالبة.. عربيّة.. فرنسيّة.. مغربيّة.. جزائريّة.. قبايليّة.. أطلسيّة.. ريفيّة.. سوسيّة.. إفريقيّة. ذات صباح بارد، استيقظ فجأة ليجد نفسه في مكان غريب. أسِرَّة وشراشف بيضاء. روائح أدوية ومعقّمات، وهمهمات ممرّضات يتحرّكن في صمت حليم. كان مشفى في ضواحي مونبولييه. لم يفهم شيئًا. جال بعينيه في طلاء الغرفة وجدرانها ونوافذها ونظافتها الأخّاذة. مزهريّات

Twitter: @ketab_n

وورود وكراس وأنابيبُ تقوية مشدودة إلى ذراعه. ضمّادات على مرفقيه وحول رأسه، وطبيب فرنسي شابّ يكلمه بكلّ لباقة: Dieu soit loué.. vous l'avez échappé belle..! على صدري جمرة أمل تتوقّد باندفاعة الحياة. يلعق حلمتي النافرة، ويغالب دموعًا تأبى على الانهزام: هل تعرفين أحلام ما معنى أن يكون أبوك معلّقًا بين الحياة والموت.. ويستيقظ فجأة لكي لا يفهم شيئًا..؟! لم أجد ما أقوله. تركت لزوجة لسانه توقّع ديمومة اللحظة على حلمتي: Non.. ne dis rien Ahlam.. ton silence est une perle de pluie.. تذكّرتُ أغنية جاك بريل: je t'offrirai des perles de pluie.. لكنّ ارتعاشة جسدي العاري كانت تلقيني في غموض الحكاية. لم يكن كمال يحكي. كان يبكي. أعادته كلمات الطبيب الشابّ إلى صلابة الواقع:

ـ أخ محمود قدري.. دقيقة جازاك الله كلّ خير..!

كان يغادر مسجد الجالية المغاربيّة في الحيّ البئيس بمونبولييه! حين أوقفه شابّ غامض بلحية مرعبة ولباس أبيض فضفاض ومسواك لا يتوقّف عن تنظيف أسنانه به. توقّف أبي. ها أنتِ تعرفين، أحلام، أنّ اسم أبي كان محمود قدري. عانقه الشابّ الملتحي بشكل استفزازي. هو لم يتعوّد هذه الحميميّة من أشخاص غرباء: كلّنا إخوة في الله.. ولقد أعزّنا الله بالإسلام في بلاد الكفّار.. لم يجد أبي ما يقوله. أجاب كما اتّفق: الحمد لله والشكر لله.. أخرج المتديّن الملتحي قنّينة صغيرة جدًّا بحجم اليد، ورشّ قطرة منها على لباس أبي: هذا مسك مبارَك.. لا يضعه إلّا من اتّبع الصراط المستقيم وانتهج سُنّة نبيّه الكريم.. أقسم لي أبي فيما بعد أنّه كاد يختنق من المسك. هو الذي لم يتعوّد على أيّ عطر خفيف، فكيف إذا كان

Twitter: @ketab_n

العطر مكثّفًا بدرجة عالية. وبدأ الشابّ يتكلّم: نحن إخوة هدانا الله إلى الإسلام في بلاد الكفر.. لا نرتجي سوى الدفاع عن بيضة الإسلام وصيانة إخواننا من السقوط في غواية الشياطين اليهود الصليبيين.. لم يفهم أبي شيئًا. كان الخطاب أعقد وأغرب من بساطته الدينيّة التي كبر عليها. تغيم الصورة وينقطع الكلام. يلتهم القطار المحمّل بالمهاجرين سهول إسبانيا الفسيحة في ظلام لامتنهٍ. يأتي كلام الطبيب الشابّ بسيطًا كالضوء المنتشر من خلال النافذة: وجدوك مضرّجًا في دمائك قرب مسجد الجالية المغاربيّة. للوهلة الأولى، اعتقدنا أنّها محاولة انتحار. قطعت شرايين مرفقك بشفرة حلاقة حادّة أو آلة تشبه ذلك. كنت تئنّ بعربيّة لم تفهمها الشرطة ولا رجال الإسعاف. نقلوك في الحين إلى المستعجلات. ومنذ أربعة أيّام وأنت مغمى عليك. مرّت بك حمّى شديدة. كنت تكلّم أشخاصًا وتنطق بكلام غير مفهوم. حتى الممرّض المغربي الذي يشتغل هنا، لم يفهم شيئًا. قال عندما سمع كلامك إنّ ما تنطق به هو ربّما أقرب إلى لهجات المناطق القريبة من الرباط. صفّر القطار مرّات ومرّات وهو يلتهم المسافات ويلج الأنفاق ويستوي فوق السكك اللامتناهية. أحد مراقبي التذاكر قال له وهو يقرأ أوراقه: refoulé.. quel chatimant..!. عندما استعاد عافيته، حضرت الشرطة إلى المشفى. كان المحقّق يتكلّم بصوت فخم وواضح ومحايد، وبشكل مساوِق لصوت الآلة الكاتبة التي كان شرطيّ آخر يرقن عليها المحضر. منعته رطانته من التواصل الجيّد مع المحقّق. ظلّت عيناه ذابلتين ومكسورتين تحت قامة المحقّق المديدة وخطواته الواثقة وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابًا: محمود قدري.. أنت قلت لنا إنّك التقيت بالجماعة هنا بالمسجد، وتعرّفت عليهم، وكنت تشاركهم تكاليفكم الشرعيّة..

Twitter: @ketab_n

ـ وي مسيو. . كان أبي يجيب. .

ـ هل تستطيع أن تذكر لنا أسماءهم. .؟ وكأنّ السؤال فاجأه:

ـ لا أعرف سوى أنّهم كانوا إخوة في الإسلام. . وكانوا يقولون بأنّ الهويّة الإسلاميّة هي أسمى وأرفع من كلّ هويّة مدنيّة أو اسم دنيوي. . يحتدّ المحقّق دون أن يتجاوز حدود اللياقة: لا. . لا. . سيّد قدري. . لنكن واقعيين. . لا بدّ أنّ «إخوانك» كانت لهم أسماء يتواصلون بها. .

ـ آه. . وي. . وي. . مسيو. . تذكّرت الآن. . كانوا كلّهم يحملون أسماء تبدأ بـ «أبو». . أبو حمزة. . أبو مصعب. . أبو خولة. . أبو ياسر. . هذا كلّ ما أعرفه. . حتى إنّهم أسموني أبو الهدى!

ـ لا يُعقل. . لا يُعقل. . هذه أسماء حركيّة. . نريد أسماء حقيقيّة. .

ـ صدّقني سيّدي، لا أعرف شيئًا. .

وللمرّة الألف، سيُعيد أبي الحكاية من جديد. التقطوني كما تلتقط الشاة الشاردة. كان خطابهم ضاجًا بالعاطفة والحماسة الإيمانيّة وصفاء الأخلاق وعظمة الأسلاف: انظر أخي في الله. . ألا ترثي لحال المسلمين. .؟ صرنا عبيدًا عند العبيد وصاروا أسيادًا على الأسياد. لن تنهض هذه الأمّة من جديد إلّا إذا عادت إلى ما كان عليه السلف الصالح. .! وأنا أنصت وأنصت. صدّقني يا بنيْ إذا قلت لك بأنّ الكلام أكّال للواقع. في لحظات قول مشرقة وباذخة العاطفة، لم أكن أرى الأرصفة المبتلّة بالأمطار والممتدّة أمامي، ولم أكن أرى خليط الناس الذين يسيرون قربي، ولم أكن أسمع أصوات الحياة اليوميّة الزاعقة في أذنيّ باستمرار. كانت الصحراء منتشرة أمام وعيي

Twitter: @ketab_n

كفردوس لانهائيّ. خيول الفتح ووصايا الصحابة وارتفاع المصاحف على أسنّة الرماح. سمعت ولولة البوسنيّات واستغاثة الأفغان ومؤامرة اليهود على أرض الأنبياء: انتبه يا أخي.. هؤلاء هم إخوتك الحقيقيّون.. ومن تبقّى هم ملاحدة وملاعين..! لأوّل مرّة يا بنيْ، لم أصَلِّ مع أصدقائي من العمّال وقدماء المحاربين، رغم أنّنا كنّا نؤمّ المسجد نفسه..

ـ أريد خمرًا أحلام.. في جوفي عطش تاريخيّ.. يقول كمال ويداه ترسمان في الأفق الشاحب هالة أب ما، كان ينهشه صوت إيمان مستعاد. أغادر الفراش عارية تمامًا. أفتح الثلّاجة الصغيرة الموضوعة قرب السرير، وأتناول نبيذًا أحمر وكأسين، وأنزلق في الفراش خائفة على وهج اللحظة من التلاشي. يصبّ كمال لي وله، ويفرغ كأسه دفعة واحدة. من المسجّلة، يتطاول علينا محمّد عبد الوهاب بصوته المتناوم:

إنْ سَكِرْنا فعذرنا أنَّ في جوفنا عطش..

يفرغ كمال كؤوسه تباعًا. أنتهره: كمال.. هذه ليست طريقة راقية في الشرب.. آه أحلام لو تعلمين..! يجيبني.

فجأة، تغيَّرت ملابس أبي. أصبحت أفغانيّة بيضاء ورماديّة، وانسدلت لحيته منفّرة فوق صدره، واتّخذ وجهه شكلاً واجمًا وكامدًا وبلا حياة. طلّق الكلام والابتسامة. فرض الحجاب على أمّي ومنعها من مغادرة المنزل، وألزمني لزومًا قاسيًا أن أصلّي الفجر معه رغم قساوة المناخ، ورغم التزامي بالذهاب إلى المدرسة في السابعة والنصف من كلّ صباح. لم نكن نسمع منه سوى جئير واحد: أيّها الملعونان.. المسلمون يُقتَلون في كلّ مكان وأنتما تضحكان

Twitter: @ketab_n

وتأكلان.. ويلكما من يوم الحساب..!!

فتح المقصورةَ رجلٌ يدفع عربة متحرّكة، يبيع القهوة والمشروبات والسندويشات. أعادته رائحة القهوة السوداء من شروده. طلب قهوة بحركات يديه، وأشعل سيجارة جديدة. سمع رشفات الركاب وهمهمة النادل وهو يستخلص نقوده ويسوّي حساباته. أدرك من خلال تبدُّل الوجوه في المقصورة، ومن خلال رطانات الناس، أنّهم على أهبّة مغادرة التراب الإسباني، حيث لن يتبقّى غير البحر. سمع المراقبين يعلمون الناس بذلك. بدأ بعض المسافرين يغادرون المقصورات، والبعض الآخر يهيّئون جوازاتهم وأوراقهم ويعِدّونُ أمتعتهم استعدادًا للنزول. وتوقّف القطار أخيرًا. مشت الصفوف نحو شبابيك الجمارك تحت أنظار حرّاس قساة. أحدهم أمسك ذراعه بقوّة وقاده بعنف نحو غرفة ضيّقة، وظلّ ينتظر لساعات طويلة. انتظرنا ساعات طويلة، أحلام. انتظرنا شهورًا وشهورًا، ولم يعد. فجأة اختفى أبي. في أعماقي، كنت فرحًا بغيابه. لن أسمع بعد الآن وعيدَه الأخروي، ولن يجبر أمّي على الاستيقاظ مبكرًا لأداء صلاة الفجر. حتى أمّي ارتاحت رغم أنّها كانت تدمدم في كلّ حين، وتردّد اللازمة المشروخة نفسها عن الرجل القوّام، عن الرجل الحائط، عن الزوج «الزّمان». رغم كلّ شيء، أحلام، كانت ما تزال ترى أنّ أبي «زمانها».

ـ اسمع سيّد قدري.. أنت لحدّ الآن غير متعاون. هذا شأنك إن كنت تتستّر عليهم. لكن تأكّد أنّهم لن يتركوك نهائيًّا. نحن نقدّم لك الحماية، لكن عليك أن تتعاون معنا.. كان صوت المحقّق الفرنسي في غرفة المشفى ما يزال يحتفظ بهدوئه ووثوقه. لا أحد صدّق محاولة الانتحار. كلّ من تعرّف على أبي في المشفى، أكّد للشرطة أنّ ذلك مستحيل لسببين: أوّلاً، لأنّ أبي من الجبن والضعف بحيث لا يمكن

Twitter: @ketab_n

أن يفكّر في قتل نفسه. وثانيًا، لأنّ ما أصبح عليه من «أصوليّة»، يمنعه من الانتحار، فالانتحار محرّم شرعًا.

ـ هيّا سيّد قدري.. لا تخف.. الدولة الفرنسيّة ستوفّر لك الحماية.. هيّا تكلّم..!

ليت الأمر توقّف عند حدود التشدّد الديني! لقد تخلّى أبي عن عمله طواعيّة، وضحّى بسنوات طويلة من التعب كانت ستحتسب له في المعاش. كان مبرّره هو أنّ «فلوس» النصارى حرام، وكلّ تعامل معهم حرام. وانتهى الأمر به إلى الاعتكاف في مسجد الجالية المغاربيّة، يقرأ القرآن والأحاديث وأدبيّات كبار الفقهاء. كان أبي أمّيًا لا يستطيع القراءة، لكنّهم أحضروا له معلّمًا شابًّا تكلّف بذلك. كان واضحًا أنّهم يعيدون «برمجته» من جديد وفق أهداف الحركة الأصوليّة العالميّة. بعد شهرين من «إعادة البرمجة»، اختفى أبي تمامًا، حتى وجدوه ملقى أمام المسجد على وشك الموت. اقترب المحقّق الفرنسي بحذر ثعلبيّ من سرير أبي، وأمسك كفّيه: هذا كلّه شيء نعرفه.. نريدك أن تحدّثنا عن غيابك.. أين ذهبت..؟ مع من التقيت..؟ ماذا فعلت..؟

لم أعرف المكان يا بنيْ. صدّقني كمال. كلّ ما أعرفه هو أنّ الجبال كانت قاسية الثلوج، وكنّا نطلّ على قرى صغيرة ذات أبنية أرجوانيّة. كنّا نسمع هدير المدافع وأصوات المآذن وأجراس الكنائس في آن واحد. حتى اللغة لم تكن فرنسيّة.

لم يكن والدي يعرف أنّه سيق للقتال في البوسنة ضدّ الصرب والكروات معًا، بل وحتى ضدّ بعض مسلمي البوسنة الذين كانوا متّهمين بالتعاون مع «متعصّبي» الصرب السلفيّين. التفت والدي نحو المحقّق الفرنسي. كان يحاول أن يختبر مصداقيّة وعوده بالحماية:

Twitter: @ketab_n

اسمع مسيو. . كلّ ما أعرفه هو أنّني تدرّبت على السلاح في جبال ثلجيّة مع مسلمين لم يكونوا يتكلّمون العربيّة ولا الفرنسيّة. كنّا جميعًا ندافع عن الإسلام والمسلمين بعد كلّ ما سمعناه عن المذابح النصرانيّة. لم نكن نملك غير الإيمان ووحدة الملّة. .

ـ مسيو قدري. . لا أعتقد أنّ أياديكم لم تكن تحمل غير الإيمان ووحدة الملّة. . ولا أعتقد أنّكم كنتم تتدرّبون على السجود والركوع فقط. . أكيد أنّكم كنتم تتدرّبون على أسلحة خفيفة وثقيلة، وتصوّبونها في مواجهة «السلفيّين». . !

لم يجد والدي ما يقوله. كانت الحقيقة واضحة. كان الإيمان يدفع به إلى المجازفة بحياته في أرض غريبة للدفاع عن وحدة المعتقد، في الوقت الذي كانت فيه أمّي متروكة للوحدة والجوع والبرد.

عندما عدنا من الحرب «المقدّسة»، كنّا رجالاً مختلفين. كنّا نحمل الحياة في سيّارة إسعاف، ونركع خشوعًا للموت العقائدي. مسيو. . أنت لا تعرف أيّ شيء. . !

ـ أنا لا أريد أن أعرف سوى أسماء الأشخاص الذين كانوا معك. . ولماذا حاولوا اغتيالك بتلك الطريقة. . ؟

كنت بريئًا حدَّ السذاجة. كنت أعتقد أنّ العالم سيقدّر براءتي وبساطتي. أنا الذي لم أشحذ سكّينًا في يوم من الأيّام، ولم أصرع منافسًا، ولم ألعب بعصا على طريقة الرعاة في بلدتنا. لم أعتقد أنّني سأفخّخ وعيي لأحوّله إلى حزام ناسف لقتل غرباء لا أعرفهم، باسم الله. عندما عدنا إلى فرنسا، اعتقدت أنّ «المؤمنين» في مسجد الجالية المغاربيّة سيحضنون شجاعتي وجهادي. لم أعرف أنّني وضعت بيني وبين العالم عدَمًا فاصلاً لا يمكن القفز فوقه. تركت زوجتي تموت من

Twitter: @ketab_n

مرضها في كلّ دقيقة. تركت كمال ابني يكبر رغمًا عنّي وخارج أسوار «المعتقد» الذي حشوت به رشّاشي في بلاد «السلاف». لم أسترح إلّا لبضعة أيّام. جاؤوني أكثر شراسة وعنفًا ممّا سبق. اعتبروني «عضوًا» في «الجماعة»، ولم يعد لي نهائيًّا أدنى فرصة للتراجع. صرت ملزمًا بتنفيذ أوامر «أمير» أجهله، ويبدو لي من خلال كلامهم أنّه أشبه بنبيّ.

ـ ما الذي طلبوه منك مسيو قدري على وجه التحديد..؟

ـ طلبوا منّي أن أضع حزامًا ناسفًا تحت ملابسي وأن أفجّر المسجد لتُكتب لي الشهادة..

ـ غريب.. أليس المسجد هو أقدس مكان عندكم..؟ ألا تقولون إنّه بيت الله..؟

ـ حتى أنا لم أفهم.. لكنّهم قالوا لي: يجب أن يفجّر المسجد بطريقة تجعل التهمة تلتصق باليهود أو بالمتعصّبين النصارى..

ـ ولكن لماذا..؟

ـ لكي يكون ذلك ذريعة لمزيد من التعبئة في صفوف الجالية المسلمة في فرنسا، من أجل شنّ حرب على «الكفّار الصليبيّين واليهود».. أوقفوه في جمارك طنجة. احتجزته السلطات المغربيّة في غرفة ضيّقة لساعات طويلة. جاء ضابط كبير. أخذ أوراقه وقرأها بتمعّن وهو يتفرّس في وجهه: «محمود قدري.. الاسم الحركي أبو الهدى.. خمسون سنة.. مغربي الجنسيّة.. أجير سابق في الضيعات الفلّاحيّة بضواحي مونبولييه. دخل فرنسا بعقد عمل قانوني شهر أكتوبر سنة ١٩٧٤. مُدان بتهمة الانتماء إلى جماعة أصوليّة إرهابيّة. محكوم عليه بسنتين سجنًا فقط اعتبارًا لتعاونه مع المحقّقين ومع القضاء الفرنسي. لكنّه محروم من كلّ حقوق على التراب الفرنسي. وقد منِحه

Twitter: @ketab_n

هذا الترخيص لمغادرة الأراضي الفرنسيّة لدواعٍ صحّيّة وإنسانيّة فقط..»
طوى الضابط المكتوبَ بين يديه وتمشّى خطوتين أو ثلاثًا. لم يتوقّف عن التفرّس في هذا الشبح العائد من «موت عقائدي». تقدّم منه قليلاً وجلس على كرسي. أشعل سيجارة. نفث دخانها بكلّ عصبيّة. حدّق في وجهه، وقال له: اسْمع آ سي قدري.. ياك اسمك قدري.. محمود قدري..؟ هزّ أبي رأسه موافقًا، وتابع الضابط كلامه: انس كلّ شيء.. أخبرني عن كلّ ما يتعلّق بك كمواطن مغربيّ مهاجر بفرنسا. أخبرني بكلّ شيء، من البداية حتى الآن بالتفصيل المملّ.. عندما أقول كلّ شيء لا يعني ذلك ظروف عملك وحقوقك وواجباتك القانونيّة وعدد أطفالك وزوجتك.. هذه التفاهات لا أريدها. أريدك أن تركّز فقط على أنشطتك داخل «الجماعة». عن الأعضاء ومصادر السلاح والجهات الخارجيّة التي كنتم تتعاملون معها، ومخطّطاتكم التخريبيّة.. وبالخصوص عن دورك أنت في كلّ ذلك..

هل تعرفين لمَ عدت الآن يا أحلام..؟ كان أبي عاملاً بسيطًا، يعود آخرَ النهار على درّاجته البائسة، وتهيّئ له أمّي بعض ما يأكل. يكلّمها قليلاً ويلتفت إليّ ليسألني عن دروسي ومدى انسجامي مع نظام التعليم الفرنسي، ثم تتلاشى قواه بالتدريج، فينام ليستيقظ عند الفجر، ويذهب إلى عمله بالضيعات الفلّاحيّة. لكنّه الآن شخص آخر. يتغيّب شهرًا أو شهرين، ثم يعود ليكلّمنا بصوت مفخّخ ونظرات محشوّة بخراطيش الآخرة. ثم انقطعت أخباره تمامًا لِما يزيد عن ثمانية أشهر، بقينا خلالها من دون معيل. أنا تكفّلتْ بي المدرسة ومؤسّسة الضمان الاجتماعي، وأمّي تكفّل بها بعض الأقارب الذين كانوا يجمعون لها شيئًا من المال لسدّ الرمق. حين جاء أبي بلحيته الطويلة ولباسه الأفغاني وصمته «الإرهابي»، كانت أمّي على فراش الموت. لم يفعل

Twitter: @ketab_n

شيئًا. ذهب ليعتكف في المسجد، وتركنا لمصيرنا. حين التقيته في السجن المدني بمدينة سلا، كان على ملامحه كلام دافئ، وكان في نظراته حنوّ غير معهود.

لم أقاوم المفاجأة. دفء الفراش وعرق الجسدين وخدر النبيذ الأحمر، كلّ ذلك لم يمنعني من الوقوف في كامل عريي أمام كمال: يعني كمال أنّك جئت إلى المغرب قبل هذه المرّة.. وأخفيت عنّي كلّ شيء..؟ وكمال مثل سنجاب جريح، لا يجد القوّة لارتقاء الأشجار، يقول لي:

- Non Ahlam.. c'est pas ça..

- c'est quoi alors ...

لم آتِ إلى المغرب قبل الآن. والشيء الوحيد الذي أخفيته عنك هو أنّني جئت لزيارة أبي المعتقل في إطار ما يُعرف بالسلفيّة الجهاديّة.. بيننا كان شبّاك فاصل. حين طلبوه للزيارة، رأيت رجلاً من زمن آخر. وقف أمامي ذاهلاً عن كلّ شيء إلّا عن اسمي: كمال.. قال لي في انكسار.. قلت له: نعم.. على الأقلّ لم تنس اسمي.. كان في عينيه حطامُ نظرات. لم يستطع أن ينظر إليّ. قلت له: سمعت أنّهم حكموا عليك هنا بالمغرب بعشرين سنة.. لم يقل شيئًا. كأنّه لم يسمعني. لا يهمّني ذلك.. أنا انتهيت من زمان.. لكنّني لن أموت قبل أن تعرف الحقيقة. على الأقلّ يهمّني أن تعرف أنت الحقيقة.

كان المحقّق الفرنسي يُعيد رواية الحادثة من جديد أمامه: مسيو قدري.. لقد وجدناك على وشك الموت أمام مسجد الجالية المغاربيّة. كنت تموت بعد محاولة انتحار. قلت لنا: ما الذي حدث..؟ كان

Twitter: @ketab_n

ينظر في هيأة المحقّق الجادّة، ويلتفت حواليه ليكتشف خلوّ المكان من العيون والمندسّين:

ـ لا تخف مسيو قدري.. أنت الآن في أمان.. طمأنه المحقّق.

بعد عودتنا من الجهاد، كنّا مهزومين تمامًا. لم يعد أحد يقبل بوجود مقاتلين عرب على أرضه. حتى المسلمون الذين قاتلنا إلى جانبهم، أصبحوا متضايقين من وجودنا. كان حضورنا مقرونًا فقط بالسلاح والعنف والتشدّد. عدت إلى فرنسا. كنت بلا عمل، وكانت زوجتي تحتضر، وابني تحت كفالة الضمان الاجتماعي. كنت بلا مال ولا قدرة على تقبّل الحياة الفرنسيّة، ولا البقاء على نمط الحياة الأصوليّة. ماتت زهوة. امرأتي زهوة. من دون أن أراها أو أقرأ الفاتحة على روحها، أو أصاحب جثمانها إلى المغرب. وكمال ابني، كنت محرومًا من الاقتراب منه. استغلّوا عطالتي وساوموني بالمال: سنعطيك ما تريد من مال شريطة أن تنفّذ ما نطلبه منك..

ـ موافق.. لكن ماذا تطلبون منّي..؟

ـ سنقول لك ذلك في حينه..

وكما أخبرتكم سابقًا، فقد طلبوا منّي أن أضع حزامًا ناسفًا وأن أفجّر نفسي، وأفجّر مسجد الجالية المغاربيّة معي. استغربت الطلب. قلت لهم: ما فائدة المال إذن إن كنت سأقتل نفسي..؟! صرخوا في وجهي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. يا أخي ما هذا الكفر..؟ من قال إنّك ستقتل نفسك..؟ أنت لن تقتل نفسك.. أستغفر الله.. كبُر مقتًا عند الله قتل النفس.. أنت ستستشهد وتدخل الجنّة مع الصالحين.. وما وعدناك به من أموال سنفرّقه على إخوتك من المساكين والمحتاجين لكي لا يمدّوا أياديهم إلى «المعونة الكاثوليكيّة»

Twitter: @ketab_n

والعطايا النجسة لكنيسة الكفّار الخنازير.. رفضت بشدّة. تركوني أيّامًا ثم عادوا لتكرار المحاولة. لكنّني أصررت على رفضي: إذن أنت ترفض الشهادة الإسلاميّة وتقبل المعونة المسيحيّة..! استغربت الأمر: من قال لكم ذلك..؟ من يرفض أيادينا البيضاء لا يكون أمامه سوى حظيرة العطايا التي تمنحها الكنيسة للمرتدّين والشواذ والبغايا والعاطلين عن العمل. صرتُ مرتدًّا وشاذًّا وعاطلاً. عرفت أنّهم أصدروا حكمهم عليّ، وبقيت أنتظر قدري وحيدًا من دون سند. لماذا لم تلجأ إلينا..؟ قال المحقّق الفرنسي. كنت خائفًا من جواسيسهم الذين يسكنون الخلايا والمسامّ. كلّ ما أذكره هو أنّني رأيت في الظلام، قرب مسجد الجالية المغاربيّة، أشخاصًا على درّاجات ناريّة. اقتربوا منّي، وفي لمحة خاطفة هجموا عليّ بسكاكينهم وسيوفهم وسلاسلهم الحديديّة. كانوا يهدّدوني فقط لكي يتحكّموا في جسدي. لم أرهم لأنّهم كانوا ملثّمين. حشوا فمي بكومة من القماش، ثم بدأوا يقطعون أوردة يدي بطريقة محدّدة. كنت أنزف وأنزف. سقطت أرضًا، وكنت بين الصحو والموت، أراهم يحيطون بي مثلما نحيط بخروف في صبيحة العيد الكبير. عندما أفقت، وجدت نفسي في المشفى. الواقعة نفسها حكيتها وأعدت حكايتها، مرّات ومرّات أمام المحقّق الفرنسي، ولم تبدُ عليه علامات التصديق: مسيو قدري.. هل لك رواية أخرى غير هذه لأنّني لن أصدّقك..؟

ـ لماذا مسيو المحقّق..؟

ـ لو افترضنا ما تقوله صحيحًا.. كيف تفسّر لي ذبح إمامِ المسجد من الوريد إلى الوريد..؟ أنت ذبحته، وقمت بتقطيع أوردة يديك على سبيل الإيهام بالانتحار لكي تنأى بنفسك عن كلّ الشبهات..

Twitter: @ketab_n

كان المحقّق الفرنسي في كامل لياقته الأدبيّة وهو يستجوبني. لكنّ الضابط المغربي لم يترك لي فرصة الكلام. كان يردّد اللازمة نفسها: نحن لسنا هنا في فرنسا.. نحن في المغرب.. فلا تستغرب.. هل تفهم ذلك..؟ إذا كانوا قد أخلوا سبيلك وحكموا عليك بالطرد خارج ترابهم الوطني.. فاعرف أنّك هنا ستعترف شئت أم أبيت.. لقد قتلت إمامًا مغربيًّا وانتميت إلى جماعة إرهابيّة خطيرة تهدّد أمن البلد..

كانت آخر كأس نشربها. عبر النوافذ لا نسمع سوى صوت المطر. مطر العاصمة في شهر ديسمبر أجمل من كلّ مشهد. في صوت كمال المتهدّج ما يغري ثعباني الراقد بالاستيقاظ. داهمتني فجأة شهوة الطفلة التي كنتُ على غرفة السطح، لكنّني رأيت خالتي زهوة تغلق عينيها للمرّة الأخيرة، وتعود إلى الوطن في تابوت بارد. اكتسحني الجواب الصريح عن سؤالي الأوّل يوم سمعت اسم كمال: آه فهمت الآن لماذا انتسبت إلى أمّك وحملت اسم كمال زهوة. كنت تنسف كلّ ذكرى لأب لم يمثّل لك غير الخراب، وتمجّد اسم أمّك التي ماتت لأنّها لم تجد لحظة دفء تصنع منك رجلاً للمستقبل.. دغدغ حلمة نهدي قبل أن يقول: لم أشكّ يومًا ما في ذكائك أحلام..

ـ لكن، لماذا عدت من أجل زيارة أبيك في المعتقل..؟

ـ لا أدري.. ربّما لكي أسمع منه الحقيقة.. ربّما لكي أسمع منه آخر كلمة «اعتذار» ينحتها رجل أصيل قبل أن يموت، لتكون كلَّ ما يمكنه أن يترك للعالم من مجد.

في الأيّام الأخرى، كان كمال يتسامى فوق كلّ حقد أو انتقام. لم يبحث عن قبر خالتي زهوة، ولم يتنازل عن حقّ أبيه كمعتقل في محاكمة عادلة. كان يكتشف الوطن في كلّ ليلة دافئة تلمُّ عراء

Twitter: @ketab_n

جسدينا، وفي الانخراط الوجداني والواعي في حركة ٢٠ فبراير. لم أعثر على إسماعيل ولد خالتي حبيبة، ولم أجد أثرًا للوحاته ومنحوتاته. كان برنامجي الإذاعي ينزل من عذريّة المثال الجمالي، الذي كنت أبحث عنه في الأعمال الإبداعيّة، لكي ينصت لصوت الريح في كلّ ظهيرة خريفيّة، ولزخّات المطر كلّما تسلّق كمال شهقات صدري. لقد وجدت تاهيتي الخاصّة بي دون أن أسافر إلى بولينيزيا وجزر المارتينيك. في الغد، لم أجد كمال. جاءني صوته في الهاتف: لقد رجعت إلى فرنسا، أحلام.. لم أفهم. لم أكن أتصوّر مثل هذه المفاجأة. صرخت في وجهه: لماذا كمال..؟ ما الذي حدث..؟ كنت قاسية وحانقة. لم أسمع بكاءه الطفولي وتهدّج صوتِه. عندما استكنت، كان العالم في حكيه ساديًّا مثل جلّاد بارد. ما الذي تريدين سماعه، أحلام..؟ لماذا تركتك بهذه الصورة النذلة..؟ كنت أعتقد أنّنا ندخل التاريخ أخيرًا من بابه الواسع. لكنّ التاريخ لا يمكن أن يكون تاريخًا من دون مكر. كنت في غرفتي بالفندق نفسه عندما رنّ الهاتف. اتّصلوا بي من سجن سلا: رجاء الحضور حالاً.. لم أجده بالمعتقل. قادوني إلى مشفى قريب. كان أبي بين الحياة والموت. التفتُّ نحو الطبيب المشرف. هبوط حادّ في مستوى السكّر بالدم. أبوك لم يأكل منذ أربعة أيّام. هل كان في إضراب عن الطعام..؟ سألتهم. لا نعتقد ذلك، أجابني مسؤولو السجن. عادة يكون الإضراب عن الطعام مقرونًا بمطالب محدّدة واحتجاج واضح. لا شيء من ذلك. حين حملناه إلى قسم المستعجلات، كان عنده طلب واحد ملحّ لم يتوقّف عن تكراره: أريد ابني كمال.. ولذلك اتّصلنا بك. كان ممدّدًا على السرير العيادي دون حراك. عيناه مفتوحتان، لكن من دون تعابير ودلالات. سبّابته نحو السماء وشفتاه ترتعشان بكلام غامض.

Twitter: @ketab_n

قال لي الممرّض: إنّه في حالة احتضار، وربّما هو الآن ينطق بالشهادة.. لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم. ثم استدار الممرّض. أحسست بيد تمسكني من الخلف. كان أبي يحاول أن يجعلني أقترب منه نظرًا لضعف صوته، وتقلّص الزمان المتروك لقدرته على الكلام. اقتربت كثيرًا من السرير وجلست على حافّته. أحسست به يطلب منّي أن أقترب أكثر وأكثر. ليس لي وقت كثير يا بنيْ، وعليّ أن أجعلك تنسف من ذاكرتك كلّ أثر لأب كان. آه، أحلام.. تصوّري.. في الميترو.. في القطار.. في البار.. في التجمّعات النضاليّة.. في البيت.. كان صوته يعيد ترتيب العالم من جديد. كنت أسمعه يحكي كآخر فرد من سلالة محكومة بالانقراض. هو الموت يا كمال. لكنّها الحياة قبل ذلك. الحياة التي أتركها لك لكي لا تجد ذرّة عذر لي، ولكي لا تفسح في أوصالك قبرًا يليق بأب لم يحترم قدره. كنت ألفّ الحزام الناسف حول جذعي وأغطّيه بالجاكيت، وأحاول استيعاب ما تعوّدت على سماعه من «الأخ» المسؤول عن استشهادي في الجماعة. لم يكن حزامًا حقيقيًّا بعبوات ناسفة. كان مزوّرًا. ربّما كانوا يختبرون قدرتي على تقبُّل فكرة الاستشهاد. كنت وحدي فقط أحاول أن أنتقم من شيء ما لا أعرفه. تسلّلت إلى المسجد مثل سحليّة قاتلة، وحاولت أن أبدو طبيعيًّا، لكنّي لم أستطع. توتّرت حركاتي. أقوم وأقعد. أذهب للمرحاض وأعود. انتبه الإمام لحركاتي. تبعني إلى المرحاض: ما الذي يحدث يا ابني..؟ كان شيخًا طاعنًا في السنّ، يتكلّم بوقار القدر وغور القضاء. لا شيء سيّدي الإمام.. قلت له، وأنا أتلمّس الجاكيت وأحاول أن أثبّت الحزام الناسف الملفوف حول جذعي. هيّا صلِّ ركعتين يا ابني والعن الشيطان الرجيم.. لم أستطع النظر في وجهه. كانت رصانته أقوى من حزامي المزوّر. لم أكن قادرًا

Twitter: @ketab_n

في نظرهم حتى على وضع حزام حقيقي قاتل. لم أجبه. كان يمسح على لحيته بالماء ويستعيذ بالله من كلّ وسواس، وأنا أحرّك يدي فوق جذعي بشكل غير عادي. فجأة، رأيت عينيه تبرقان من الدهشة: هل تريد قتل إخوتك في بيت الله..؟ احتارت حركاتي.. حاول الإمام أن يقول شيئًا. لم أكن من القوّة بما يكفي لسماع صوت الحكمة. لقد افتُضح أمري. أظهرت له حزامي الناسف. لم ينفجر شيء. كرّرت المحاولة وكرّرتها في ارتباك عصيب. كنت بين الحقيقة والوهم. بين الحياة والموت. لم أنفجر إذن. ما زلت على قيد الحياة، ولم ألمح الجنّة. لكنّ الدنيا كانت أمرَّ من الآخرة أمامي. الإمام على مرمى حكمة منّي. فات الأوان. لقد صدع صوت الدم. سللت سكّينًا من جيبي. هجمت على الإمام في حركة إجراميّة مباغتة ونحرته من الوريد إلى الوريد. كان يسقط قبل أن يكمل النطق بالشهادة. تركته مضرّجًا في دمائه، وتسلّلت خارجًا من المسجد من الباب الخلفي المخصّص للمراحيض. وقفت وحيدًا وشرعت في تقطيع شرايين يدي. كنت أصنع حجّة براءتي من دم الإمام، وشهادة عودتي إلى عالم الناس موقّعة بدم رجل بريء. ألقيت السكّين بعيدًا بعد أن مسحته من كلّ أثر لبصماتي. عندما أفقت، كنت بالمشفى محاطًا بمحقّق وشرطة وممرّضين. عرفت أنّني ذبحت رجلاً بريئًا، ولم ينفجر المسجد، لأنّهم خدعوني ولفّوا حول جذعي حزامًا مزوّرًا. آه، كمال.. لا أرجو منك سوى شيء واحد: انسف كلّ صورة لي بذاكرتك.. الحياة جميلة، لكنّني لم أعرف كيف أرشفها.. لا رحمة لمن أضاع كلّ أثر لقبر زوجته..!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ـ ١٨ ـ

في الطريق إلى البلدة الأطلسيّة الصغيرة، كنت أقرأ «شموس الغجر» لحيدر حيدر. استوقفتني لغته الشاعريّة المتدفّقة كعصف مارق. كان يخاطبني: «زمن سلام الروح مع الأمّ الأولى، قبل خروج الوحش من كهفه السجين فيه، يوم دوّى بصرخته البربريّة، وهو يعْبر هذه الأراضي العذراء، معكّرًا الينابيع، مكتسحًا اخضرار العشب وهو يدمّر الهدوء واتّساق الروح والحرِّيّة المقدّسة للإنسان ـ الله. .». كانت الحياة تمتدّ أمامنا في هذا الاخضرار الأطلسي الفاتن والقاتل في الوقت نفسه. لم تكن هذه ملاحظتي، كانت ملاحظة كاميليا التي قالت: بقدر ما تنجب هذه المرتفعات الأطلسيّة الحياة في كلّ ثانية تحت أقدام «الراقصات الراعيات»، بقدر ما يقتل البرد القاسي كلّ نفثة غير محصّنة بالحياة. كانت تشير إلى الأطفال الذين يموتون كلّ شتاء في خنيفرة وأنفكو وميدلت وإيموزار. لكنّ الأمازيغ يصِرّون، ضدًّا على كلّ حِداد، أن يرقصوا في العراء وتحت الأشجار وفوق الثلوج. يكفي أنثى وضارب بنذير وآهات موشومة، لكي تندلق الحياة في كلّ شهقة.

Twitter: @ketab_n

في الخلف، كان كمال يضمّ إليه أحلام، ويسجّل بين الحين والحين ملاحظات في أجندته، فيما يرسل الراهب دوائر الأدخنة المنبعثة من سيجارته عبر النافذة، ويرتشف من فم قنّينة الهينكن مباشرة. سامية وميلاد صامتان. ربّما كانا يبحثان عن إيقاعات جديدة لوجدانيهما الشاعريين. كنت أحدّثهم عن مهرجان أحيدوس السنوي الذي تنظّمه البلدة الصغيرة بكثير من الشبق. وفي كلّ مرّة، كان الراهب يلسعني بسخريّاته التي لا تنتهي: كنت أسمع بأحيدوس في الصغر، وكنت دومًا أتخيّل راقصًا يضاجع راقصة في مشهد علنيّ.. أجيبه على الفور: عليك اللعنة أيّها الرجيم.. لا تنسَ أنّ كلّ الحضارات الأولى كانت تجعل من الرقص طقسًا شبيهًا بالمضاجعة.. يردّ عليّ: الآن فقط عرفت لماذا أحرقك جسدك ولم يبرد، حتى عرضتِه عاريًا أمام جمهور متحفّز «للرقص».. وتستمرّ استفزازاتنا المتحرّرة.. في البلدة الصغيرة، أجد أخي طارق في استقبالي بكامل زيّه الأمازيغي التقليدي: جلّابة بيضاء ورزّة صفراء ملفوفة بخفّة فوق الأذنين على رأسه بطريقة تكشف الوجه بكلّ جسارة. أتذكّر ما قاله باحث مغربيّ من أنّ وضع الرزّة بهذه الطريقة الكاشفة، يدلّ على كبرياء الأمازيغي الحرّ الذي لا يخاف السلطة، لأنّه لم يرتكب جرمًا. في حين أنّ وضع «قبّ» الجلّابة على الرأس وإخفائه تمامًا، يدلّ على شخصٍ لصّ، ضُبِط متلبّسًا ويحاول أن يستر ملامحه من تطفّل العالَم.

كان الجميع ينظر في وجه طارق ليروا ردّة فعله على واقعة «الجسد العاري» فوق الخشبة. كان هادئًا ومنشرحًا وغارقًا في الإعداد لمهرجان أحيدوس السنوي. قدّمته لهم. وجدوا المشهد مثيرًا في بساطته الراقية. كان طارق بعيدًا ملايين السنين الضوئيّة عن شخصيّة الرجل الدموي الثائر من أجل الشرف، والذي يشحذ عضلاته وخصاءه

Twitter: @ketab_n

التاريخي لينتقم من أضعف كائن في المجتمع: المرأة. أدخلنا طارق خيمة كبيرة. خيمة سوداء تغطّي أرضيّتَها زرابيّ وحناديرُ ملوّنة بالأحمر والأبيض والزعفراني على شاكلة الألوان المميّزة لأهالي المنطقة. شربنا شايًا «ثقيلاً» بعسل وزبدة بلديّة وحرشة مطهوّة فوق أعواد الأرز اليابسة. في أقصى الجهة الأخرى من الخيمة، كانت فرقة الراقصات الأطلسيّات مندمجة مع «الشيخ» في وضع اللمسات الأخيرة على العرض الراقص. كنّ مندمجات تمامًا في البروفات، ولم ينتبهن لنا. أذُن الشيخ، كانت في قمّة تحفّزها واستنفارها لالتقاط أيّ نشاز مهما كان طفيفًا. التفتت كاميليا نحوي: هل يمكنني أن أدخل..؟ طبعًا كامي.. لن ينكر عليك أحد ذلك.. رددت عليها. أشعلت سيجارتها ووضعت رِجْلاً فوق رِجْل، فيما ظلّ الآخرون منهمكين في «الفطور الأمازيغي» الشهيّ. طارق التحق مباشرة بالفرقة واندمج في البروفات. سمعت كاميليا، وكأنّها تهمس في أذن الصمت: غريب.. كنت أعتقد أنّ هذه الرقصات عفويّة ومرتجلة تمامًا.. لم أكن أعلم أنّها «صنعة» بكلّ ضوابطها وفكرها واستراتيجيّتها. اقتربتُ منها. في يدي كأس شاي وبداية سؤال مستفزّ: ذلك لأنّك يا عزيزتي ما زلت أسيرة ثنائيّة «البدائي» الذي يمارس عن عفويّة وارتجال، و«المتحضّر» الذي تتّسم أفعاله بالضبط والفكر والاحترافيّة..! نظرتْ في عينيَّ بكلّ وداعة: دعينا من درس الأنثروبولوجيا.. كنت فقط أحاور نفسي.. لا تفسدي عليّ متعة هذا الصباح الأطلسي المنفلت.. عند العاشرة، كنّا متجمهرين حول حلقات الرقص، نتابع الفِرَق التي أتت من كلّ الجوار الأطلسي: إيفران.. آزرو.. الحاجب.. بولمان.. ميدلت.. خنيفرة.. كنّا نجلس على الأرض تمامًا مثل الجميع، ما عدا كاميليا التي وجدت صعوبة في «تربيع» رجليها، فقدّم لها الأهالي كرسيًّا

Twitter: @ketab_n

صغيرًا مصنوعًا من حبال «الدوم» المفتول. رأيت طارق في كامل بهجته الراشحة يشبك يديه في يديّ الراقصة التي تدانيه، وهي تشبك يديها في يديّ الراقص الذي يدانيها، وهكذا تتسلسل «تشابكات» الأيادي لتشكّل حلقة موسّعة. كان الراهب يجلس قربي على الأرض، ويحاول أن يجد وضعًا مريحًا لجسده، يمكّنه من متابعة الرقصات وتسجيل بعض الملاحظات في «مفكّرته». كنت أعرف أنّه يهيّئ لرواية جديدة. قلت له: أيّها الرجيم.. سأمنحك ما لم تحلم به.. وعلى عادته البذيئة، لم يتأخر ردّه: أتمنّى فقط ألّا «نمارس» عراةً فوق هذه الأتربة..! دفعت سبّابتي في جانب وجهه، وقلت له: ملعونة أمّك أيّها السفيه.. أنا أتكلّم عن روايتك القادمة.. لم تفارقه سخريّته، حين ردّ عليّ: وما وجه الغرابة..؟ الرواية مضاجعة راقية خارج كلّ رقابة شرعيّة.. طارق لا ينظر إليّ. يبتسم فقط، ويهزّ يديه في تناغم مع باقي الفرقة، ثم يسير الكلّ في دوائر متناغمة، وتعلو الزغاريد.

ـ هل رأيتَ تلك العجوز الجميلة التي ترقص يسارَ أخي طارق..؟ قلت للراهب. أجابني:

ـ نعم رأيتها.. أثارني شبابها المتجدّد وقدرتها على الحركة رغم سنّها..

ـ هي جارتنا..

قلت له بكلّ بساطة. لكنّ الراهب بفراسة الروائي أدرك أنّ لبساطتي قصّة غير عاديّة، وكأنّه يريد أن يؤجّج استفزازي:

ـ لا تقولي لي بأنّ جمالها المتجدّد وعنفوان جسدها ناتجان عن ألف مضاجعة ومضاجعة..!

لم أرِد الردّ عليه. كنت بين متعة المشاهد الراقصة والتفكير في

Twitter: @ketab_n

خالتي التي ترقص يسارَ طارق. اسمها تيثريت (النجمة) وقد جاوزت الستّين من عمرها الآن. والرجل الذي يهيّئ صواني الشاي ويسهر على توزيعها على الحاضرين هو زوجها..

انضمّت إلينا سامية وأحلام. سمعتا حديثي مع الراهب. قالت سامية:

- إمّا أن تتركونا نتفرّج بكلّ متعة.. وإمّا دعونا نعود إلى الخيمة لسماع باقي القصّة.. اتّفقنا على متابعة الفرجة.

الألوان الفاتحة، كانت ترسم مجد الإنسان البسيط فوق مرتفعات ثلجيّة قاسية وبهيجة، وضربات البنادير كانت تطرد غرابة العالم، وتمنح الأشياء أمومة عفويّة. خلف الأشياء المتوارية، الأشياء الرماديّة والقاتمة، كانت تأتيه في كامل أنوثتها الضاجّة، تسبقها مواويلها الأصيلة. هو تحت الأرزة الضخمة التي لم تهتزّ لحماقات الإنسان، كان ينتظرها. لا يعرفان غير شيء واحد: للجسد مبرّراته التي يجهلها العقل. تضيع فوق زغيبات صدره، ويفقد صلابة الواقع وهو يتنمّل عند ملامسة أسرارها. زورا، تناديه، فيجيب: تيثريت.

- يبدو أنّ عين الشرع غافلة عنكم في هذه المناطق.. يتدخّل الراهب في مجرى الحكي على طريقته الساخرة. يعقّب ميلاد:

- لا تنسَ أنّك تتحدّث عن مناطق «السيبة» أيّها العروبي الفجّ..

لم يكملا احتفالات القران الطقوسيّة حتى اشتعلت انتفاضات الجبال الأطلسيّة ضدّ المخزن. أخذته حرب العصابات وقساوة المرتفعات من حضنها ومواويلها، وضاع بين نياشين زعماء لم يعرف إن كانوا يبحثون عن وطن أو وثن لترسيخ أسمائهم على الصخور. في رشّاشه، كانت تيثريت توقظ الحياة من غفوتها تحت الأرزة الضخمة،

Twitter: @ketab_n

وتحتلّ المجال بشهواتها المنتشرة في أصداء الأطلس. انتظرتْ سنين وسنين. لم يعد زورا. فيما بعد رحلت تيثريت مع عائلتها إلى مدينة آزرو المجاورة، مع كلّ الذين لم توفّرهم انتفاضات الزعماء الأمازيغ ضدّ المخزن. ظلّ غائبًا. لكن تحرّشات الأيّام ووشوشات الأوصال وتنمّل الغواية بين فخذيها، قادتها خارج المواويل الصادحة بالفرح. حلّاق الحومة الذي يتبرّج تحت نافذتها ببياض أسنانه ووزرته الأنيقة. بائع المتلاشيات الذي ينهق كلّما اقترب من منزلها، فيرسل عبر ذبذبات الهواء جينات حرارته الجنسيّة. متعهّد الأعراس الذي يبعث شابّاته الجميلات من أجل إغراءات لا تقاوم. وشمس الصباح التي تعقب كلّ قساوة ثلج. كلّ ذلك كان يدفعها نحو نقطة واحدة: لا شيء يستحقّ استسلام الجسد لعفونة الزمان. وارتمت في مباهج الألوان التي كانت تتجدّد كلّ يوم في منزلها «المغلق» الذي كان يحرق، من أجل اللذّة، ألفَ بخور ونهد وحافظة نقود. عندما عاد زورا بعد سنين من غيابه، كان يحمل بلاهة ومجدًا معطّلاً، وتحت نافذة تيثريت، كان يشرب نبيذًا رخيصًا، ويرشد العابرين إلى فخذيها الخربين. لكنّها ما زالت ترقص كأيّة شابّة في العشرين من عمرها، وهو ما زال يوزّع كؤوس الشاي على المدعوّين.. قلتُ لهم. كنت أعرف أنّ الراهب لن يفلت هذا المشهد من بذاءته: كلّ ما في الأمر أنّ تيثريت ترقص كما تضاجع، وزورا يوزّع الشاي على المدعوّين كما يرشد العابرين إلى «سريرها».. آه أسلين.. كم أغبطك.. أنت سليلة حرّيّة لا يعرفها المتوّجون بالنصر..! التفتُّ إليه. لم يكن في ملامحه أيّ أثر للسخرية أو البذاءة. بحركة من عينيه، أدركت أنّه كان يكلّمني بكلّ ما تعنيه الجدّيّة من ألق. استدرت نحو بقيّة الشلّة. كنت أُعِدّ المفاجأة: إنّه جرحنا التاريخي.. وهو ليس «معرضًا لسائح يعشق جمع الصور»..

Twitter: @ketab_n

نحن خارج المأساة والملهاة. خارج النصر والهزيمة. خارج الجرح والشهوة. هل تريدون الحياة الحقيقيّة، أم تمثيل دور الحياة الحقيقي..؟

الصمت وحده، كان يعلن انكسار كلّ الأجوبة والقناعات..

ـ إذن هيّا احملوا خصاءكم وانصرفوا.. وغادرتُ الخيمة. كنت أعرف أنّهم سيلحقون بي. اقترب كمال: لن أكون جديرًا بالحركة العظيمة التي ولدت هذه السنة، إن اخترت تمثيل دور الحياة. خذينا إلى «غور» الأشياء الرمادي، لعلّ الفينيق يستفيق من احتراقه. حتى أنا التي كبرت في هذه المنطقة، لم أصدّق ما رأيته. كنت عارية أمامهم. لكنّي لم أخجل من ذاكرتي وانتصاب الأرز في الأحراش والمرتفعات. مثلما لم أخجل من مواويل الراقصات في أحيدوس، لم أخجل كذلك من حيّ البغايا. أنا التي سبقتهم إلى هناك. إلى المنبع الملتهب لجسدي، حيث لا فرق بين سقوط الثلج وبياض فخذين عاريين يتشمّسان على عتبة منزل أمام الجميع. تذكّرت الماركيز دو ساد واحتفاليّاته الماجنة، التي كانت تنتهي بطقوس تعذيب أجسادِ مومسات يُشهرن «الرغبة» إرهاصًا بقدوم النظريّة الفرويديّة. شابّات لم يتجاوزن العشرين، يبعن الهوى للعابرين، ويمارسن الجنس في بيوت حقيرة، فيما يلعب أطفالهنّ الصغار الكرة في ساحات الحيّ المتربة. لم يكن للصغار مجد يليق بقامة الكائن الإنساني. كانوا نتاج علاقات عابرة مع زبناء مجهولين، رحلوا تاركين «منيَهم» النتن منتشرًا تحت أشجار الأرز كلعنات شيطانيّة. أطفال بدون اسم، بدون هويّة. ربّما سيكونون يومًا مثل زورا، يرشدون الحصّادين والمهاجرين القرويين والعطّارين والعابرين إلى أفخاذ أمّهاتهم الخربة. وفي كلّ جمعة، كان صوت الشرع يزأر طالبًا بإعدام «الخطيئة» التي تدنّس شرف الأسلاف وصفاء العقيدة.

Twitter: @ketab_n

عندما عدنا في المساء إلى منزلنا بآزرو، لم يجد أيّ واحد منّا القدرة على الكلام. وحده كمال تلفّظ بقول شاطح: لا فائدة من لغة لا تتيح لك سوى التمجيد أو الإدانة.. في الليل، أمام الموقد المشتعل في المضافة الكبيرة، كانت يمّا تهيّئ العشاء، فيما كان يبّا يجهّز شاي المطر الثقيل الدافئ. سألتني يمّا بالأمازيغيّة: ماخ أمدوكانش لا سوسمن؟ (لماذا أصدقاؤكِ صامتون؟). قلت لها: شتاؤكم قاس أيّها الأطلسيُّون. لم تفهم توريتي، لكن يبّا كان يمتلك من الفطنة ما جعله يدرك مقصدي. أجابني بلغته المنسابة: وحدناخ أكتسينن لا طلاس ليترو أليك اتينزبز.. ترجمت للشلّة ما قاله يبّا: عندما يغنّي الأطلس لا أحد سوانا يدرك أنّه يبكي... استغرب ميلاد. اقترب من الموقد، ووضع يديه فوق ألسنة النار لتدفئتهما، وقال: من يراني الآن يعتقد أنّني أحرق يديَّ.. لكنّني فقط أنا أتلذّذ بتدفئتهما.. شرحت ليبّا ما قاله ميلاد. بقي صامتًا، واستمرّ ميلاد في الكلام: أنتم لا تبكون.. أنتم تحتفلون. مثلما أنّ يدي لا تحترق بل تستدفئ..

عندما عدنا، هاتفني النوري من باريس. أخبرني أنّه بصدد وضع اللمسات الأخيرة على سيناريو فيلم، يريدني أن ألعب فيه دور البطولة. كنت صريحة معه: اسمع نوري.. أنا لست مارلين مونرو.. لست قطّة جنس.. إن لم يكن جسدي امتدادًا لفكرة إنسانيّة عميقة وجريئة فلن أؤجّره للسماسرة.. ضمّني الراهب إليه في تلك الليلة. كنت مَعْنيّةً بصمته الذي أعقب رجوعنا من حيّ البغايا. قال لي: اسمعي أسلين.. سأستعير من حيدر حيدر بعض الكلمات وأحوّرها بحسب سياق أفكاري.. «البغاء هو الجدّ القديم، لكنّه ليس الأب المستقبلي أو الراهن».. كنت أعبث بشعيرات صدره النافرة. وجدت كلامه متحفّزًا مثل قطّ ذكرٍ يستعدّ للقفز فوق أنثى ساخنة: لِنُسَمِّ الأشياء بمسمّياتها..

Twitter: @ketab_n

ما رأيته هو البغاء.. وهو مدان، ليس لأنّه لاأخلاقيّ.. ففي نهاية المطاف، لا فرق بينه وبين ما كان يمارسه الحكّام على جواريهم وأملاك يمينهم.. هو مُدان لأنّه يدوس على كرامة الإنسان ويفرز بؤسًا منبوذًا يتقمّص هيئة أطفال لا يصنعون مصيرهم.. قلت له: البغاء في كلّ مكان.. فلماذا هذا الغضب..؟ بحركة عصبيّة، تناول سيجارة وأشعلها: لماذا أنا غاضب..؟ لأنّ الجسد بالنسبة لي مثل الفكر، لا يجوز لهما أن يكونا عاهرين. أستسمحك مرّة أخرى أيّها الروائي السوري.. «هذا الوطن البائس لا أمل منه. وُلِد رميمًا وسيموت رميمًا، لأنّ شمس العقل تتطلّب عصرًا جيولوجيًّا جديدًا لكي تشرق». لكنّنا لم نستسلم لوضاعة الحزن. أصررنا أن نمنح جسدينا كلّ ما يليق بهما من عشق لذّويّ صوفيّ:

غدٌ بظهر الغيب واليومُ لي

وكم يخيب الظنّ في المقبلِ..

قبيل الصبح بقليل، وقبل أن نستسلم للنوم، قلت للراهب: ماذا سيكون موقفك حين تراني عارية في فيلم النوري القادم..؟ أطفأ لهيب شفتيه فوق شفتيّ، واحتضن نهديّ معًا بكلّ حنوٍّ، وقال: من أين نأتي بجمهور يشبه رسّامًا تقف أمامه أنثى عارية، ولا يرى فيها إلّا مواطن الجمال الذي سيظلّ خالدًا داخل إطار اللوحة، بعد أن تموت الأنثى كأيّ شيء متلاش..؟ قرصت فخذيه المزغبتين، وعقّبت: من العار أن تساوي بين رسّام وخادم مخصيّ.. ونمنا كأيّ ملعونين.

في «**المثلث الأحمر**»، كان للشمس التي تتسلّل في خجل إلى المكان، دفءُ اللحظات الشريدة التي يلتقطها الفنّان من العدم، فتنفث الحياة في الضياع. أمامي ميلاد في كامل صمته المتوثّب، يحفر في

Twitter: @ketab_n

أدغال وعيه عن أسئلة جديدة، وكمال حاضنًا أحلام بين ذراعيه، يستعيد المشاهد التي ضجّت في خلاياه، وكاميليا وسامية والراهب يتذوّقون الفطور بقهوة بحليب وشطائر ساخنة من البتي بان. الصبيّة النادلة بشعرها الأشقر وسروالها الجينز اللاصق وعينيها البذيئتين، كانت تؤثّث المقهى لاجتراح الفضول الذكوري الذي يحوّل أمراضه المزمنة إلى سخريّات لاذعة. اكتفيت بقهوة سوداء خفيفة برغوة بيضاء. لم أستحمل الاستيقاظ في التاسعة صباحًا. مناخ الرباط البحري الرطب، يثقل على الجسم ويخدّر الأعضاء. لكنّنا كنّا على موعد مع باقي الشلّة في «المثلّث الأحمر». كنت متلهّفة لإكمال ما بدأناه من حوار في مرتفعات الأطلس المتوسّط. كلّ هذا التاريخ مزيّف.. فقط لأنّه ينكر ألق المواويل على شموخ الفنّ.. قال الراهب، قبل أن يردف: تاريخ مزيّف.. لأنّه صدَّق الثنائيّة التي وضعها للتقابل بين الفنّ والفولكلور.. نظرت جهة ميلاد. لم يكن صمته عاديًّا. كان يشرب قهوته على مهل، ويكتب في قصاصات بيضاء موضوعة أمامه. تدخّلت سامية: تذكرون قصّة الشعر العربي بالأندلس.. كيف أنكر ابن هاني، أوّل شاعر أندلسيّ كبير، كلّ هذا الامتداد الإسباني الأخضر، الأزرق والأبيض، ولم تر عيناه غير رمال الصحراء ذات الامتداد الأحادي الرتيب الذي يؤذي العين..

ـ لكنّ الأندلس أنتجت الموشّحات.. قالت كاميليا. ردّت سامية:

ـ صحيح.. لكنّ الشعريّة العربيّة الرسميّة ما زالت تنظر إلى الموشّحات كصرعة أو دلع صبياني لا يرقى إلى «طبقات الفحول».. جاء صوت ميلاد:

ـ لنعد إلى موضوعنا.. كلّ الأمازيغ يشتكون من تزييف

Twitter: @ketab_n

تاريخهم.. وهذا من حقّهم. لكنّهم لم يتجاوزوا هذه البكائيّة، وظلّوا أسرى مناحة تردّدها آهات المواويل وانثناءات الأجساد الراقصة.. قلتُ له: ماذا أفهم من كلامك سيّد ميلاد..؟ لم يجبني على الفور. انتظر أن يتفضّل أحدهم بالإجابة. ظلّ الجميع صامتين: نحن أمام سؤال التاريخ أسلين.. أنت تعرفين أنّ التاريخ وهم كتبه الفاتحون، ونشره الفرسان واعتنقه المهزومون.. صفّق كمال بيديه: هذا صحيح ميلاد.. لكنّ التاريخ لا يسير على إيقاع خطّي يكون فيه الفاتح منتصرًا دومًا والمغلوب منهزمًا دومًا.. نفضت كاميليا رماد سيجارتها في المرمدة، وقالت: إنّها جدليّة السيّد والعبد. صمت ميلاد. لم أر في عينيه كلّ هذه الوقاحة القلقة التي تتفجّر بالأسئلة: لا عذر للمنهزم إن لم يكتب تاريخه بنفسه.. قال وهو يضرب بيديه فوق الطاولة، ثم أردف: لا تختزلوا المسألة في عرب منتصرين ومسوَّدين وأمازيغ منهزمين ومَسُودين.. في تاريخ «شرعي» كتبه فقهاء البلاط، وتاريخ «متسيّب» تصدح به تضاريس الأطلس.. أحسست بانفعال زائد. لم أسمع ميلاد يتكلّم بهذا الشكل من قبل. قلت له: لكن هذه هي الحقيقة سيّد ميلاد..! ضحك بعصبيّة وأجابني: لا تكون الحقيقة واضحة كبياض جسدك إلّا في مجال المنطق. في التاريخ الإنساني، الأوهام هي التي غالبًا ما تصنع الحقيقة.. قولي لي أسلين.. ما الذي فعلتموه لكي تكتشفوا زيف التاريخ «الشرعي»..؟ تركتم المبادرة في الأوّل بيد المؤرّخ «الرسمي»، وفي فترة الاستعمار، تركتموها بيد المؤرّخ «الكولونيالي». أين آثاركم المكتوبة والموثّقة..؟ هل يوجد عصر تدوين أمازيغي..؟ أنت تعرفين أنّ الشعوب التي لا تكتب ولا تدوّن، هي شعوب بدون «تاريخ».. قفزتُ من مكاني. لقد استفزّني ميلاد: هل تقصد أن الشعب الأمازيغي هو شعب بلا تاريخ..؟ صوت

Twitter: @ketab_n

إيدير، كان يتغلغل في الخلايا وكريات الدم وهو يغنّي: آفافا ينوفا..
ربّما سمعت النادلة الشقراء حوارنا الصاخب، وأوعزت للشابّ الجالس خلف الكونتوار، أن يضع سي دي للمغنّي القبايلي الشهير. لم يعترض أحد على جمال وروعة الأغنية. قلت لميلاد: هذا أكبر ردّ على تهجّمك المجّاني..! بطريقتها الهادئة، لطفّت كاميليا الجوّ: non Asleen ne sois pas furieuse، وأكمل ميلاد: لا أسلين.. المسألة ليست بهذه الحدّة. أنا أحبّ هذه الأغنية كثيرًا، بل وكثيرًا ما بكيت مع بطلتها غريبًا. ولكن، ماذا تساوي أمام تاريخ تعتبرون أنّه يمتدّ إلى عصور الفراعنة الأمازيغ..؟ المنتصر لا يسود إلّا إذا وجد من يصدّق انتصاره.. أريد أن أسأل عن «الأثر المكتوب» الذي تركه الأمازيغ في مجال الشعر والنثر والنقد والفكر والتاريخ والأساطير.. لا تقولي إنّ ذلك محاه الفاتحون العرب بضربة سيف.. وإلّا كيف نصدّق أنّ «المكتوب» الفارسي والقبطي والفنيقي واليهودي والبابلي، لم يتعرّض لنفس «الجريمة»..؟؟ أخيرًا تدخّل الراهب: إذا كان التاريخ «الشرعي» يميّز بين «الفولكلور» والثقافة «العالمة»، فلأنّ الموروث الأمازيغي ظلّ يغتبط عبر التاريخ بكلّ ما يرتبط بـ «الأرض» و«الموال العفوي» و«المثال الشعبي» و«الحرّيّة الفطريّة». بقدر ما كان يحافظ على وهج الإنسانيّة في موروثه، بقدر ما كان يُديمُ «حالة الطبيعة» كفردوس وهمي. هدأت بعض الشيء. قلت لنفسي: ما دمت قد عرّيت جسدي على مرأى من الملأ، فلأستقبلْ لسع البرد وشتائم المارّة، لكنّي سأفضح أمراضهم «الشرعيّة». للأسف.. قلت.. نحن أمام إحراج تاريخي: إمّا أن نصنع تاريخنا بما تدوّنه قلوبنا وعقولنا وحروبنا، وإمّا أن نستمرئ تاريخًا «حقيقيًّا وجميلاً»، لكنّه لا يوجد إلّا في أوهام الذاكرة.. أصابتني انتقادات ميلاد بالحيرة. أربكتني عيناه المتوثّبتان

Twitter: @ketab_n

وخطابه الذي يشبه عويل ذئب متوحّد في مرتفعات جليديّة.

ـ لا تسيئي الظنّ بي أسلين. لقد تربّيت في منطقة تماسّ بين العرب والأمازيغ.. حيث لا مكان للعرق النقيّ الأصيل.. تكفّل كمال بالجواب نيابة عنّي: ليست مسألة أصل وعرق وفرع أو هيمنة أو خضوع.. المسألة هي كيفيّة تمثّلنا للتاريخ الذي تنبني عليه رؤيتنا لذاتنا. أنت ما زلت أسيرَ تاريخ تقليديّ لا يؤمن سوى بـ «الأثر المكتوب». علينا إذن أن نعدم نصف تواريخ العالم لأنّها لم تفرز أثرًا مكتوبًا. الحضارات الأميركيّة القديمة والقبائل الإفريقيّة والآسيويّة المسمّاة «بدائيّة»، لم تكتب ولم تدوّن. هل علينا أن نعدمها وأن نقصيها خارج التاريخ الإنساني..؟ ما القانون الذي نستند إليه..؟ من خوّل لهذا «العقل الإلهي» أن يصدر هذه الأحكام..؟ لعلّ من حسنات الأنثروبولوجيا المعاصرة أنّها أعادت النظر في كلّ هذه الأحكام التي رفعناها إلى درجة التقديس.. الكولونيالي رغم كلّ شيء قصَدَ الذاكرة الشفويّة والطقس اليومي والأدوات الطينيّة والخزفيّة والمحكيّات الشعبيّة والأهازيج الفولكلوريّة، وانصاع لمنطقها «الخفي»، وكشف عن «لاوعيها» الخفيّ، وساوى بينها وبين «التاريخ الشرعي».. بفضله تعرّفنا على كنز لا يقدّر بثمن كان مطمورًا تحت الطبقات الكلسيّة الصلبة للذاكرة. لقد قام بذلك لأنّه كان يعرف أنّ «المدوّن» أو «الوثيقة» ليسا سوى ادّعاءين ماكرين ببراءة «الشهادة التاريخيّة»..

لم تتوقّف عينا ميلاد عن نهب المجال. كنت أعرف حماسه الأمازيغي، وأعرف ما حدث لأمّه. لكنّه لم يُبدِ في يوم من الأيّام كلّ هذا النزيف البصري. بين أصابعه تصل السيجارة إلى «المصفاة»، وتكاد تحرقها، وتتكفّل سامية بنزعها منه وسحقها في المرمدة: لكن كمال.. أنت تعرف ما الذي قام به الكولونيالي.. لقد انتهى إلى

Twitter: @ketab_n

ابتكار تاريخ إيديولوجي يميّز بين العرب والأمازيغ..

ـ نعم ميلاد.. لكن هذه التفرقة كانت منذ ابن خلدون، بل وحتى قبله بكثير.. دائمًا كان هناك «البربري» و«العربي».. لكنّ الكولونيالي أعاد الاعتبار لـ «عفويّة» الهامش والمنفلت والخفيّ، ضدًّا على «قداسة» المكتوب والشرعي والمهيمن.. أحسسنا جميعًا أنّنا أسرفنا في الحوار، وأثقلنا على حميميّة المكان. نهضت كاميليا واقترحت: ما رأيكم لو نذهب إلى البحر ونأكل سمكًا مشويًّا على الشاطئ..؟ كنت محتاطة ومتوجّسة من خطواتي، وأنا أسير فوق الرمال الذهبيّة لشاطئ «القصبة». لم يكن قد مرّ زمان طويل على حادثة الجسد العاري على الخشبة. كانت صورتي المقرونة بالفضيحة قد تصدّرت الجرائد. كنت خائفة من انتقام «أصولي» أو طعنة غادرة لشرف مثلوم. لكن ذلك لم يحدث. أُثخِنتُ قذفًا وسبًّا على مدى الأسبوع الذي أعقب المسرحيّة الفاضحة. لكن لا أحد اعترض سبيلي أو سبّني في الشارع أو قذف بيتي بالحجارة أو أهان أسرتي في البلدة. ربّما في قرارة الأعماق، كان الغاضبون يجدون مبرّرًا لعريي، باعتباره حقيقة مرتبطة بالجسد الذي لا يمكن إنكاره. اكتفينا بالمشي فوق الرمال حفاةً كالبدائيين، وشفّافين كالأزرق الممتدّ أمام أوجاعنا. سامية تقرأ أشعارها التي يمنعنا هدير الموج من سماعها بكلّ وضوح، ويحاول ميلاد أن يردّ عليها بأشعار يمنعنا نزيف صوته من السفر معه. أحلام ملتصقة بذراعيْ كمال، وأنا وكاميليا والراهب خلف الموكب، نلتقط بين الحين والحين قواقع بلا معنى، وكأنّنا نوهم أنفسنا بأنّنا نخطّ فوق الرمال «أثرًا» قابلاً للمحو في كلّ لحظة لفسح المجال لـ «أثر» آخر، لن يتمتّع إلّا بدهشة المحو اللامتناهية. التفتَ إليّ الراهب، وقال وهو يفرك الرمال بين يديه: إنّك تفتحين

Twitter: @ketab_n

علبة الباندورا أسلين.. أجبته على الفور: لو لم تفتح علبة الباندورا لظلّ العالم سجينًا لأقدار الآلهة. علبة الباندورا هي الاعتراف بوجود المرض والشرّ والألم كمعطيات في العالم.. صفّقتْ كاميليا. وكنّا نسير نحو مطعم الشاطئ لنأكل سمكًا مشويًّا مصحوبًا بشاي بلدي مُعَدّ فوق الحطب. ونحن ننتظر أن يضع النادل الصحون فوق الطاولة، سمعنا ميلاد يغمغم ببعض أشعاره المتشائمة. على الفور عقّب عليه كمال: أهكذا ينظر شاعر الحياة إلى المستقبل..؟

ـ شاعر الحياة يا سيّد كمال، ليس صبيًّا يتبع المجاذيب بمجمر مشتعل في الحارات الشعبيّة.. أو، دعني أبسّطها لك بعاميّتنا المغربيّة: أنا ماشي تابع جيلالة بالنافخ..! الراهب الذي يحسن الإنصات مثلما يحسن السخرية، رفع كأس شايه في وجه ميلاد، وقال له: أحيِّيك أيّها الشاعر.. منذ عودتنا من الأطلس وأنت ضائع بين جبّتين: شاعر الحياة وفيلسوف التاريخ.. أجابه ميلاد على طريقته:

ماذا تصنع بأرضك أيّها العريف

وأنت تقفز كالسناجيب

من محو المستقبل

إلى رمح البدايات المغروس في النزيف..؟

وعلى سجيّته الساخرة، أجاب الراهب: سأحارب طواحين الهواء.. رغم كلّ شيء، كنّا منتشين. كنّا موصولين بمياه جوفيّة لا تنضب. أحلام التي لم تتكلّم كثيرًا ولم تتدخّل في نقاشاتنا الصاخبة، أعادتنا إلى قلقها الجميل: إذن أجيبوا أيّها المبدعون التافهون: ما الذي يعطي لرؤاكم كلّ هذا الجمال..؟ في المسافة الممتدّة من شساعة البحر إلى قلوبنا، كنّا منخرطين في الغواية. نأكل سمكًا مشويًّا

Twitter: @ketab_n

بكلّ «عفويّة البدائيين»، ونمحو كلّ الآثار التي تتركها خطواتنا على الرمال. عاد ميلاد إلى لفحنا بحدوسه: لو كان الأمر يتعلّق فقط بمحض جمال لغويّ وبلاغيّ فقط، لكانت إبداعاتنا مثل القلاع والأبراج التي يبنيها الصغار من رمال الشاطئ بكلّ حبّ ومتعة وشوق، ويدافعون عنها بكلّ شراسة.. لكنّهم يهدمونها عندما يرحلون.. اللغة، سيّدتي أحلام مثل الرمال، ليس مادّة صلبة.. يحتاج البنّاء الجمالي إلى ما يفوق «رمليّة اللغة»..! كان تحليل ميلاد نافذًا وعميقًا ومدهشًا. لكنّه كان ينطوي على بعد ناقص. تدخّلت أحلام:

ـ نتحرّق شوقًا لسماع أجراسك أيّها البوذيّ المنعزل..

ـ لا تُدَقُّ الأجراس إلّا لتعلن صلاة أو موتًا أو حربًا..

ـ فماذا تعلن أجراسك إذن سيّدي البوذيّ..؟ قالت أحلام.. ردّ ميلاد: مثلما أعلنت أجراس أسلين عن مشاهد البغاء في حارة المومسات، أدعوكم إلى خبايا الظلام في حواري العاصمة.. لا يمكن للّغة أن تنتج جمالاً يصمد أمام «غارات الأطفال» ومدّ البحر، ما لم تتّكئ على ديمومة الحياة في كامل مفارقاتها المدهشة.

في الليل، تجوّلنا مثل المتشرّدين في حواري الرباط المعتمة والبائسة. أكواخ القصدير، ومجاري الحثالة، وماسحو الأحذية العائدون للمبيت فوق مزابل الآخرين؛ بائعو الحشيش المغشوش والنبيذ الرخيص؛ قامات الرجال المنكسرة وهم يتنفّسون خراب العالم في كلّ ثانية؛ العصابات الرهيبة التي تسطو على خوف البسطاء من المجهول، وروائح العفن المنبعثة من الأكلات الشعبيّة التي يقدّمها ملتحون على عربات مهترئة.. كنّا ننتقل من زنقة إلى زنقة حذرين مثل مقاتلي عصابات guerilliros يتشكّكون في كلّ رفّة عين! لم يعترضنا

Twitter: @ketab_n

أحد. لكن كاميليا أعادتنا إلى «صلابة» الاتّزان: خطوة أخرى وسأكون أنا الضحيّة..!

عدنا أدراجنا. كان العفن في أنوفنا والسواد في عيوننا والرعب في خلايانا. تفطّنت سامية إلى مقصد ميلاد: هل هذا هو ما يمنح الجمال الإبداعي إسمنت الديمومة..؟ لم يقل ميلاد شيئًا. رفع يديه كأنّه يوافق على ذلك، وأكملت سامية كلامها: لكن.. مودي.. كيف نحوّل العفن إلى فنّ..؟ كيف ننتج «القبيح الجميل»..؟ عقّب الراهب: إذن نحن بين جمال شكليّ واهٍ يقوم على «اللغة»، وجمال فجّ يقوم على «الواقع».. التراجيديا التي يجد المبدع نفسه منذورًا لها هي كيف يتجاوز مجرّد التوفيق بين التصوّرين إلى إنتاج «انفلات جمالي فذّ»..؟

لم ننم تلك الليلة. منحتنا السهرة شهوة الدفء والحوار والمغامرة. عندها قلت لنفسي: كيف يتجاوز جسدي مجرّد اللغة القائمة على العريّ، ومجرّد البكائيّات على «أطلانطس» مفقودة لإنتاج «مرحلة» موغلة في «الحياة»..؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ـ ١٩ ـ

كدت أستسلم للنوم بعد ليلة سردٍ مخمورة. المنفضة مليئة بأعقاب السجائر، وفي الخارج صمت الموتى. لكنّه اقتحم فجأة غرفتي وشنق رغبتي في النوم. قفزت مذعورًا من فراشي وضغطت على زرّ الإنارة. وجهه الطفولي لم يتغيّر أبدًا. حتى ضحكته الساخرة كانت تملأ مساحة ملامحه الشيطانيّة. بين يديه حصاة صغيرة بحجم حبّة العدس أو أكبر قليلاً. صرخت، لكن صرختي كانت مكتومة: أنت..؟! جلس على حافّة السرير بكلّ هيئته الطفوليّة، وابتسم: نعم.. أنا..! ضغطت زرّ الإنارة لأقطع الكهرباء، ثم أعدت ضغطه من جديد. بين الظلام والضوء، كنت أحاول أن أطرد كوابيسي. كان ما يزال جالسًا على حافّة السرير، بالابتسامة الساخرة نفسها: نعم أنا.. ألا تتذكّرني..؟!

بين الدهشة والرعب، كان لساني مقصلة، وكان الكلام يشبه سجينًا في لحظة إعدام. بين يديه الحصاة. يقذفها بظفر إبهامه، ثم يتلقّفها براحة يده. كان هو. لم يكن هناك مجال للشكّ. سمعته يقول: ألا تقدّم لصديقك مشروبًا..؟

Twitter: @ketab_n

فتحت علبة هَيْنِكن، وقدّمتها له. تذوّقها على مهل، ثم بدأ يشربها على جرعات متأنّية. في المرّة الأخيرة التي رأيته فيها، كنّا متجمهرين أمام بوّابة الابتدائيّة ننتظر أن يعلّق المدير سبورة نتائج امتحانات «الشهادة». كنت متوتّرًا وشاحبًا، وهو كان «حكيمًا» في وفاق مع «القدر». قرأت اسمي ورقمي على السبّورة. كنت ناجحًا. هتفت بكلّ هستيريّة: نجحت.. نجحت. عانقني بعض أقراني الذين نجحوا كذلك. لم أسمع صوته. لم أقرأ اسمه ورقمه. لم أره حتى. انسحب إلى الأبد، وابتلعه صمت ظالم. لم يترك أيّ أثر يدلّ عليه سوى ندبةٍ أسفلَ صرّتي. قلت له، وقد هدأت بعض الشيء: كيف خلدتَ إلى الصمت طوال هذه السنين، وعدت للظهور بشكل مفاجئ..؟ أين كنت طوال هذه المدّة..؟

الحصاة بين يديه يقذفها ويتلقّفها، والبيرة بين شفتيه، ونظراته تفترس المجال. أحقًّا كنتُ غائبًا عنك كلّ هذه السنين..؟ كم أنت جاحد يا صديقي..! فتّشت عنه طويلاً بعد إعلان النتائج. لم أعثر له على أثر. شبح مرَقَ مرّة واختفى إلى الأبد. وتكفّلت سنوات الدراسة بالإعداديّة والثانويّة بنسيانه. لم أجد جوابًا لأسئلته الماكرة. فتحتِ الحصاةُ بين يديه كوّةً في لاشعوري. هو لم يخترق جسدي فقط. لم يتسبّب في كيٍّ ذاكرتي بسفود حامٍ. هو أحرق كلّ علاقة بيني وبين أمّي، ورفع سورًا صينيًّا بيني وبين الطفل الذي كنتُ. كنت أوغل في الكتابة بمقدار ما أوغل في حقل ألغام، أحاول أن أتثبّت من خطواتي، كلّما أردت أن أضيف خطوة جديدة لمغامرتي القاتلة. كنت أشبه جنديًّا متخصّصًا في نزع الألغام وقراءة خريطة الحقول الملغومة، وليس له سوى الجرأة والاحتراس ومجابهة الموت في كلّ ارتعاشة يد. شدّني من ذراعي بكلّ عنف، ومدّني على السرير: اجلس أيّها الراهب..

Twitter: @ketab_n

هكذا يسمّونك.. الراهب..! أنت لم تكن تخطو فوق حقل ألغام. كنت تهرول فوق أوهام، وخلفك كانت تحترق حيوات حقيقيّة، لم تكلّف نفسك حتى عناءَ بعثِ ورد إلى جنازاتها.

في الغرفة الضيّقة ذات النافذة الصغيرة المطلّة على الحيّ البائس، كنت أطلّ على العالم، وأنا أهرب من نظرات أمّي التي من فرط شراستها، فقدتْ كهرباءها وتحوّلتْ إلى أنين منكسر. منذ «الحادثة»، لم نتبادل كلمة أو عناقًا أو ألمًا. وحتى عندما جاءت نساء الحيّ لتهنئتها بنجاحي في الشهادة، لم تجد ما تقوله لهنّ سوى: اللي نجح نجح لراسو..! ولم تقدّم لهنّ سوى شاي بارد، تركنه فوق المائدة وانصرفن مندهشات. كنت أجد فطوري جاهزًا كلّ صباح. أتناوله على عجل وأذهب إلى المدرسة. وعند عودتي نجتمع معًا حول الغداء، ولا نتبادل سوى أصوات المضغ المزعجة. كانت نظراته تشبه نظرات صعلوك صغير متحكّم في الحومة بأكملها: هل هذا هو الثمن الذي تجبر الآخرين على دفعه لكي تنتج روائعك الروائيّة..؟! هي كانت قاسية معي عندما صعقتها مشاهد الالتحام بيني وبين جلال. وكأيّ أمٍّ تربّتْ في مجتمع فحولي، لم تغفر لطفلها الصغير ألّا يكون في ذلك المشهد فحلاً، ولم ترد أن تعترف بأنّ الأمر كان مجرّد لعبة متشيطنة بين طفلين متشيطنيْن. لكنّني كنت أقسى منها. واجهتُ كيَّها بصمت قاتل وقطيعة إجراميّة. هبّ واقفًا، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا. لم يكن جلال الذي عرفته في زمن ما لا أذكره إلّا حين أتحسّس الندبة أسفلَ صرّتي. كان جلالاً آخرَ، نطّ فجأة من ثقوب الذاكرة ومن سواد الحبر في رواياتي. في عينيه غابات تحترق، وغد يقف على المقصلة.

ـ أيّها المجرم.. هل تعرف ما الذي فعلتَه..؟

لم يكن لكلماته معنى بالنسبة لي. أدرك التباس الكلمات بالنسبة

Twitter: @ketab_n

لي، فازداد عنف غضبه. تناول ملابسي ورماها في اتّجاهي: هيّا البسْ.. سنخرج اللحظةَ لترى كلّ شيء..!

انقذفنا في ظلام صامت. الطرقات خالية إلّا من بعض الأصوات المتقطّعة والأضواء التي تلمع عن بعد. حاولت أن أتملّص منه، لكنّه كان يُحكِم قبضتيه الطفوليّتين حول عنقي: على الأقلّ.. قل لي إلى أين تقودني..؟ صفعني بكلّ قوّة.. كان المشهد مريبًا. غلام صغير لم تأكل منه السنوات، يجرجر رجلاً تجاوز عقده الرابع!

ـ أحقًّا لا تدري إلى أين أقودك..؟ في عينيَّ رعب مناضل يقتاده البوليس السرّي فجرًا إلى مكان مجهول. لم يكن للكلام أيّة دلالة. كنت ضائعًا بين زمانين: زمان جلال وزماني. هل لاحقتني الذاكرة إلى حدّ الهذيان..؟ العابرون القلائل في ذلك الفجر الغامض، كانوا يمرّون بقربي، فأحسّهم متوجّسين من خطواتي وهيأتي وشطحات الكلام على لساني. الفضيلة الوحيدة التي اتّسم بها جلال هي أنّه لم يبح بسرّنا لأحد. كنت دومًا تحت تهديده، وكنت أستجيب للعبه «الجسدي» الذي لا ينتهي. قال لي يومًا: أنا لم أوجد إلّا لأنّ أبي ضاجع أمّي، فلماذا ننظر إلى العلاقة بينهما بنوع من الإدانة والتجريم..؟ دومًا كنت أسمع الجارات يقلن لأمّي: المرأة التي لا تنجب يكون مصيرها الطلاق. لكنّني، كنت أستغرب من تحويل العلاقة الجنسيّة بين رجل وامرأة إلى سرّ لعين. لذلك، أنا أنتقم من هذا السرّ، من هذه النظرة المنافقة. جسدي ملكي.. ولكنّه مباح للمتعة التي أتحرّك نحوها..

في اليوم الذي اجتزت في امتحان الشهادة بنجاح، توقّف كلّ شيء، لأنّ الجسد الآخر اختفى. اختفى جلال.

Twitter: @ketab_n

ـ سأقودك إلى البلدة.. أعتقد أنّك ما زلت تذكر البلدة..

قلت له: في هذا الوقت المتقدّم من الفجر.. لن نجد نقلاً..

أشار بأصبعه إلى مقهى صغير، كان نادله منهمكًا في صفّ الكراسي وترتيب الطاولات وكنس الأرضيّة. سنشرب قهوة وننتظر.. دخلنا المقهى وجلسنا في ركن قصيّ. من بعيد، قال لي النادل: ما تزال الماكينة باردة.. سأنتظر، قلت له. صوت الماكينة وهي تعبّ ماء الصنبور وتجعله يغلي في جوفها، وصوت حركات النادل وهو يغسل مصفاة الماكينة ويملأها بالقهوة، ويديرها بإحكام أسفلَ الآلة التي بدأت بخاراتها تصفِّر عبر أنابيب متدلّية. كلّ ذلك فقط هو ما جعلني متيقّنًا أنّني أجلس فعلاً في مقهى قريب من محطّة النقل وبعيد عن منزلي. عندما قلت للنادل: قهوتين سوداوين من فضلك.. نظر في عينيَّ باستغراب، وقال: أإلى هذه الحدّ تريد أن تكون متيقّظًا..؟ قلت له: لم أفهم.. لم يردّ عليّ، وذهب لإحضار المطلوب. ضحك جلال: أنا لست حقيقة إلّا بالنسبة لك.. أحضر النادل فنجانيْ قهوة من دون سكّر مع كوب ماء. قلت له: أين كوب الماء الثاني..؟ من وراء الماكينة التي كانت تصفّر، أجابني: كوب ماء واحد يكفيك سيّدي.. عندما صفّقت بيدي أنبّهه إلى النقود التي تركتها على الطاولة، لاحظ النادل أنّ فنجان القهوة الثاني ظلّ مليئا. عندما نشرت روايتي، قالت لي سامية في حفل توقيع أقيم بالمناسبة: إلى أيّ حدّ يمكن للروائي أن يتماهى مع أبطاله..؟ أجبتها على الفور: إلى أيّ حدّ يمكن للأبطال أن يتماهوا مع الروائي..؟ وكانت تلك المرّة الأولى التي أتعرّف فيها على سامية، بعد أن تعرّفت على كاميليا وأحلام وميلاد. دعوتهم بعد انتهاء حفل التوقيع إلى مقهى ميرامار على شاطئ تمارة. وأكملنا نقاشنا. لاحظت سامية أنّ الروائي يتماهى مع

Twitter: @ketab_n

أبطاله عندما يتّخذ السرد مسارًا متعرّجًا ودوريًا وحلزونيًا، حيث تتداخل الأزمنة وتتقيّح الذاكرات. لكن عندما يتّخذ السرد مسارًا خطّيًا مستقيمًا وموضوعيًا، فإنّ ذلك يشير إلى وجود مسافة باردة بين الروائي وكائناته الورقيّة. عقّب ميلاد: هل تستطيع الرواية حقًّا أن تكون موضوعيّة على شاكلة الرواية الجديدة في فرنسا، حيث تتشيّأ العلاقات وتختفي المشاعر الذاتيّة للمؤلّف..؟ بحسّها اللمّاح الذي يلتقط التفاصيل المهملة، تدخّلت أحلام: يقف الروائي بين إحراجين: الرواية الإنشائيّة القائمة على الذاتيّة والمشاعر، والرواية الموضوعيّة القائمة على التشيّؤ وموت المؤلّف.. وبينهما، كان جلال يسحبني نحو محطّة النقل. وسافرنا إلى البلدة.

أحاول أن أتذكّرها، تلك البلدة المتفجّرة في الذاكرة. لم أرها منذ أن غادرتها في العشرين من عمري من أجل متابعة دراساتي الجامعيّة. مرّ الآن أكثر من خمس وعشرين سنة. عمر بأكمله كاف لكي يجعلني أنسى أنّني لم أنطق تمامًا بكلمة «مّي» منذ حادثة «الكيّ». أشجار الكالبتوس التي تملأ جنبات الطريق، و«جنانات» الصبّار التي ما زالت تنتشر على الأطراف. مزيج من الأصوات البشريّة والحيوانيّة: نهيق الحمير ونباح الكلاب، وزعيق الفلّاحين الذين يعبرون بمواشيهم المحمّلة بالخضار نحو «مارشيات» الأحياء الفقيرة. وأنا أركض خلف جلال لاهثيْن في اتّجاه لعب محرّم حكَمَ عليّ، ذات أصيل قائظ، أن أعدم من لساني كلّ كلمة تعني الأمومة. كتبت قصّتي الأولى عن طفل قتل أمّه وحنّطها، واحتفظ بها في غرفته الحقيرة، فقط لأنّها توعّدتْه بكلّ حرائق الربّ، عندما فاجأته يلهو بقضيبه. كنت قد شاهدت قبل ذلك فيلم «ذهان» لمخرج الرعب ألفريد هيتشكوك، وتأثّرت بمشهد البطل الذي احتفظ بجثّة أمّه في المنزل نفسه، وكان يتواصل معها كما

Twitter: @ketab_n

لو كانت ما تزال حيّة. أستاذ الأدب العربي الذي قرأ قصّتي، كان صاحب فكر تقليدي، ومشبعًا بروايات المواعظ التي كان يكتبها جورجي زيدان والمنفلوطي وأحمد علي باكثير. نظر إليّ بنوع من الاحتقار اللاهب، وهو يرمي ورقتي على الأرض: ما هذا «الخراء»..؟ أيّها اللقيط.. هل تعتقد أنّ قلمي سيُدَنَّس بهذا المسخ..؟ اخرجْ ولا تعد إلى قسمي حتى تكتب ملخّصًا من رواية «جيل الظمأ» المقرّرة لكم..! أقوى من المهانة الاستسلام إلى غباء مدرّس يجبرك على تجرّع رواية سخيفة تشبه مرقًا بائتًا. لكنّي، كنت مجبرًا أن أشيد بالفيلسوف الشخصاني المغربي الذي نزل من البناء النظري الشامخ لإيمانويل مونييه نحو سرد سخيف، يمحو كلّ أثر للفلسفة والعمق النظري.

استغرب السائق وأنا أدفع له ثمن مقعدين: ولكنّك بمفردك سيّدي.. التفتُّ ناحية جلال. المكر نفسه في عينيه. اللعب نفسه الذي يقود إلى المهزلة القاتلة. لم أقل للسائق شيئًا. استرددت الأجر الزائد، وانحشرت في المقاعد الخلفيّة. وأخيرًا تحرّكت السيّارة بمقعد وهمي زائد. في مقهى ميرامار على شاطئ تمارة، كانت سامية تكمل حدوسها حول الرواية: هل يمكن تصوّر رواية دون وهم..؟ بسرعة ردّ ميلاد، وهو ينفث دخان سيجارته الشقراء في سماء الشاطئ الزرقاء: أصحِّح سامية.. دون استيهام..

في ليالي الأرق الطويلة، كنت أسامر أبطالي. أضاجع بطلاتي. أذهب إلى «البيوت المغلقة» مع عاهراتي، وأشنق كلّ الوعّاظ الذين يطلّون بوجه كالح ومرعب، لكي يعيدوا السارد إلى رشده. أتذكّر غبرييل غارسيا ماركيز الذي أصيب بالحمّى عندما وصل أخيرًا إلى موت العقيد أوريليانو بويندیا. كان يصعد الأدراج وهو ينادي محمومًا

Twitter: @ketab_n

زوجته: مرسيدس.. مرسيدس.. لقد قتلته.. قتلته.. قتلت العقيد أوريليانو بويندیا..! لم أكن في رواية. كانت سيّارة نقل حقيقيّة، وكان السفر حقيقيًّا، لكنّ الحمولة كانت بمقعد وهميّ. إلى جانبي، كان جلال وكان الآخرون وكان القدر في الانتظار. تدخّلت كاميليا: تذكّروا أنّ الحقيقة «وهم نافع»..! قلت: لا نتحدّث عن الوهم الذي يستجيب لغريزة البقاء. ليس هذا هو الوهم الروائي..

انتبه جلال إلى خواطري. كان شيطانًا عليمًا بالخبايا: أنا الوهم الروائي..

لكن.. انتظر. وصلنا. لم تكن المسافة بين العاصمة والبلدة تزيد عن ستّين كيلومترًا. وصلنا، وكانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحًا. أحد الركّاب قال لي بكلّ براءة: يبدو أنّك لم تنم يا سيّدي.. كنت تتكلّم كالحالمين.. ضحك جلال ومنعني من الكلام: والآن.. إلى أين سنذهب أيّها الوهم..؟! يجب أن تشرب ما يكفي من قهوة البلدة لكي تطلّ على عالمك غير الروائي..! قال لي وهو يدفعني نحو مقهى صغير وشاحب. ارتشفت قهوة «ماسخة» سرعان ما بصقتها، ولم أطق النظر في بلاهة الوجوه القليلة التي كانت تملأ المكان. وجوه ذكّرتني بكهف أسطوري لم تتغيّر ملامح ساكنيه رغم مرور القرون. غادرنا المقهى. لم تتبدّل البلدة كثيرًا. الوجوه نفسها التي ترافق الدواب نفسها العابرة للطرقات المتّسخة يوميًّا في اتّجاه مزيد من البؤس. الرائحة نفسها التي لا تاريخ ولا أسوار لها، ولا مآثر تدلّ على خطى من سكنوا الأشياء وحوّلوا قساوة العالم إلى مدائن وأساطير و«مكتوب». الفراغ الذي ولدت فيه وهربت منه وحملته كالجمر في حواسي، أعود إليه الآن، كما يعود أوليس إلى بينلوب المنتظرة خلف نوْلها في إيكاطا. كان ميلاد صادقًا، وكأنّه يقرأ أعماقي، عندما قال لي: الوهم

Twitter: @ketab_n

الروائي تعويض عن فراغ حقيقي يعيشه الكاتب.. أعرف الآن لماذا ارتقيت كلّ هذه الأوهام، وخلقت شخصيّة أخرى اقتنع الأصدقاء بأن يسمّوها: الراهب..

لم ألتفت حين سمعت أحدهم ينادي: مصطفى.. مصطفى..

لم يكن الاسم يعني لي شيئًا. لكنّ الشخص استمرّ في مناداتي: مصطفى.. مصطفى شفيقي.. وأمسكني من ذراعي. التفتُّ إليه. كان بسيطًا ومنشرحًا وبملامح ودود. قال لي: ألا تعرفني..؟ أنا حسن بنعلي.. كنّا معا في الإعداديّة..

حاولت الاعتذار. لكنني تصنّعت معرفته: آه.. نعم.. حسن.. أذكرك.. ضحك كطفل، واستمرّ في كلامه: كلّ هذه الغيبة يا رجل.. لماذا..؟ لم أرك منذ سنوات طويلة..

كان يمشي بجانبي فرِحًا باستعادة ذاكرة خاطفة. لم يتوقّف عن الكلام. وكان جلال ينظر إليه بنوع من اللامبالاة. أتذكّر تلك اللحظة الجميلة بكلّ افتتان.. لحظة قرأنا أسماءنا وأرقامنا على السبّورة.. لحظة النجاح.. الشهادة اللعينة التي جعلتني أرسب مرّتين.. لكن أنت مصطفى.. أنت نلتها من أوّل سنة.. كنت أهزّ رأسي فقط لكي لا أقطع كلّ مسافة للتواصل بيني وبينه. رغم أنّك لم تكن معي في القسم نفسه حين انتقلنا إلى الإعداديّة، إلّا أنّك كنت صديقي الذي لا أستطيع الاقتراب منه. إنشاءاتك وعلاماتك في العربيّة والاجتماعيّات، جعلت منك بطلاً في كلّ البلدة. ثم صمت فجأة. كنّا نمرّ أمام منزل عائلة جلال. التفتُّ نحو الغلام الذي يقود خطواتي متواريًا عن حقيقة النهار، ويدفعني نحو ما لا أعرف. لم يكن يبدو على جلال أيّ تأثّر. قالت عيناه: تلك قصّة أخرى..! بكلّ بساطة الأهالي، سمعت حسن

Twitter: @ketab_n

بنعلي يتمتم بصوتِ خفيض. كان يردّد الفاتحة. لم أفهم. ثم ضمّ يديه إلى صدره وجبينه وقبّلهما بشفتيه. كان يترحّم على روح ميت عزيز. الله يرحمك.. الله يرحمك.. غبت كلّ هذه السنوات وعدت لتموت وحيدًا في بلدتك..! أفزعني كلامه، مثلما استفزّتني بساطته الدينيّة. قلت له: من الذي مات حسن..؟ على الفور أجابني ببساطته البلديّة: هل تذكر أصدقاءنا بالحومة وبالمدرسة الابتدائيّة.. حميد.. رشيد.. قسو.. التيجاني.. بنموسى.. جلال..؟؟ أحسست بوخز إبرة ميتافيزيقيّة تشُكُّ لاشعوري. كلّ الأسماء التي ذكر حسن تلاشت في رماد الذاكرة، إلّا هو: جلال. نظر إليّ في نوع من الحياد، وأعاد ما قاله: تلك قصّة أخرى..! هو كان باردًا ومحايدًا كحكيم بوذيّ، وكان حسن مشتعلَ الوجدان كعجوز ثكلى. واستمرّ حكيه. أنت تعرف أنّه لم ينجح في الشهادة، وفُصِل في السنة نفسها، ثم اختفى بعد ذلك. لا أحد يعرف أين ذهب. حتى عائلته اختفت بعد ذلك، ولم يظهر لها أثر. بقي منزلهم البائس مهجورًا، حتى عاد إليه قبل يومين فقط، حيث وجده أحدهم ميتًا. دفنّاه بالأمس. لم يكن في الدفن سوى أنا والتيجاني وقسو وامرأة عجوز كانت تبكي بحرقة. كمن أحرقته عين الشيطان اللاهبة، قفزتُ وأنا أحكم قبضتيّ حول عنق حسن: من.. من.. من مات..؟ ومن دفنتم..؟ بصعوبة بالغة، تخلّص من قبضتي، وتناهى إلى سمعي صوته: جلال.. جلال.. ألا تذكره..؟ صفعته بكلّ قوّة وأنا أصرخ: مستحيل.. مستحيل..!! ذعر حسن. رآني أنسف صمتي وأوشك على خنقه. اسأل أهل الحومة.. أو لنذهب معًا لرؤية قبره..! أفلتُّه، وافترست المكان بكلّ ما أوتيت من غرائز.

الحومة هي الحومة، والمنازل في أماكنها كما كانت من قبل. حتى الشارع الضيّق البئيس الذي كان يعتبر شاهدنا الوحيد على أنّنا

Twitter: @ketab_n

ننتمي لدولة عصريّة، ظلّ هو هو بحفره وبركه المائيّة والأوساخ الملقاة على طوله. ومثل مجذوب ملسوع، ظللت أردّد: مستحيل.. مستحيل.. كان حسن بنعلي قد ابتعد عنّي. لكنَّ صوت جلال كان يلقيني خارج دائرة الوعي: هيّا لنذهب.. ليس هذا هو المهمّ.. أصررت على الرفض: لن أذهب إلى أيّ مكان.. أريد أن أرى قبرك.. ضحك جلال بشكل هستيري، وقال: لكنّني حيّ..! حاولت أن أمسك بخناقه وأنا أصرخ: بل أنت ميت.. ميت.. هذه هي الحقيقة..! ازدادت ضحكاته الهستيريّة: أين الحقيقة حين تقولون في لغتكم: قبر الحياة.. وأنتم تقصدون المنزل الذي تعدّونه لاستهلاك الحياة..؟! حاولت أن أتملّص منه: اسمع جلال.. هذه مجازات لغويّة فقط.. أخرج من جيبه آخر رواية كتبتها: ألم تستشهد في روايتك هاته بفلسفة نيتشه، التي تعتبر أنّ الحقيقة هي في الأصل وهم، تمّ تزيينه في شكل مجازات لغويّة وصيغ شعريّة جميلة لكي يتمّ قبوله من طرف الأفراد..؟ كانت كاميليا إلى جانبي في إحدى الحانات الراقية بأكدال. دعتني لنشرب كونياك. كانت على غير عادتها متوتّرة وكئيبة، وبين يديها ملفّ طبّي عليه إمضاء الدكتور سليم بنيس. شربنا كأسين. في الجوّ أغنية فرنسيّة حزينة لجو داسان ..Et si tu n'existes pas dis moi pourquoi j'existerais..?.. كانت تحدّثني عن حقيقة أخرى: هل تذكر آخر قصيدة قرأها ميلاد، وكنّا نتندّر منه..؟:

جدّي استأجر قبيلة

ليرسم وشمها في خلاياه..

أغوتْه الأحراش

بالتبوّل على سنديانة التاريخ.

Twitter: @ketab_n

كان له دمٌ بالتبنّي

وامرأةٌ لم تفارق صمته

حين اغتالته ذاكرةٌ

لا يرفّ لها نعش..

لم يكن ميلاد يدري أنّه يتكلّم عنّي. لقد اغتالتني الذاكرة أيّها الراهب. حدّثتني عن أصولها اليهوديّة وتربيتها المغربيّة، وما وقع لوالديها الحقيقيين، وكيف كان وقع الصدمة حين اكتشفت الحقيقة: هل أنا يهوديّة حقيقةً ومسلمة مجازًا..؟ أم مسلمة حقيقة ويهوديّة مجازًا..؟ لم أستطع أن أعانقها. كان جلال يقذف قذاراتي في وجهي: ألم تكتب أنت ذلك..؟ أيّها المجرم.. هل تتنكّر الآن لحقيقة ذاتك..؟ لم نتوقّف عن المشي منذ وصولنا إلى البلدة. حاولت اعتصار الذاكرة وإجبارها على البوح. لم يعنِ لي وجهُ حسن بنعلي أيّ شيء. لكن عندما ذكر أسماءَ أخرى، وعندما أكّد موت جلال، بدأت دمامل ذاكرتي تتقيّح وتتفصّد. كان حسن حارسَ أشيائنا الصغيرة عندما نغادر القسم ونفرغ للعب الكرة أو البلي أو الشجار. كان المؤتَمنَ الوحيد على محافظنا ومعاطفنا الرثّة. كان بلا ظلّ وبلا حضور.. ابتسامته البلهاء تجعل منه آخر حشرة يمكن أن نلتفت إليها. كان المعلّمون يرسلونه لقضاء حاجيّاتهم خارج المدرسة، وكنّا نقيس فحولتنا وبطولاتنا على «قفاه». لكنّ الجميع كان يحبّ بساطته. وكان جلال يحرص على حمايته من أيّ «اعتداء غلماني». كدت أسقط من العياء، حين توقّفنا أخيرًا أمام «منزل مغلق». لم يكن المنزل مجهولاً بالنسبة لي. أغمضت عينيَّ. كنت أهرول فوق السطوح خلف جلال، هاربيْن من «الفضيحة». وراءنا أصواتهنّ الخليعة تجلجل في الفضاء: أيّها

Twitter: @ketab_n

الروائي.. دقَّ الباب لينفتح باب الحكي..! أمرني جلال وهو يخزّ كتفي بأظافره الطويلة. طرقت الباب بشكل خفيف، وانتظرت. ضحك جلال مثل الشيطان الذي يكلّم مراهقًا يُقبل أوّل مرّة على مغامرة: «بهذا الطرْق الخفيف سيعتقدن أنّ الطارق مراهق خجول، سرق من تنّورة أمّه بعض الدريهمات وجاء بحثًا عن فضيحة مستورة» «.. هيّا اطرق الباب مثل أيّ «زهواني» رجيم».. أمسك بيدي، وطرقنا الباب بكلّ عنف. سمعت من يقول: آو.. هاو.. واخا تكون عام ما..!! ولم يكمل الصوت جملته الخليعة. ظهرتْ خلف الباب عجوز مترهّلة بأسنان فضِّيّة وحنجرة خشنة ونظرات ذات بذاءة فاضحة. لم يكن الوجه غريبًا عنّي تمامًا. همس جلال: إيّاك أن تسقِط صفة الاحترام عند مخاطبتها.. قل لها: الحاجة.. ولم يكمل. تذكّرت كلّ شيء. الحاجة الزهوانيّة، وهي ترفع سعر مضاجعتها لأنّها مختومة بطابع الحجاز المقدّس. تلعثمت شفتاي، وانفلتت أولى البلاهات منّي: خالتي الزهوانيّة.. جاءني قصفها المدمِّر بكلّ ما استطاعت من أسلحة ثقيلة: خالتي..؟؟ الله يخلي دار بوك.. إيلا باقي صغير وسنِّين الحليب.. ارجع بوّل فوق ظهر امّك.. ويلا كبير جْبَدْ الخماسيّة نشوفو.. وقبل من هاذ الشي كلّو.. ورّينا قرطاص جيبك.. تجمّدتُ في مكاني. لم أكن مهيّأً لهذه اللحظة السليطة. ماذا أقول للحاجّة..؟ وكيف أبرّر وقوفي أمامها..؟ لم أكن خائفًا من القوّادة العجوز ذات الأسنان المنفّرة. كانت رغم كلّ شيء، ذات أمومة مفتقدة أجهضتْها فجائع الزمان. حتى في الحومة، عندما كانت تطلب منّا أن نوصل وصلة الخبز إلى الفرن، لم نكن نرفض. كنّا نعرف أنّه خبز معجون من فروج المومسات،ودراهم العابرين والمياومين وعمّال الأوراش الخشنين. فقط كانت الحاجّةَ الزهوانيّة، مثلها مثل أيّة امرأة محترمة في

Twitter: @ketab_n

الحومة. وفوق كلّ ذلك، كانت كريمة معنا كلّما نفّذنا لها «سخرة»، مثلما كانت سيّدة التقاليد والأصول، عندما كانت تزور امرأة ولدت للتوّ، أو تحضر «أسبوع ولادة» محمّلة بهدايا فوق طاقة البسطاء.
لكزني جلال، ودسّ يدي في جيبي. أخرجت ورقة من فئة مئة درهم، اختطفتها الحاجّة في الحال، وهي تنادي بكامل صوتها الخشن المبحوح: لطيفة.. لطيفة.. جاك ضيف.. حاولت أن أعتذر منها. أن أقول لها إنّني لم آت لمضاجعة مومس من بنات منزلها. لكنّ جلال دفعني إلى الداخل الذي تفوح منه رائحة شبّة وبصل وحموضة بول.
استقبلتني الحاجّة بحفاوة مبالغ فيها: إيلا كنت غا دايز.. ما فيها باس تشرب معنا أتاي ديالنا.. صفّقت بيديها: لالة كانة.. لالة كانة..!
في الجهة المقابلة لي، كان جلال ينظر إليّ مثل ميت حقيقيّ، عاد من فداحة الغياب ليزجّ بالأحياء في كيمياء الحقيقة العفنة. لم أفهم نظراته. كانت تشبه تيّارًا كهربائيًّا متعاقبًا، وكان حدسي قادرًا على اكتشاف الفواصل الدقيقة بين لحظات الانطفاء والاشتعال في عينيه.
وقفتْ بالباب امرأة من زمن آخر. في ملامحها انكسارُ من عاش من دون مجد. لم أستطع أن أميّز تجاعيدها جيّدًا. كنت شبه خجِل من الموقف الذي وضعني فيه جلال. بعد كلّ هذا الغياب الصفيق، أعود إلى الحومة ومسقط الأحلام يقودني ميت ويسحبني حرمان وتستضيفني قوّادة. صدق ميلاد. ها أنا حيّ تغتالني «ذاكرة لا يرفّ لها نعش».
لالة كانة.. سيري اشري لينا أتاي بصّحْ مول خمسة نجوم من عند حمو البلقاسمي.. وكولي ليه على حساب الحاجة.. لم تقل المرأة شيئًا، لكنّها عندما استدارت قالت كلّ شيء. هي الاستدارة الاستدارة. الكتفان المقوّستان. الظهر المتراجع قليلاً إلى الخلف. القامة المتوسّطة. الركبتان اللتان تكادان تتلامسان. نظرت في وجه

Twitter: @ketab_n

جلال. كان الجواب محترقًا على ملامحه. هذا الاسم الذي بلا نياشين، بلا وقع، بلا حضور، يرجّ الآن ألياف الذاكرة: كانة. كان هذا الاسم في زمان ما. في زنقة خنيفرة أسفلَ دوّار دكالة، بالقرب من فرن خالي حميشان وبئر السوسي. كان هذا الاسم يمشي على رجلين يتعقّب خطواتي في الأزقّة المظلمة كثيرة الحفر والمستنقعات، ويصدع بصوته مع الجارات: خالتي صفيّة.. خالتي هموشة.. خالتي فويطينة.. خالتي رابحة.. عندما غادرت البلدة في اتّجاه العاصمة قبل أكثر من خمس وعشرين سنة، لم أقل كلمة وداع، وهي لم ترسل دمعة واحدة تنهر الفراق عن حرق قلب أم. كلانا أدار ظهره للآخر. هي فقط هيّأتْ حقيبة جلديّة قديمة ومتوسّطة الحجم، ووضعت فيها سروالين ومنامة وطاقيّة وجوربين مثقوبين وفوطة مهترئة وبعض التوابل المضادّة للأوجاع. على كتفي، كنت أحمل «صاكًا» عاديًا يضمّ كتبًا وأوراقًا ورسائل عشق فاشل. لم أسأل عن أبي الذي مات منذ سنتين، ولم أسأل نفسي عمّن سيتكفّل بها. غادرت، وأنا أصعد الحرش المليء بأكياس البلاستيك السوداء، وعلب الحليب الفارغة التي كان يلقيها سكّان الحومات العلويّة المتبجّحين بالكهرباء والتلفزيون وعلب الزبدة المصنعة. حاولت أن أغادر، لكنّ الحاجّة الزهوانيّة أوقفتني بكلّ عنف: عمّرْ شي رجل محترم ما اخرجْ من داري قبل ما يشرب أتاي ديالي..! وبغمزة من عينيها في اتّجاه الفتاة الجالسة قربنا، أكملت: و«ديال» لالة لطّوف (تصغير لطيفة)..؟؟ كان غمزها واضح الخلاعة، حين رأيت الفتاة تحاول تحريك يديها بين فخذيها. لم أكن جديرًا بتاريخي، ولم أكن قادرًا على احتمال أوجاع الآن والهُنا. يا جلال.. أيّة حياة حملتها معك بعد الموت..؟! عادت المرأة لالة كانة، وذهبت مباشرة لتحضير الشاي، بينما ظلّت الحاجّة تثرثر، وتخلط بين

Twitter: @ketab_n

ماض ذهبيّ وحاضر بائس ومستقبل مخيف، أيّامَ كان عشّاق «المرساوي» يأتون زاحفين على ركبهم، تتدلّى محافظهم الجلديّة الطويلة من أعناقهم، ويجلسون ليلة السوق الأسبوعي، يدخّنون الكيف ويرسلون الآهات، وهم يستمعون إلى شيخات الحاجّة الزهوانيّة، يردّدن عيوط الشاوية الحزينة والبهيجة التي تقطر لذّة وغربة خلف سيّد المرساوي الأبدي: بوشعيب البيضاوي. كانت النشوة تصل أقصاها عندما يقطع عازف الكمان الأدرد أمعاء المستمعين، وهو يغوص بأوتار كمنجته في أغوار زمن مضى، كان المَغْنى فيه يسبق الخبز، وكانت الشيخات يتربّعن على عروش القلوب. تلتفت الحاجّة إليّ، وفي عينيها ألمح انكسارًا أليقًا: لكنّ العمر يا ابني يزحف..! وتتحدّث عن رجال الشاوية ودكالة ومناطق الرحامنة وعبدة والحوز الذين أحرقت وجداناتِهم جمرةُ الخبز، فمات من مات، ورحل من رحل، وأفلس من أفلس، بعد الجفاف الكبير الذي ضرب البلاد لسنين طويلة: ودابا يا الله.. نطلبو الستره والرحمة منّو.. هو اللي يرحمنا ويستر علينا.. وتكون تاليتنا في طاعة الله..! حين أدخلت لالة كانة صينيّة الشاي ووضعتها على الطاولة، أنهضني جلال من مكاني بكلّ قوّة «الموتى»، ودفع بي إلى الخادمة العجوز: انظر جيّدًا لترى.. حقّق جيّدًا.. هذه هي روايتك المنتظرة سيّدي الراهب.. الروائي الساخر الذي تتهافت أديبات العاصمة عليه.. اقتربت منها. لم يكن هناك مجال للظنّ. أجفلتْ عندما رأتني، وهمّتْ بالخروج، عندما سمعت الحاجّة تناديها: لالة كانة.. فين غادية..؟ في العادة تتسناي الكريم يعطف.. أحسست بصفعة من عاد إلى الحياة فقط لكي يهشّم فكّي. كان لكفّيه اندفاع اللهب البركاني الذي يذوّب في طريقه كلّ شيء. لم تكن صفعة جلال. الحاجّة الزهوانيّة بكلّ سنواتها المريرة والثقيلة هي التي كانت

Twitter: @ketab_n

تقف أمامي وتصفعني بكلّ قوّة. تحسّست وجهي، ونظرت إليها. جاءتني حِممُها الحارقة: عا لا قلَّة.. هاذ القوّادة الواقفة؟ دامك صانت أمّك من الجوع والبرد والتبهديل.. ها هي كدّامك.. سوّلْها واش شي مرّة خلّيتها بالجوع ولّا خلّيت شي حرامي يتعدّى عليها..؟! اختفى جلال في تلك اللحظة. كنت وحدي أمام حقارتي وصَغاري. وحدي أمام الحاجّة وأمّي ولطيفة المومس. في الجوّ حموضة بول ومرق بدون لحم. رائحة ماكياج سوقي رخيص. هي كانت تراقب كلّ شيء. بغريزتها أو ربّما بخبرتها الطويلة، عندما رأتني أصعد الحرش المتّسخ حاملاً «أغراضي»، أدركتْ من مشيتي ومن عدم التفاتي إلى الوراء لإلقاء آخر نظرة على المكان، أنّني لن أعود.

مرّ يومان قبل أن ترسل الحاجّة الزهوانيّة إحدى مومساتها إلى منزلنا البائس لتسأل عن أمّي. وكما توقّعتْ بالضبط، وجدت المرأة متكوّرة في فراشها البارد المهترئ، ومنكفئة على نفسها. لم تذق شيئًا منذ يومين. ظلّت الحاجّة ترسل إليها الأكل والشاي والسكّر والخبز مدّة أسبوع. لكنّها عندما علمت أنّ بعض اللصوص نهبوها في ليلة عاصفة بأمطارها، أجبرتها على الإقامة معها معزّزة مكرّمة. مهمّتها الوحيدة هي شراء حاجيات «المنزل المغلق» من دكاكين الحومة البائسة. لم تقل أمّي أيّ شيء عندما تعرّفتْ عليّ وهي تشاهد الحاجّة تصفعني. احتضنتها بكلّ حبّ وباست رأسها الأشيب، وهي تقول: والله.. أنتِ بركة هاذ الدار.. من نهار جيتي والبزاطم مخويّة علينا..! أحنت أمّي رأسها. فهمت الحاجّة دلالة انكسارها، ولم تقل كلمة واحدة. كانتِ أمّي بركة جلبت الرجال من كلّ ناحية ليفرغوا محافظ نقودهم على أفخاذ مومسات الزهوانيّة. ولكن ماذا كنت أنا..؟! سمعتها تتوسّل إلى الحاجّة: عافاك.. خلّيني نقضي هاذ

Twitter: @ketab_n

الأيّام اللي بقات لي ف عشّتي. . ! وذهبت أمّي لتموت في منزلها الحقير كأيّ حيوان غير إلهي. في طريق العودة، ذهبت إلى روضة البلدة. دلّني فقيه باهت الملامح على قبر جلال. حاولت أن أترحّم عليه، عندما سمعته خلفي يقول لي في مكر: ترحّم فقط على روحك. . !!

Twitter: @ketab_n

ـ ٢٠ ـ

أنا شاعر، لأنّ أمّي كانت صبيّة حارقة، وأبي كان بريئًا بليدًا. لم يكن شعري تعبيرًا عن إلهام أو قيم أو مثاليّات إنسانيّة. كان حصيلة فعل إجرامي. ومثلما كنت مجرمًا جيّدًا، كنت شاعرًا جيّدًا، أوغلَ في خلاياه الدنيئة لكي يعصر شيئًا ظلّت أحلامه تبحث عنه: موطن الجمال. كنت أحرق كلّ ذرّة من تاريخي مثل عاهرة جيّدة تقوم بعملها جيّدًا، لكي توصل الرجل الذي يضاجعها إلى قمّة الأورجازم. كلّ الشعراء الذين يكتبون بدافع الأخلاق المتحضّرة، هم شعراء بصورة سيّئة. إنّهم يشبهون فقيهًا يتسلّل خلسة إلى مخدع مومس في الظلام، فيقرأ الفاتحة قبل أن يضاجعها، ولا يرى جسدها العاري، ولا يخلع جلّابته الصوفيّة الثقيلة، فيكون القذف لحظة شيطانيّة مارقة، سرعان ما يتعوّذ منها، ويفرّ هاربًا إلى «الخارج» النقيّ. في حضن سامية المشتعل تحت ضوء الأباجورة الأرجوانيّ، وهي تتابع قراءة مذكّراتي في «الأجندة» الزرقاء. توقّفت

Twitter: @ketab_n

فجأة لتقول لي: ما لا أفهمه ميلاد، شيئان: لماذا تصرّ على اتّهام ذاتك بجريمة غامضة؟ ولماذا لم تذهب لزيارة أبيك في السجن إلى الآن..؟

ذهول العالم في عينيه، في يديه المرتعشتين اللتين بالكاد كانتا تمسكان سكّينًا يقطر دمًا. جثّة أمّي تحت قدميه غارقة في دمائها وطعناتها القاتلة، وأختي ربيعة تصرخ. هي لم تر شيئًا. جاءت متأخّرة قبل فعل القتل. في الخارج، أسمع أصوات الجيران يطرقون الباب بكلّ عنف: لالة زينة.. لالة زينة.. مولود.. ربيعة..!! حتى اسم أبي لم ينطقوه. ألِى هذا الحدّ كان ظلّه مسحوقًا وبلا هالة..؟ لم أستطع أن أجيبها. في الرماد الذي خلّفه البؤس والموت والجريمة، كان قلبي يغوص مثل «غادة محتاجة لدم وتنفث كلّما لهثتْ دمًا». وضعت سامية الأجندة فوق نهديها القمحيين المتغنّجين، وشبكت أصابع يديها تحت رأسها، ثم رفعت إحدى رجليها، وألقت بالإزار الذي يغطّينا جانبًا، وظهر جسدها عاريًا كنفثة شِعر في إرهاصها الأوّل. كانت أشهى، رغم أنّنا كنّا في الفراش نفسه، ومارسنا الحبّ مرّات ومرّات. لكن منظرها وهي ممدّدة في كامل عريها الأفروديسي، والأجندة فوق نهديها، ذكّرني بالتاهيتيّات في لوحات بول غوغان: انظر ميلاد.. ماذا بعد اللذّة..؟! تحسّستُ أسفلَ بطنها برؤوس أظافري، وأنا أجيبها: لا شيء غير اللذّة.. مخمورًا كان شَعرها المتكاثف المرسَل فوق كتفيها وعلى وجنتيها: إذن فكّرْ جيّدًا.. في انتظارك شخص لم يسئ إليك.. ثم عادت لفتح الأجندة الزرقاء. لحظات كالرزء. ربيعة تصرخ وتولول وتنتف شعرها، وقد ارتمت فوق جثّة أمّي، التي كان

Twitter: @ketab_n

دمها ما يزال يفور، وهي في النزع الأخير، تتقافز شفتاها ويخرج الزبد منهما، ثم تنحدر عيناها شيئًا فشيئًا ناحيتي لتنغلقا إلى الأبد.

ـ ما اسمه..؟ قال لي البوّاب المسؤول عن مراقبة الباب الخارجي للسجن. بحثت في ذاكرتي. في نقطةٍ ما ضاربة في الألم، لا يوجد غير الظلام الذي يغطّي برماداته جريمة بأكملها. كأنّما فاجأني السؤال. في البدء لم يكن الاسم، فكيف يكون الآن..؟ جاهدت لأجبر ذاكرتي على فتح مغاليقها. رجال الشرطة يملأون المنزل بجلبتهم وصخبهم المرعب. المفتّشون يلتقطون الصور. يقيسون وضع الجثّة، ويرسمون بالطباشير خطوطًا ودوائر، ويسجّلون ملاحظاتهم الأوّليّة، والمعاونون يدفعون الجيران للخروج من المنزل حفاظًا على «مسرح» الجريمة. المفتّش الرمادي ذو الوجه الذي ثقبه الجدري والعينين الذئبيّتين، يمضغ شوينكوم أميركيّة، ويمسك أبي بكلّ احترافيّة من يديه لكي ينزع السكّين منه ويضعها في كيس بلاستيكي. ما اسمك..؟ يصرخ المفتّش ذو الوجه المجدور في أبي. لا جواب. يكرّر المفتّش صراخه «المخزني». يأتي الجواب من أحد الجيران الذين يدفعهم معاونو الشرطة للخروج من المنزل: اسمه بنداود مودي.. يلتفت البوّاب إليّ، فأجيبه: بنداود.. بنداود مودي..! يبحث في أوراقه قبل أن يسألني ثانية: هل لديك تصريح بالزيارة..؟ أحرّك رأسي بالنفي: آسف سيّدي.. لا يمكنني السماح لك.. رافقتني سامية في المرّة التالية. هي التي دفعتني إلى استصدار ترخيص بالزيارة من إدارة سجن لعلوّ بالرباط. في الطريق إلى السجن المطلّ على البحر، كانت سامية تسوق سيّارتها على مهل. كنت بجانبها شاردًا فيما سيأتي. تقدّم منّي المفتّش الرمادي ذو

Twitter: @ketab_n

العينين الذئبيّتين. انحنى قليلاً، كما لو كان سيقرفص، لكي يكون في مستوى قامتي الصغيرة. رأيت فمه الواسع وشفتيه الكامدتين وصفَّ أسنانه التي لوَّنَها التبغ بسمرة داكنة. كانت تنبعث منه رائحة غريبة. قلت لنفسي: هي روائح عفن الجثث.. أمسكني برفق من كتفي، كأنّه يحاول أن يهدّئ من روعي. قال لي: أنت ولد كبير الآن.. ولد مدرسة مجتهد وقادر على أن تقول بصدق كلّ ما رأيته. هيّا ولدي. قل لي كيف جرت الأمور..؟ ارتفعتْ ولولة أختي ربيعة. تضايق المفتّش. أعاد طرح أسئلته عليّ. لم أجب. أحد المساعدين، لا أعرف إن كان مساعدًا أم مفتّشًا أم شخصًا آخر، قال: الولد في حالة صدمة.. لن يقول الآن شيئًا. استمرّت سامية في سياقتها مركّزة على الطريق. بين النار والأفق اللازوردي، كنت الشاعر الذي تبنّته دار أطفال، عندما لم يجد في الطبيعة مأوى للأمومة وخفقة دم للأبوّة. هل غطّى «العقل الحارق» على ما فعلته..؟ لا.. لم تكن شاعرًا يا أنا.. لم تكن ميلاد.. أنت مولود مودي الذي لم يستطع أن يقول أيّ شيء للمفتّش..! وُلِدتُ ذات خيانة باردة في دوّار «المجاذيب»، قرب «نوالة» (كوخ من تبن) **فاطمة هدّي**. هكذا سمعت أمّي تقول يومًا ما لجاراتها. كانت المرأة الوحيدة في الدوّار التي تملك أسرار الغيب وخبايا القلوب. في الدوّار الذي يستحقّ اسمه، لم يكن يقطن سوى حثالة الحثالات. كلّ من ارتدى أسمالاً بالية وفسخ عقدة عقله وجيبه، يأتي للسكن هنا. لا يوجد في فراغ النهارات الكالحة ما يدلّ على أنّنا انحدرنا من عدم إلٰهي. أرى في عينيها انكسارًا ماكرًا، وهي تعبث بسوالفها وتحكي للجارات. كنتُ أُنظّفُ مولود في مياه النهر

Twitter: @ketab_n

العفنة. النهر الصغير الملوّث بنفايات الجزّارين وروث البهائم وبراز الفلّاحين. وكانت أكواخنا تقع غير بعيدة عن ضفّتيه. لا أعرف من لفَظَنا في هذا المنحدر البائس، ولكنّي فتحت فخذيَّ على قضيب رجل أبله يفوح البؤس من منيِه، وتدلّ عليه رائحتُه القذرة قبل أن يصل. **فاطمة هدّي**، العجوز السبعينيّة ذات التنبّؤات المرعبة والصوت الأخروي، كانت تحدّثني عن قومها الذين مرّوا من هنا، من هذا الوادي العفن، وتحلّلوا كالروث في مجاري القاذورات، ولم يعد أحد يسمع عنهم. أنا آخر السلالة اللعينة التي ما زال اسمها يدلّ عليهم: **هدّي**.. من جماعة هداوة المنقرضة كالصراصير المخيفة التي كانت تخرج من النهر عقب كلّ فيضان. وفي عين أمّي كان حكي فاطمة هدّي يختلط بالهذيان اليومي، الذي جعل دوّارًا بأكمله يحمل اسمًا رجيمًا حكم على الجميع بالبؤس والبله. لكن أمّي لا تنسى. عفن النهر في الخياشيم كوباء قاتل. كان بنداود يعود من «الڤيلّاج» كلَّ مساء حاملاً عُدّة البناء وبعض الخبز والشاي والسكّر. كان يشتغل مياومًا طوال النهار، ويترك أمعاءنا «زرقاء»، أنا ومولود، حتى يعود في المساء بنعمة شايه وخبزه الحافي. حتى هذه الأحراش المقفرة لا تنتج شيئًا. كانت قنوات الحثالة المنحدرة من البلدة، تدمّر كلّ أثر للخضرة والحياة القابلة للاستهلاك. لكن أحدهم مرّ بالصدفة من هنا. لا أتذكّر وجهه. أحد العائدين من السوق الأسبوعي رآني، وثارت غرائزه. ربّما لم يفرغ «مياهه» في مباغي الڤيلّاج الرخيصة. اقترب منّي. كان مولود يلهو بفردة حذاء متلاشية التقطها من الضفّة العفنة. لم أقل شيئًا. دخلنا كوخنا الحقير الذي لا يستره باب. نزعت مِزَقَ أثوابي المهترئة، ورأيته يعضّ

Twitter: @ketab_n

بنواجده على «فريونه» القرويّ. لم يتطلّب الأمر غير ثوانٍ خاطفة لأسمع شخيره كثور مذبوح. عندما كنت أسوّي سروالي، كان مولود يحبو على ركبتيه نحوي، ويدفع فردة الحذاء المتلاشية أمامه. تحسّست «الريالات» القليلة التي وضعها في يدي، وتأكّدت منها. لم أر مثلها في حياتي. في الغد، جاء فلّاح آخر. وقبل أن ينتهي السوق، كانت فاطمة هدّي تقول بصوتها الأخروي الذي يشبه طقطقة ماء بارد في زيت ساخنة: يا مُفتِّح الفروج..! لكن شهرتي فاقت حدود القرويين الآتين إلى السوق الأسبوعي.

ـ لكنّك شاعر يا ميلاد.. لا تنس هذا الأمر..! تقول سامية، ونحن نجتاز الطرقات المتعرّجة الفاصلة بيننا وبين السجن. أغوص في عبق الشاعر. أحاول أن أجد دلالة ضوئيّة لِما قاله ڤيكتور هوجو:

J'ai dans l'âme une fleure que nul ne peut cueillir..!

ـ ما معنى أن تكون شاعرًا.. سامية..؟

يداها مثبّتتان على المقود، وفي الجهاز الصوتي للسيّارة أغاني الزمن الجميل الفرنسيّة التي كانت ترشح بالحرِّيّة. هي تعرف كم أحبّها:

ـ ها.. ها.. هل نسيت أنّك كنت دومًا تردّد علينا اللازمة نفسها: الشاعر محكوم عليه سلفًا بالعزلة حتى بين أهله..؟!

هذا هو الشاعر يا ميلاد.. متوحّد حتى داخل حنوّ الأشياء الأليفة.. حاولت أن أقول لها: أنتِ لا تعرفين شيئًا عن الوحدة والعزلة يا سامية.. لا تعرفين غير عبق الجمال على طريقة أحلام،

Twitter: @ketab_n

التي تذيع برنامجها الأسبوعي في الراديو المخصّص لإشراقات الجمال.. أنتِ لا تعرفين شيئًا يا سامية..

عندما اقتادوه إلى المخفر الوحيد بالبلدة، لم يجد الشرطيّ الجالس خلف آلة الرقن ما يكتبه. ظلّ الضابط القضائي يحاول أن يدفعه إلى الكلام بالتهديد والمكر وحتى الصفع. لكنّه لم ينجح في أن يخرجه عن صمته الأبله. وأخيرًا خاطب الراقن: اكتب يا ابني.. المشتبه في حالة صدمة كبيرة.. يرجى إحالته على خبرة طبّيّة للتأكّد من صحّته العقليّة.. لكن، لا أحد أخبرنا عن مصير الجثّة. من استلمها..؟ من دفنها..؟ وأين دُفنتْ..؟ لا أحد تكلّم على ذلك. وحتى عندما انتهى بي المطاف إلى دار أطفال، لم يخطر ببالي يومًا ما أن أسأل عن مصير جثمان أمّي، حتى فاجأتني المربّية المسؤولة عن تعليمي: ميلاد.. ألا تحبّ أن تزور قبر أمّك.. إنّه عيد المولود..؟! تذكّرت أنّ أمّي قالت يومًا: ولدت عشيّة «المولود».. ولذلك سمّيتك مولود.. فاجأني سؤال المربّية. أجبتها بنبرة ناشفة: لا أعرف قبرها.. وأدرت ظهري لها.

فجأة، فرملتْ سامية بقوّة حتى ارتطم رأسي بلوحة القيادة الرماديّة، وركنت السيّارة جانبًا. كانت أغاني الحرّيّة والحياة الفرنسيّة ما تزال تحوّل كآبة العالم من أمطار الأصوات إلى دواخل الروح. ليو فيري.. ميراي ماتيو.. بيير باشلي.. يسافرون في بحّة الوجود وإيقاعات الأدغال التي تضيء ليل الإنسانيّة البئيس، ويقحمون الذائقة في لمعان الأضواء الراقية في باريس.. لم أتخيّل ما ستقوله، لكن فرملتها المباغتة، كانت تدلّ على دهشة تراجيديّة.

Twitter: @ketab_n

ارتسمت على شفتيها اللمياوين وقاحة هرّة بريّة موشكة على الانقضاض. لم أرها على هذه الهيئة منذ تعرّفت عليها، ولحست لحمها الساخن كذاعر فاضل:

ـ لا.. لا.. لا أستطيع أن أرافقك.. أرجوك.. اتركني في أحد المقاهي واذهب إلى السجن وحدك.. أرجوك..! لم تكن ترجوني. كانت تتضرّع إليّ. أوقفت الحياة الغامرة في الأغاني الفرنسيّة. أمسكت بيديها المرتعشتين. نسيت أنّ سامية مرّت ممّا يشبه هذا الطريق يومًا ما لزيارة حليم تيهان. لم يكن السجن نفسه ولا المكان نفسه. لكنّها كانت التراجيديا نفسها: من العقل إلى الجنون. لكنَّ حليم كان عدمًا في مصحّ عقلي، بينما أبي نكرة في سجن رهيب. حاولت أن أرتجل كلامًا للرثاء: على الأقلّ هو اختار أن ينهي حياته بذلك الشكل الشاعري.. انهارت سامية فوق كتفي: هو لم يختر انتحاره.. أنا دفعته إلى كتابة قصيدة اللحظة الأخيرة!

لم نتكلّم بعد ذلك. تولّيت قيادة السيّارة بنفسي، وتركت سامية عند أوّل مقهى صادفناه ونحن نقترب من سجن لعلو.

كانتْ تحكي عن ماضٍ بعيد، كأيّ ماضٍ عادي. لم تخجل إلّا من بؤسها. وكان لحمها طاقة ضوء ضئيل حملتْها من الكوخ الطيني أسفلَ النهر إلى منزل إسفلتي حقير، ولكنّه أفضل بكثير من الكوخ القمامة الأوّل. لم تعد تسمع نقيق الضفادع القريب، حين تقتحم هذه الحيوانات البرمائيّة حجرتها البائسة لتتقافز بين الزوايا بحثًا عن فرائس. لم تعد مجبرة على شمّ رائحة مجارير الصرف الصحّيّة المنحدرة في قنوات مكشوفة نحو النهر، ولم تعد الأوحال القذرة

Twitter: @ketab_n

الممزوجة بالأشواك ونباتات الحمّيضة والبرواق الأخضر تعْلَقُ بقدميها، وهي تذهب لملء قناني الماء البلاستيكيّة من عيون الواد. منذ اللقاء الأوّل مع القرويّ الأوّل، لم أعد أطيق رائحة العرق البلهاء في أثواب بنداود. أدرت ظهري له، وأنا أعيد عدَّ «الريالات» التي منحها انفتاح كهفي للقرويين. هو لم يقل شيئًا. لكن مولود الصغير، لم يعد يغصُّ بالبكاء. كان يحسّ بالرعب وهو يرى شبح قرويّ قادم بجلّابته الصوفيّة ذات اللون الداكن. لم يفكّر أحدهم في يوم من الأيّام أن يضع في يديه فلسًا. كان القرويّ يأتي بحماره الأجرب الذي يربطه إلى أشجار العلّيق على ضفّة النهر، ويدخل مسرعًا رافعًا جلّابته إلى الأعلى ومسدلاً «فريونه» إلى الأسفل، وليس في فمه سوى كلمة واحدة: عندي غَا عشرين.. عشرون ريالاً، كانت كافية لكي لا أسمع بكاء مولود، ولكي أحتمل شخير القرويّ الهائج، وأحلم برائحة أفضل من قرف بنداود ونظراته البلهاء.. عندما رأتني فاطمة هدّي أحزم بعض المتلاشيات التي تشكّل أواني مطبخي، وأطوي مِزَقي في بقجة سوداء، قالت لي كلمة واحدة: نِّيت خاصّ هاذ الواد يتنفّس. لم تقرأ في الأبراج المرسومة على عظام الكتف، التي كانت تستعملها للتكهّن، ما سيكون مصيري. آخر قرويّ جاء، قلت له إنّني لن أهدم هذا الكوخ الطينيّ البلاستيكيّ. ربّما غدًا ستأتي بائسة أخرى تمنحك بعض المتعة النتنة التي لا يستطيع هذا الوادي الموبوء أن يمنحك إيّاها. كان بنداود يسمع، وهو يجمع عدّة البناء في «موزيط» جلدي متلاش. حمل مولود بيد والعدّة باليد الأخرى، ولم نودّع عرّافة السلالة الهدّاويّة المنبوذة التي كانت، ربّما في تلك اللحظة، تقرأ، في ألسنة مجمرها

Twitter: @ketab_n

المليء بالشبّة والجاوي وقطع المطّاط الصغيرة، ما لن أكون عليه أبدًا: السعادة. قبل أن أترك سامية ذاهلة في المقهى، قلت لها: أستاذك انتحر منذ سنوات، وأبي متشرّد خلف خطوط العدم منذ سنوات.. أيّ مشهد ينتظرني..؟ لقد أنقذك حليم تيهان من وقاحة الأخلاق، عندما اختفى نهائيًا. لكن أنا..؟؟ استأذنتها في أخذ السيّارة. كنت أراه في سيّارة الشرطة الزاعقة بصفّارتها وشارتها التي تتغيّر من الأزرق إلى الأحمر. ليس على فمه كلام، وليس في ملامحه دلالة، ولم تعِدْه آلهة الأسرار بكأس شاي ولحظة مرح دافئة في حضن زوجة أحرقها جسدها. في الطريق إلى السجن، كان الزمان يغيم ويترمّد ويحترق، ولا أجد لحظة مجد واحدة يمكن أن أحملها كألق في وجداني. لكنّي نسيت شيئًا مفجعًا. نسيت أن أسأل عن أختي ربيعة. منذ جاءت المرأة البدينة الموشومة لتبنّيها، لم تتوقّف أختي عن إرسال النقود والملابس إليّ. ذهبت مرّة لزيارتها، فانتهرتني في حنوّ أموميّ افتقدته طوال حياتي. ولم أعد لزيارتها أبدًا. قالت مربيّتي في دار الأطفال: ليس العالم أخلاقيًّا مثلما نحبّ.. وسكتتْ. كانت عبارتها ناقصة. كان فيها إضمار فاضح، لكنّه كان كافيًا لأعيش متسلّلاً إلى «أخلاق» العالم السائدة. عندما نجحت في امتحان البكالوريا، جاءت لزيارتي بدار الأطفال. عانقتني بكلّ قوّة. بكت وهي تهنّئني بالنجاح، ودسّت في جيبي أوراقًا ماليّة. شممتُ على شَعرها رائحة غاسول، وعلى جسدها رائحة صابون بلديّ. لكنّي جاهدت لكي لا أشمّ رائحة العكر الأحمر الرخيص على شفتيها. عندما استدارت، كانت تعرف في قرارة أعماقها أنّ هذا اللقاء سيكون آخر لحظة بيننا. كانت تتنبّأ

Twitter: @ketab_n

بالطالب الواعد الذي سيذهب إلى العاصمة لكي «يفهم» كلّ شيء. عندما اقتربتْ من الباب الخارجي، ركضتُ خلفها. أمسكتها بملء ذراعيّ وطوّقتها في التفاتة مفاجئة. قبّلت يديها ووجنتيها، وأنا أقول لها: سامحيني ربيعة.. سامحيني أختي..!! أخفتْ دموعها. ربّما كانت تخفي أمرًا آخر أكثر من دموعها. كانت نظراتها مهزومة ومنطفئة. كنت أودّ أن أقول لها الحقيقة: أيّة حقيقة، حين يحيطني الحظّ بفرصة للنظافة والتعلُّم، ويرميها القدر في أحضان المهنة التي قادت أمّنا من أسفل الوادي الهدّاوي في دوّار «المجاذيب»، إلى حواري «الفيلّاج» الموبوءة..؟؟ هل حقًّا امتهنت تلك الحرفة..؟ لم أكن متيقّنًا. لم أشهد المحاكمة. منعتني إدارة دار الأطفال من الذهاب إلى المحكمة. لكن مربّيتي قالت لي: حكموا عليه بالمؤبّد.. لكنّ الخبرة الطبّيّة أكّدت جنونه.. ولذلك سيقضي بقيّة محكوميّته بين المصحّ العقلي والسجن.. كم مرّ من الوقت..؟ هل للذاكرة زمان محدّد..؟ بالأمس فقط، كنت أستمتع بصوتها وهي تغنّي في المرحاض العفن، ورائحة الغاسول والصابون البلدي تملأ المكان. وها أنا أقف أمام حاجز بوّابة السجن. عن أيّ شيء أبحث..؟ ربّما يكون قد مرّ أكثر من ربع قرن أو أكثر على مقتل أمّي ومحاكمة أبي وسقوط أختي وتفتّق شاعريّتي «الرجيمة». لم تكذب كاميليا حين قالت لي: تبدو مثل شاعر قاتل.. كانت تشير إلى مقطع من شعري، حيث أشبّه نفسي بوحيد قرن رصين، لكنّه قاتل. أليس المبدع قاتلاً في نهاية المطاف يا كاميليا..؟ ألا يشبه ما فعله جلال، بطل رواية الراهب، حين قذف من مقلاعه حصاة في اتّجاه فرج مومس كانت تغتسل في فناء الدار..؟! أظهرت

Twitter: @ketab_n

الترخيص بالزيارة للحارس الضخم ذي الشارب الستاليني الذي يشبه «صعيديًّا» في أفلام عادل إمام. رفع العمود الملوّن بالأحمر والأبيض، ودخلت بالسيّارة، وركنتها جانبًا في «الموقف». نطقت بالاسم. نظرت إليّ المسؤولة المحجّبة ذات الحاجبين الدغليين والأنف المدوّر والوجه العدواني الذي تغطّيه نظّارات طبّيّة سميكة. نظرت إليّ في اندهاش استفزازي، وهي تبحث في اللائحة الطويلة الموضوعة أمامها. رأيت أوداجها تنتفخ مثل كوبرا تتحفّز للانقضاض على فريستها. كانت نظراتها تحاول أن تتكلّف النظر إليّ. في الممرّ الطويل، كان للحيطان لون أبيض باهت متقشّر. البياض طاغ بشكل مؤذٍ، لكأنّه يدلّ على عمى ألوانٍ أو انمحاء لعدسة الذاكرة الملوّنة. قالت لي: بنداود مودي..! أجبتها: نعم بنداود مودي..! بيننا. امتدّ البياض من فراغ الحيطان وبلاهة المكان، ليسكن اللغة الباردة التي تناضل لإشعال فتيل التواصل بيننا:

- في الترخيص الذي قدّمته مكتوب أنّك ابنه..

- نعم صحيح.. أنا ابنه..

رأيتها تحرّك رأسها وهي تحوقل وتتعوّذ: هل تعرف أيّها الابن البارّ كم..؟ لم تستطع أن تكمل عبارتها. تدخّلتْ مسؤولة أخرى كانت تجلس إلى جانبها: لحظة من فضلك سيّدي.. سيأتي المكلّف بحراسة السجين.. كنت أعرف ما ستقوله، وما قالته أمّي للجارات. كنت أسمع ذلك تقريبًا في كلّ أصيل غائم أو مشمس أو ممطر. كان يذهب إلى العمل كلّ صباح، ولا يعود إلّا عند المساء. كان محظوظًا جدًّا لأنّي أنقذته، وأنقذت ابنه من دوار «المجاذيب» وشؤم

Twitter: @ketab_n

تنبّؤات فاطمة هدّي. بالريالات التي صارت دراهم، استطعنا أن نكتري منزلاً صغيرًا في «الڤيلّاج». لكن روّادي لم يكونوا هذه المرّة قرويين نتنين وخشنين وبخلاء ولا ماء في أرواحهم. كانوا من الصنّاع الحرفيين وأصحاب الدكاكين البسيطة والعابرين بين الأسواق الإقليميّة. نعم، كنتِ شابّة ضاجّة بالشهوة والشبق. لم يأخذ البؤس منكِ، ولم تستسلمي لوجوم الغيوم الكالحة، ولم تغلقي عليك خلف نوْلٍ حقير لنسج حنادير وزرابيّ يستولي عليها «شنّاقة» (محتكِرون) يقضون النهار كلّه في لعب الورق وشرب الشاي وتتبع الفرائس. في عينيك، أمّي، كنتُ الوحيد الذي أرى شمسًا لاهبة تشبه نار الإنسانيّة التي أودت ببروميثيوس. وحتى عندما صرختِ في وجه أبي ذات زمان ماجن: علاه انتَ رجل..؟ يصحاب ليك ديالك هو اللي جاب هاذ البنت..؟ كنت تمسكين أبي من قضيبه وخصيتيه، وتشيرين إلى ربيعة. هل حقًّا، لم يكن أبي هو الذي زرع ربيعة في أحشائك..؟ لقد ضاع والدها الحقيقيّ بين مئات العابرين الذين تعاقبوا على جسدك المتنمّل بالشهوة. ربّما كنتِ تغيظينه فقط، لتنتقمي لا من بؤسه، بل من بلاهته. صافي مرّة وحدة درناها وجبنا لك ولد..! لم تكمل. على طرف لسانها، كان «جيفة الرجال»، كما تفنّن في تعذيبه يوميًا، يتلاشى كاللاشيء، كالضفادع التي كانت تغوص في وحل النهر في دوّار **المجاذيب**. لكنّي أبدًا لم أتشكّك في نسبة ربيعة إلى أبي. خاصّ لمرّة ف كلّ مرّة تضرب الرجل فين تقتلو.. ماشي بزرواطة.. لا.. خاصّو تضربو ف نفختو (أنفته).. ونفخة الرجل هي اولادو.. كلّ الجارات، يا أمّي، كنّ يبحن بأسرارهنّ، بخياناتهنّ البسيطة. لكن لا واحدة تفوّقت عليكِ. كنّ

Twitter: @ketab_n

يستدرجنك لمزيد من الخبايا المظلمة، وكنتِ تنتقمين من كلّ شيء بنسف كلّ نقطة مضيئة في أخلاقهنّ. لم يقل الحارس الذي قادني إلى رؤية أبي أيّ شيء. كان طويلاً كعملاق، وفارغًا كقيلولة، وصامتًا كبلادة مؤذية. قادني عبر الحديقة الواسعة داخل السجن. لم يكن عالَمَ الخيال الذي يتحدّى الواقع بآفاقه اللامتوقّعة، ولم يكن عالمَ «البدائيّين» المتوحّش المندفع البسيط الذي لم تدنّسه حضارة العقل والأديان، ولم يكن يوتوبيا منفلتة من أشعار ميلتون وروايات ويلز وأطلانطس أفلاطون. لكلّ سجين ـ مريض نسائخه ses doubles التي تجعله ينسف كلّ «أنا وحديّة». تساءلت: لماذا هذا الانفجار في الكلام والتخيّل والرسم بحركات الجسد لدى هؤلاء «المساجين ـ المرضى» الذين كان عقلهم «السليم» يومًا ما يمنعهم من كلّ ذلك..؟ وحيدًا كان هناك. وحيدًا على الأريكة الحديديّة الصدئة. أوقفني الحارس أمامه، وانصرف يقول لي: لا تحاول.. إنّه لم يتكلّم منذ أكثر من ربع قرن..! كان حطامَ رجل. أب كان ذات يوم يحمل «عُدّته»، ويغلق الباب خلفه فاتحًا جسد امرأته على «نتانة» الآخرين. رأسه غارقٌ بين كتفيه المقوّسين، ورجلاه متصالبتان في خنوع، وليس في يديه غير الفراغ. على جسمه بقايا ثياب أعطته إيّاها إدارة السجن منذ زمن بعيد. خمّنت أن هذا الحطام المكوَّم أمامي لن يتعدّى وزنه عشرين كيلو. وضعت أصبعي تحت ذقنه ورفعتها لكي أرى وجهه. كان هناك آثار ملامح منطفئة. لكنّه الآن لا يشبه حتى جماجم الأنثروبولوجيين. هل كان يراني..؟ هل كانت عيناه مفتوحتين..؟ ربّما لم يسمعني عندما ناديته: بّا.. بّا.. بّا بنداود.. كنت أودّ أن أحكي له. أن أعترف له. هي كانت كالعادة تأخذ حمّامها اليومي قبل طرْق الباب. وأنا في الفناء على الحصير، أحاول أن أتظاهر بمراجعة

Twitter: @ketab_n

دروسي. كنت على وشك دخول المراهقة بلا موضة وبلا تسريحة تجعل شعري متشابكًا مثل أسود أميركي في الستّينيّات. رائحة الغاسول وصابون «الحجرة» ومواويلها التي تجلب «الضباع» من الغابات البعيدة. أسمع أنينها، وهي تمرّر كيس الصابون على لحمها، وكأنّها في مضاجعة حقيقيّة. لم أعد أتحمّل. النمل الأحمر في شراييني يصل حتى التخوم الحرام ما بين فخذيّ. أتقدّم قليلاً، وأرفع ستارة المرحاض القذرة. أراها في كامل عريِّها. هي تشبه أمّنا حوّاء كما سمعت مرارًا. أهجم عليها، فتتوقّف المواويل، لكنّها لا تقول شيئًا. أسمعها تفِحّ في أذني مثل أفعى هائجة: فقْ.. فقْ.. ما بقى لينا غ انتَ.. كنت قد غفوت قليلاً، وأنا أسمع عيوطها الزاحرة التي لا تتوقّف. هل تسمعني يا أبي..؟ آه لن تكفيني كلّ مفاصل التاريخ لأعتذر منك..! كنت أحاول أن أبعث الحياة في أصابع يديه، وأنا أمسكهما بين كفيّ. كانتا مجمّدتين. ما الذي أبقى هذا الحطام على قيد الحياة إلى الآن..؟ عندما أيقظَتْني من كابوسي الزاني، كانت تنشّف شعرها، وتضع مكياجها الرخيص على شفتيها ووجنتيها. انكمشت منقبضًا. يعني ذلك أنّ بابنا سيطرَق هذه الظهيرة. أختي ربيعة نائمة في المطبخ. الصمت يهيّئ فواحشه التي لا يعلم أحد من يقف وراءها. وجاء. جاء ذلك السوسيّ القزم ذو الرائحة النتنة التي تختلط فيها روائح الزيت بالثوم بالبصل بالزيتون المخلّل وسمن الجرار «الحايل». في أسنانه صفرة المِرَق الرخيصة المهيّأة بالزعفران الذي يُباع في أوراق مطويّة صغيرة. كانت قطع نقوده ترنّ في جيب بلوزته الباهتة. هي تحاول أن تغنّي له، وكنت أسمعه يقول بلهجته السوسيّة: أورْ داري الوقت ل.تموايت النَّمْ (ليس لديّ وقت لغنائك).. آشكيد آتا (تعالي..).. سربيني (أسرعي) قبل ما توذن آلعاصَر (قبل أن يُؤذّن

Twitter: @ketab_n

لصلاة العصر).. كنت أقبّل يديه ورأسه، وأتضرّع إليه: لماذا يا أبي..؟ لماذا فعلت ما فعلت..؟ أرجوك إن كنت تسمعني أن تحرّك فقط أصابعك.. لم أسمع مواويلها. سمعت زُحارها وشخيره المقزّز. هو الطقس المعتاد نفسه، لكنّه طقس غير عاديّ. عندما انفتح الباب، كان أبي يضع عدّة البناء في زاوية المدخل، ويخلع فردتَيْ حذائه التعبتين والمتّسختين لكي يتحاشى غضب أمّي من قذارته ونتانة رجليه. فوجئت. ليس هذا وقت عودته. في العادة هو لا يعود قبل المساء. لم أكن شاعرًا في تلك اللحظات العدميّة. كنت صوفيًّا متضرّعًا إلى صمت دامَ أكثر من ربع قرن، لعلّه يضجّ بقليل من الكلام: لماذا عدتَ في تلك اللحظة يا أبي..؟ لماذا عدت..؟ هو لم يسمع زحارها وشخيره. هي سمعت حركات مفاصله المنحطّة. أزاحت ستارة الغرفة. كانت ما تزال تسوّي سروالها وملابسها الداخليّة، وهو خلفها يقمع دندنة سوسيّة فاجأتها الصدمة قبل أن ترنّ في حلقه. وضعت يديها على خاصرتيها بكلّ صفاقة، وتقدّمت نحو أبي: آش جابك دابا..؟ لم تسمع جوابًا. ارتعد السوسيّ خلفها. انتهرته بشدّة: آرا (هات) فلوسي انت واغبر عليّ.. وضع القزم النتن كلّ قطعه النقديّة في يديها، وتعثّر في مشيته وهو يحاول أن يصل إلى الباب الخارجي. كانت إجابته أفظع من كلّ خيانة: جراو عليّ من الخدمة.. وانكسر أمامها، وهو يخلع جوربيه المتّسخين بالإسمنت والخرسانة والطين. تفو.. غسل رجليك عادا سير تاكل.. كنت أنا في المطبخ، أحاول أن أتأكّد من أنّ ربيعة ما زالت نائمة، ولم تشهد كلّ هذه الإهانات.

لماذا يا أبي..؟

كنت أحاول أن أرفع رأسي إلى السماء، لكي أقول ما قاله

Twitter: @ketab_n

رسّام في ضياعه القاتل: «أيّها الربّ، إذا كنتَ موجودًا، فإنّني أتّهمك بالظلم والشرّ..». لكنّي لم أستطع. نعم أبي، لم أتصوّرك قادرًا على أن تمتلك عينين تستطيعان أن ترتفعا إلى شمس أمّي الحارقة. لكنّك كنت قادرًا على فعلٍ واحد فقط، جعلك تمسح قارّة بأكملها، تمتدّ من دوّار **المجاذيب** إلى بيوت الخطيئة وصفّ العابرين في «**الفيلّاج**». هي كانت مضرّجة في دمائها، والسكّين في يديك يقطر دمًا، وأختي ربيعة كانت تهرول من نومها مفزوعة. لكنّي أنا كنت قرب الجثّة، خارجًا من كابوسي الزاني إلى يديّ المجرمتين. في لحظة استفاقة مارقة، قفزت من مكانك، ولأوّل مرّة أرى بريق عينيك وحركة جسدك المتعفّن. كنت قد فاجأتها، وهي ما تزال تضع يديها حول خاصرتيها، وتفِحّ في وجهك مثل أفعى قاتلة. لم يحرّك أصابع يديه. لم ينظر إليّ. أكيد هو لم يعرفني. لم يسمع صوتي. لم يكن للأبوّة والبنوّة أيّ معنى في هذا العراء السجني - المرضي المختلّ. رآني الحارس أركض بسرعة متّجهًا نحو الباب الخارجي. ركبت السيّارة وانطلقت بسرعة جنونيّة. حين دخلت المقهى، حيث كانت تنتظرني سامية، لم يكن في عينيَّ دموع، ولم يكن في قلبي ألم. وقبل أن أطلب قهوة بدون سكّر، كانت سامية تنظر في يديَّ المرتعشتين. لم أستطع أن أمسك قهوتي. كانت يداي قد تجمّدتا. السكّين تقطر دمًا، وهي تلتفت خلفها في آهة مخنوقة لترى من طعنها في الظهر، قبل أن يغرس نصل سكّينه في بطنها مرّات متتالية. تهاوت على الأرض، وخيط من الدم الأحمر الفاتح يفور من فمها وبطنها وظهرها. حين سقطت متلوّية مثل خروف في العيد، كانت تصارع لتقول لي: أنت.. أنت..! عندما هرولت

Twitter: @ketab_n

ربيعة من رقدتها في المطبخ، كان أبي يلتقط السكّين من يدي، ويدفعني بعيدًا عن جسدها المضرّج في دمائه. لم أستطع أن أشرب قطرة واحدة من قهوتي. في نظرات سامية، كانت أمّي تقول في حيرة الرمق الأخير: أنتَ.. أنتَ..!!

Twitter: @ketab_n

ـ ٢١ ـ

كان الوعي البائس دومًا يتساءل: هل هناك حياة بعد الموت..؟ وكنت دومًا أتساءل: هل هناك حياة بعد ساحة الخرّوب..؟ قلت لإيميلدا: نعم أنا موافق.. سنذهب معًا إلى البلدة.. لكن لا تنتظري أن تجدي تاهيتي متوحّشة.. بكلّ رصانة باريسيّة، أجابتني: إذا كنت أريد الذهاب معك.. فلأنّي لا أريد أن أدير ظهري لبقيّة العالم.

كان العالم بالنسبة لها يمشي على كرسيٍّ متحرّك. خالتي بهيجة التي أقعدها الكُساح عن طراوة الرجلين وفتنة المشي، لم تكن تستطيع أن تسافر مترين اثنين من دون عجلات كرسيّها. ومع ذلك، كان العالم يأتي إليها زاحفًا على ركبتيه، بصوره ونميماته وأسراره وفضائحه العلنيّة والخفيّة. كانت كاميرا متوارية خلف الأشياء، لا يراها أحد. في كلّ جلسة فطور أو غداء أو شاي، كانت شاشتها السحريّة تعرض كلّ شيء. كلّ ما يحدث في «**حيّ الرمانة**» بأكمله، وخصوصًا في «**ساحة الخرّوب**». كانت سابقة على سينما الحائط بسنوات ضوئيّة. هي تحكي، وحركات يديها تبثّ أمامي أشكالاً هلاميّة، أحوِّلها بخيالي إلى

Twitter: @ketab_n

صور دافقة. **طامو** التي مزّقتْ عشيقها عازف الكمنجة في الحلقات الشعبيّة، لأنّه تجرّأ أن ينظر في وجه قرويّة عابرة، وأن ينفث أمامها آهة محرّمة: شفت الزين وبقيت حزين؛ وذهب ليشكوها إلى زوجها الأبله الذي قال له: عيالات ناقصات.. الشيطان **رحيم** الذي كان يكتب رسائل ويضع عليها تمبرًا مختومًا، ويذهب إلى كوخ **مونة** العجوز القصديري، ليقرأ عليها الرسالة موهِمًا إيّاها بأنّها مبعوثة من طرف ابنها **عاشير** الذي لم يعد منذ أن هاجر إلى فرنسا منذ أكثر من عشرين سنة. ومقابل أوهامه الماكرة، كان يملأ جيبه ببعض الريالات التي كانت تستجديها العجوز على قارعة الطريق أو أمام الجامع الكبير. **خناثة** التي كان يسمِّيها الجميع «العذرا»، لأنّها كانت تعتقد أنّ فرجها «تقي» ولا يصلح إلّا لذكر «نقي». ولكنّ الذكر النقيّ لا وجود له إلّا في الحياة الأخرى. وظلّت متمنّعة عن أيّ «رجس دنيوي» في انتظار الموت الذي سيفتح فرجها للذكر الأخروي الموعود. لكنّ انتظارها طال، ولم تأت لحظة الخلاص، فقرّرت أن تلقي بنفسها من علوٍّ شاهق. وهي تسقط، تصادف ذلك مع مرور شاحنة محمَّلة بالجزر، فسقطت فوقها. عندما استعادت وعيها، اعتقدت أنّها في العالم «الآخر». حرَّكت يديها فلامست كمِّيّة الجزر «المنتصبة» التي تحيط بها، فقالت: وديرو التاويل آ الرجال وشدو الصفّ..! (تعقّلوا أيّها الرجال والتزموا بالطابور).

كنت أضحك حتى تطفر الدموع من عيوني، وأختي دليلة كانت تخفي وجهها بين يديها من الخجل، فيما كانت أمّي تنتهر خالتي وهي تولول: آويلي آ الماسخة.. غزّا فيك الله اللي ما اعطاك رجلين.. لكن خالتي بهيجة لم تكن حكواتيّة ورعة. كانت تحكي لتفجّر طاقة الحكي التي عوّضتها عن كساحها. أتذكّر القهوة التي لم تكن تسمح لأحد أن يحضِّرها: قهوتكم ماسخة بحال وجوهكم.. كانت تقول

Twitter: @ketab_n

للجميع، وتندفع بكرسيِّها المتحرِّك إلى المطبخ. أشمّ رائحة بن محمّص بقرفة وزنجبيل. رائحة بهارات تملأ المنزل والخياشيم والأعماق: ذقْ.. ذقْ.. آ المويسخ وشوف مويمتك واش قادة على هاذ الشي.. لكن خالتي بهيجة لا تحكي عن نفسها. قلت لها يومًا: خالتي.. أنت تشبهين سجينًا يروي قصصًا لتسلية السجناء والتندُّر منهم.. لكنّه لا يقول لماذا دخل السجن..؟

تطوِّح خالتي بقطعة «بسكويت غرْيبْة»، التي تقضمها على مهل، في وجهي: يا ولد الحرام.. يصحاب ليك خالتك بهيجة مشتاقة ف الرجال..؟ أتلمّس فتات البسكويت على وجهي. لكنّي لا أغضب. أحاول أن أتحرّش بها، وأغيظها لكي تنفجر حكاياتها أكثر: لكنّك لا تشبهين خناثة العذرا يا خالتي.. لم أكن فقط أحاول تفجير طاقة الحكي لدى خالتي بهيجة. كنت أمتصّ دفء الذاكرة الحنون، وأنا أمتصّ نهد إيميلدا الأبيض كقطعة ثلج، وهي تشبك أصابعها بين خصلات شعري. لكنّه لا ينفجر. هذا «اللعين» لا يستجيب. حمم تنقذف من سيل الماغما المندفع من ذاكرتي، لكنّها لا توقظ هذا «التنِّين» المتناوم. كيف أصنع سينما للاتّصال الحميمي المباشر بالأشياء، إذا كنت عاجزًا عن الاتّصال الجسدي المباشر بأسرار إيميلدا الشهويّة..؟

هو كان يعرف كلّ شيء. كان فوق التسامح، لأنّه كان سليلاً لثقافة الحرِّيّة الشخصيّة والجسديّة. هي لم تخنه، وهو لم يحقد عليها. كانا زوجين متحابّين على طريقتهما. هو لم يجد ما يبحث عنه من «شغف إنساني»، وهي لم تجد هذه الحميميّة المباشرة التي أودت برسّام انطباعي ليموت منبوذًا في غابات تاهيتي المتوحّشة. أخبرته بكلمتين:

Twitter: @ketab_n

Jules je pars au Maroc avec Nouri..

أجابها بنبرة لا تخلو من حزن:

je vois que tu as pris ta décision..

تجيبه بكلّ حنوّ: oui chéri. كان يجمع أوراقه وملفّاته وكتبه للذهاب إلى المعهد العالي في محفظته الجلديّة الأنيقة ذات المقبض المدوّر، والتي أهدتها له إيميلدا ذات عصر بارد في السوربون بمناسبة ذكرى حبّهما الأوّل. تُعيد إجابتها: نعم حبيبي.. أغلق محفظته وجلس على الأريكة الوثيرة: puisque je ne suis pas invité à monter à bord, je dirais plutôt bonne chance.. amusez- vous bien..

كنت أودّ أن أدعوه لمرافقتنا إلى البلد، لكن إيميلدا استبقت خواطري. اقتربت منه، وبأناملها الرقيقة أمسكته من أنفه ومن شفتيه، وقالت له:

rassure- toi Jules.. je t'enverrai des cartes postales et j'écrirai même un petit rapport sur ce qui t'interesse le plus: le cinema naïf..

دمدم بكلمات غير مفهومة، ضاعت في دخان سيكاره الكوبي. كان واضحًا أنّه لم يأخذ ما قالته على محمل الجدّ. اكتفى بالقول:

j'espére pour toi Emilda que le soleil de Marrekech te fera du bien..

لم تكن توريته في حاجة إلى ذكاء. شمس مراكش لم تكن شمس الجنوب اللاهبة التي تسحر آلاف السيّاح الباحثين عن غموض الشرق الراقد خلف الحكايات الخرافيّة ورياضات الرجال المتمتّعين بطراوة

Twitter: @ketab_n

المحظيّات والجواري. كانت شمس جسد يبحث عن معنى مفقود خارج صدره هو، وغرفته هو، ودخان سيكاره الكوبي هو. تمنّى لنا حظًّا سعيدًا وهو يغادر.

في اليوم الذي غادرتُ فيه المنزل، كنت أدفع كرسيّها المتحرّك وأنا أقودها إلى ساحة الخرّوب رفقة أمّي وأختي دليلة وبقيّة الأهالي في «**حيّ الرمّانة**». كان المنادي يشقّ غياهب الانفعالات في حواسّنا وهو يصيح بين الأزقّة والأرصفة الضيّقة الموحلة: ها هي جات.. ها هي جات.. سينما ولاد بوريشة والعفريتات.. أيّياي.. أيّياي. كروميّاي.. القهوة واتاي.. الهندي الملوَّن. .الكوبوي المفنّن.. الكابوس ما يخوا والعود ما يعيا.. أيّياي.. أيّياي.. كروميّاي..!! كان هذا الخليط من الكلمات الخارجة عن كلّ سياق والفاقدة لكلّ معنى، هو وحده الذي يجرّ اللغة بعيدًا عن أسوار «الفهم» العادي، لإجبارها على الغوص في خلايا الأهالي ودفعهم إلى الهرولة نحو ساحة الخرّوب. كلّ لغة أخرى، كانت ستتلاشى في رماد اليومي المكرور مثل أيّ وعظ باهت. كانت السينما تتجاوز قرنًا من عمرها، لكنّها هنا، كانت تولد سِفاحًا من دون أب أو أمّ. وذلك الشخص الغامض الخفيّ المختبئ وراء آلة العرض، كان الإله الذي يخلق الحياة من عدم، ويبثّها في أرضٍ بكرٍ تمثّل ظهر حائط لمنزل قديم في ساحة الخرّوب. في محطّة أوستيرليتز، كنّا ننتظر قطار منتصف الليل الذي سيأخذنا إلى هونداي مرورًا ببوردو. إيميلدا هي التي اقترحت أن نسافر بالقطار عِوض الطائرة. القطار يمنحك إحساسًا بامتلاك المكان والأرض والحقول والمدن والوجوه. تحسّ بالتاريخ محمولاً على تضاريس الجغرافيا. أمّا الطائرة فتشعرك بالانفصال التجريدي عن نبض الأشياء. السرعة، الفضاء، الخوف.. كلّ ذلك ينسف ألفة السفر

Twitter: @ketab_n

وشغف الترحال والانتقال من رئة إلى أخرى. هكذا قالت لي، وهي تقنعني بفكرة السفر بواسطة القطار. كان أمامنا متّسع من الوقت يكفي لكي أشتري لها قهوة جاهزة في كأس من بلاستيك، ولكي ندخّن مثل بوهيميَّيْن لا يحلمان إلّا بالنجوم. فتحت محفظتي، وأخرجت مسوّدة مشدودة بسبيرال. كانت سيناريو الفيلم الذي أعِدّ لإخراجه. منذ الوهلة الأولى، لمحت الدهشة في عينيها وهي تقرأ العنوان: «سدوم Sodome». مكبّرات المحطّة، كانت ترسل صوت إيديث بياف في قلب الليل. إيديث بياف تغنّي: المتشرّد. le Vagabond في حنجرتها سَفر حميميّ وانجراح غائر، لكنّه مليء بفرح عميق. الحديقة.. الطرقات.. السماء.. الغناء.. المتشرّد الجميل الذي يسخر من الوقت. Sodome..? tu veux dire Sodome et Gomorée..?. سألتني بانفعال هادئ. أجبتها:

- oui tout à fait.. Sodome de l'ancien testament.

همهمات المسافرين وصوت المرأة الخفيّة التي تعلن في كلّ حين عن موعد القطار القادم، وتعطي بيانات تفصيليّة عن مساره. ونحن نرتشف القهوة الجاهزة في ليل باريس البارد. **سدوم** ليست هناك في ذاكرة العهد القديم مرادفة للرذيلة والمجون. سدوم مدينة متيقّظة في حواسّنا لاقتناص اللحظة العارية من كلّ أفق سماوي. هي الجسديّ الحسّي، والعنفوان المندفع مثل ديمومة الحدسيّين. فتحت المسوّدة على الصفحة الأولى. ساد صمت رهيب، وابتلع الظلام المهيب ما تبقّى في الألسنة من كلام.

واقف خلف كرسيّ خالتي بهيجة، ومحاط بأمّي وأختي دليلة. أوّل انبعاث للحياة في شكل ضوء فضّي يسقط على حائط قديم. لقد بدأ العرض. الغزو التراجيدي للصورة وهي تتغلغل في ألياف المخّ

Twitter: @ketab_n

وانفعالات الشعور. سدوم المنبعثة من خلاعتها ومجونها، تكتسح مخيِّلات حشود عاشت طويلاً، ولم تر أبعد من أرنبة أنفها. كنت أحاول أن أعطي فكرة عن الفيلم وعن العلاقات التي تربط بين أبطاله. لكنّ خالتي بهيجة، كانت تنتهرني من خلال قرص ظهر يدي بأصابعها «المسمومة». ينتهي البؤس. تعلن الأجراس نهاية الحرب. يتوقّف الزمان المشعّث الكالح. تسكن رياح الكدح فجأة. لا شيء يدلّ على حياة صلَبَها البحث المُذِلّ عن قطعة خبز وغيمة وسلام يأوي إليها الجسد. إنّه الاختراع العجيب الذي ابتكره الأخوان لوميير من أجل الانتصار على العدم.

منتصف الليل. يَتوقّف «العجائبي» فجأة، كما بدأ فجأة. تبحث العيون عن نقطة ارتكاز في هذا الهلام. لا أحد يريد مغادرة ساحة الخرّوب. لكنَّ صفير القطار كان زاعقًا. نهضنا واتّجهنا إلى الرصيف، وانتظرنا حتى توقّف القطار ذو السرعة الفائقة تمامًا، فصعدنا.

كنت أحدّثها عمّا وقع لأسلين، عندما مثّلت شبه عارية على ركح المسرح، وعن الجرأة التي دفعت تلك الأمازيغيّة المتحرّرة لكي تعرّي تاريخًا بأكمله، وتنسف «أوهام الحداثة» التي لم تفارق المغاربة، منذ اعتقدوا أنّهم بدأوا يدخلون التاريخ مع البعثات الأولى التي أرسلها الحسن الأوّل إلى بلاد النصارى. لم تستغرب إيميلدا. كانت تعرف كلّ شيء، لكنّها ألقت ملاحظة عابرة لن أنساها أبدًا: الغريب هو أنّ الثقافة التي أنتجت ألف ليلة وليلة، وتفنّنت في نسج حكايات السلاطين مع محظيّاتهم وجواريهم، وخلقت كتبًا في فنّ الباه والنكاح، هي الثقافة نفسها التي تستنفر كلّ الأحقاد التاريخيّة للقصاص من جسد ممثّلة تؤدّي دور أنثى شبه عارية.

ـ ما الذي يجعلك تروين حكايات بهذه الشاكلة خالتي بهيجة..؟

Twitter: @ketab_n

أسألها ونحن نعود إلى المنزل بعد انتهاء سحر «الشاشة الحائطيّة». كنت أدفع كرسيَّها وهي صامتة. أمّي كانت تثرثر مع أختي دليلة حول ما رأتاه من مشاهد تأخذ الأنفاس. لكنَّ سيّدة الحكي كانت صامتة. صمتها لم يكن عاديًا. لا يمكن لخالتي بهيجة أن تصمت. ليس من حقّ الحكواتي أن يصمت. ستهتزّ روافع العالم، وسيشنقه الجمهور المتحلّق في الساحة الشعبيّة. الحكي «شرط وجود» خالتي. قبل أن تودّعنا لتنام، قالت لي: كلّ الصور التي رأيتها على الحائط كانت في رأسي.. لم أفهم شيئًا. «سدوم» في رأس خالتي. في مخيّلتها. الاندفاعة الباهرة. عنفوان الصورة، وهي تلتهم الطرقات، مثل مكّوك سريع، لاقتحام الأعماق. اللون الفضّي الذي تتعاكس فيه ألوان قرمزيّة، أرجوانيّة، ذهبيّة، صفراء، فاتحة، غامقة.. الصمت القاتل الذي يتدلّى كخنجر مسموم حين يوشك البطل على الهلاك، أو يسقط في كمين، فتتوسّل العيون والوجدانات والأيادي للإله الخفيّ المختبئ خلف آلة العرض، لعلّه يتدخّل في لحظة النهاية الآسرة لإنقاذه. هي ذي سدوم المنفلتة من كلّ رقابة شرعيّة وكُلابٍ أخلاقي. كيف أجبرها على الخروج من «رأس» خالتي الكسيحة لكي تتلوّى راقصةً كواقع متعدّد الألوان، مثلما يجبر كاهن بدائيّ الأرواحَ الخفيّة على مغادرة أحشاء المريض..؟

كنت قد هاتفت أسلين في وقت سابق، وطلبت منها أن تنتظرني في طنجة. كلّ ما قلت لها هو أنّني أنهيت كتابة سيناريو أريدها أن تطّلع عليه لكي تجسّد دور البطلة. لم تأتِ وحدها. كان معها كلّ الشلّة: كاميليا.. سامية.. أحلام.. ميلاد.. ووعد الراهب أن يلتحق بنا فيما بعد. قدّمتُ لهم إيميلدا. قلت مازحًا بالعربيّة: لالة إيميلدا.. لم تفهم إيميلدا. شرحت لها أنّ لقب «لالة» يدلّ في الثّقافة المغربيّة

Twitter: @ketab_n

على التقدير والاحترام تّجاه المرأة. أسلين كانت متوهّجة. كاميليا هادئة كالعادة. سامية ذاهلة بشكل غريب. أحلام تبحث في زرقة طنجة المشوبة بالبياض عن سرّ الألفة الأسطوريّة، التي تجعل مدينة مثل طنجة تفتن روائيًّا عالميًّا مثل بول بولز، أو رسّامًا مثل هنري ماتيس. ميلاد كان شبقيًّا بشكل لاعقلانيّ، وهو يقبّل يد إيميلدا ويقول لها بفرنسيّة باذخة:

au moins, vous madame, vous sentez le vrai maquillage..

ببساطتها الأليقة، ردّت إيميلدا:

ah oui.. c'est que vous n'aviez affaire qu'au faux maquillage..?

كاميليا التي تزيد رصانتها جمالاً إضافيًّا يفوق لمستها الراقية، تدخّلتْ:

c'est lamentable..!

ونحن في الطريق إلى فندق شهرزاد، اقتربت من سامية: على غير العادة.. أنت لست شاعرةً اليوم.. في مشيتها المتثاقلة، كانت سامية أخرى تجرّ رجليها: نوري.. نوري.. أنا.. أنا.. لم تكمل. تلمّست يديها برفق: أنا أسمعك سامية.. تكلّمي.. انحنت على أذني وهمست: أنا حامل.. صفّقت بشكل خجول: هنيئًا سامية.. هل يمكنني أن أهنّئ ميلاد..؟ صمتت. الحيرة في شفتيها واللامعنى يحترق في عينيها: لا أعرف إن كنت حاملاً من ميلاد أم من الراهب أم من غيرهما.. برَقَ في عينيّ وميض سينمائي مباغت. هذه هي سدوم في كامل حيويّتها الغريزيّة المندفعة. أردتُ أن أمازح سامية لأخرجها من ذهولها:

Twitter: @ketab_n

ـ من تفضّلين أن يكون أبًا لجنينك..؟ عليك أن تختاري.. لكنّي سأقول لك إنّه جنين الحياة..

لم أنم تلك الليلة. كانت عينا خالتي بهيجة تعرضان الحياة على شاشة مخيّلاتنا كلَّ يوم، ولم نكن نرى فيها غير ثرثارة صفيقة. في الغد، اقتربت منها على مائدة الفطور. قبّلت يديها على غير عادتي:

ـ الحكواتي الذي لا ينطلق من ذاته هو مجرّد متسوّل يجوب الأسواق الأسبوعيّة. لكن أنت خالتي.. يجب أن تحكي لي.. جاءني صوت أمّي ناهرًا وقاطعًا كمقصلة: نوض تلعب آ الموسخ..

إذن خلف هذا السباب البذيء، تتلوّى حياة ما، حكاية ما، ولا بدّ أن أذهب إلى أقصى الانفعالات. طردتني أمّي من المائدة، لكنَّ خالتي بهيجة أمسكتني من يدي، ومنعتني من الخروج. في صمتها ثرثرة ماضٍ سحيق. كنت أعرف أنّها تتستّر وراء حكاياتها الخبيثة التي لا تنتهي. قادتني إلى غرفتها. فتحت صندوقًا خشبيًّا قديمًا مليئًا بالأثواب والأقمشة والستائر، وفتّشت تحتها، ثم أخرجت مظروفًا كبيرًا مغلّفًا بمنديل طويل يشبه فوطة. فتحته، وناولتني محتوياته دون أن تنظر في وجهي. ألبوم صورها القديمة. صور بالأبيض والأسود، ترجع إلى تواريخ ضاربة في القِدَم. خالتي بهيجة على رجليها في المدرسة، في الحديقة العموميّة، مع صديقاتها في **ستوديو الشاوي** الوحيد بالبلدة آنذاك. خالتي في كامل أناقتها الطفوليّة والمراهقة، بشعرها الأسود المترامي خلف ظهرها، وتنّورتها التي تنسدل فوقها وزرتها المدرسيّة البيضاء، وعلى ضفائرها مشدّات ومشابك تحافظ على تسريحتها، وفي نظراتها بريق الغريزة البسيط. خالتي المراهقة مع تلاميذ قسمها في **إعداديّة ابن العميد**، وفي الصورة سبّورة تشير إلى السنة الدراسيّة: ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥. وخالتي في صورة أخرى، خالتي إلى جانب شابّ

Twitter: @ketab_n

مراهق، لم أحبّ ابتسامته وطريقته المتبجّحة في وضع يديه حول خاصرتيه. في نظراتها، اختفى الحكي المباشر اللّاذع. لا مكان للكلام في حضور الصور. هو ذا العالم الذي كان في «رأس» خالتي، عندما عدنا من مشاهدة سينما الحائط. حين اصطحبني أستاذي جيل نورماند إلى بيته الراقي أوّلَ مرّة، وقدّمني لزوجته إيميلدا، رأيت صورتهما متعانقين معلّقةً على الحائط داخل إطار كبير. أثارتني الصورة أكثر ممّا أثارني البيانو الموضوع في زاوية الصالة، ولوحة «الوصيفات» للرسّام الإسباني ڤيلاسكيز، أو لوحة «إلهام الشاعر» لماركو روسي، ولا صفّ اللبلاب المتدلّي خلف النوافذ، ولا رائحة الفكر والموسيقى والجمال التي يعبق بها المكان. رأتني إيميلدا أطيل النظر في الصورة، فقالت بعد أن صبّت لي كأس مارتنيك: هو كلّ ما يتبقّى من الزواج.. في القطار فائق السرعة الذي يلتهم الظلام والصمت والأشجار، من محطّة أوسترليتز إلى بوردو، إلى نقطة الجمارك الحدوديّة بهونداي، كانت غارقة في قراءة السيناريو. استفزّها العنوان: «**سدوم**»، وراحت تبحث عن المدينة التي جعلتها دناءة الروح البئيسة تسقط في وصف لا يليق بالحياة: الرذيلة. المدينة التي لم تستمع سوى لصوت جسدها وغريزتها. لكنَّ سدوم لم تكن مدينة عبريّة حاقَ بها الهلاك الإلٰهي. كانت هنا، في شراييني وبين كلماتي، وفي الشغاف الممتدّة بين سينما الحائط وكرسي خالتي بهيجة المتحرّك.

اللقطة الأولى

الصورة الجماعيّة لتلاميذ إعداديّة ابن العميد. تاريخ ماكر يتمطّى على ظهر سبّورة صغيرة، تحملها تلميذة ضاحكة بين يديها: ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥. على طرفيْ الصورة شخصان: بدين بهندام أنيق وربطة عنق

Twitter: @ketab_n

على طريقة الفرنسيين. هو المدير بلا شكّ. في الطرف الآخر، شابّ ثلاثيني بلباس رياضي. هو أستاذ التربية البدنيّة بلا شكّ. وفي الوسط، دائرة حول وجه طفوليّ منشرح. كانت هي. لم تكن جميلة جدًّا، لكنّها كانت ذات جاذبيّة لافتة. عيناها منتشرتان في نبض المكان، ترشفان اللحظة التي تشرف على التلاشي. وفي الخلفيّة، بناية بقرميد أرجواني. أقسام وممرّات وأشجار ميموزا رصينة. التفتت إيميلدا نحوي. الفرح المدرسي المنبعث من الصورة، حرّك في أعماقي لذّة المعرفة.

اللقطة الثانية

صورتها إلى جانب تلميذ مراهق، يضع يديه حول خاصرتيه في تبجّح دونجوانيّ. نظراته ذئبيّة وملامح وجهه صفيقة، وهي قربه شبه منحنية. شبه منطفئة، تكاد عيناها تغيمان. هي لم تتزوّج أبدًا. هكذا سمعنا مرارًا في أحاديث العائلة. منذ فتحت عينيّ، وجدتها في المنزل مثل أمّي وأختي وأدوات المطبخ وجهاز الراديو الموضوع على طاولة خشبيّة قرب صالة الجلوس، ومزهريّات الحبق التي تملأ الزاوية قرب الباب الخارجي، أو كومات البصل والتين المجفّف واليقطين المتدلّية على الحيطان مشدودةً بمسامير هنديّة. لا عذر للغريزة يا خالتي. كنت المراهقة المحروقة بعسل الشفاه وسوائل الفخذين وملوحة العرق المتصبّب من جسمك، وكان يأتي كلَّ أصيل لكي يأخذك معه في نزهات لا تنتهي. هكذا سمعتك تحكين، منذ حاصروك بعد «الفضيحة». عيناه ذئبيّتان، وكلماته خدر دونجوانيّ، وفي حركاته ما يبطل الأخلاق. كنتِ أصغر من أن تفتحي ذراعيك لاحتضان الأشباح الراقصة. لكنّه كان آسرًا وإرهابيَّ الرغبة. حين اكتشفتِ أنّك حامل،

Twitter: @ketab_n

لم يقل شيئًا. هو الذي اغتصبك بكلّ شراسة، وصبّ عسل فخذيك بين لسانه اللزج الأفعواني. هزّ كتفيه، وغاب مدّة طويلة. لم تقولي شيئًا. أخفيت السرّ، وانقطعت عن العالم، حين ألقيت بنفسك من الطابق الثاني للإعداديّة. خسرت جنينك ورجليك ورذاذ الصباحات النديّة. الجميع أخفى عن والدك، جدّي، حقيقة ما جرى. لكنّه طردك من البيت العائلي. وحدها أمّي، أختك، ستكون أمّك، وسأكون أنا، ابنَ أختك، أخاك.

في فندق شهرزاد بطنجة، كنّا متحلّقين حول العشاء: سمك الروبيو الأشقر الذي أفضّله مقليًّا في زيت خفيفة، وسمك اللانغوست والراية، والسلطة النيسواز بخليط خضارها المسلوقة والمحضّرة ببهارات البلد العابقة، وقناني النبيذ الأحمر الفرنسي. كان الراهب قد التحق بنا في المساء، حاملاً روايته الجديدة: «**ساعة القيلولة**». وقّع نسخًا منها وأهدانا إيّاها. حتى إيميلدا التي لا تعرف العربيّة أهداها نسخة موقّعة بخطّه الملتوي العسير. اغتنمت إيميلدا فرصة الحديث عن الرواية، فاقترحت موضوعًا للنقاش:

ـ هل يجوز للروائي أن يدفع أبطاله إلى أقصى درجات الاعتراف الإجرامي، في الوقت الذي يحيط أسراره بسياج حديديّ رهيب..؟ كانت تنظر في السيناريو، وكان الراهب منهمكًا في توقيعاته الملتوية. قدّمته لها وعرّفتها به: الراهب .. روائي دنيء..! ضحكت من أعماقها. كانت لغتي المتفحّشة جميلة البذاءة، ذكّرتها، كما قالت، بعلاقة فيرلين برامبو:

ـ سيّدتي.. قال الراهب.. أكيد أنّك لن تقرأي رواياتي، لأنّها مكتوبة بلغة تجهلينها، وإلّا كنتِ عثرت على جواب لإشكاليّتك..! وقبل أن تجيب، تدخّلت أنا:

Twitter: @ketab_n

ـ كن مطمئنًا أيّها الراهب. . لن أتدخّل لترجمتها وتقريبها إليها. . تأكّد أنّها ستقرأها في ارتعاشتها اللغويّة الأصليّة. . وافقتني إيميلدا. أسلين بجانبي تشرب نبيذها على جرعات، وتأكل من طبقها مثل أميرة غير متوّجة. سامية وميلاد غارقان في همس صاخب: لست أدري ميلاد. . ربّما كان ابنَك. . ربّما ابن الراهب أو شخص آخر. . لست أدري. .

تتوالى اللقطات. إيميلدا متوحّدة بالسيناريو. وفي البلاتو الذي لن يهَيَّأ، تتقدّم أسلين، البطلة الرئيسيّة في الفيلم. ستقول لي إيميلدا بعد الانتهاء من قراءة السيناريو: أنت كنت تبحث عن معنى لعجزك. . كان في جملتها بياض موحش. إضمار قاتل. لم يكن خلف عجزي شبح خميس حبش المرعب، في ظلام الصمت الرهيب، لحظةَ يبدأ صوت المحرّك الكهربائي الذي يشغِّل الكاميرا التي تبثّ على الحائط القديم.

وحدها تمتلك أسرار الحومة بأكملها، وتقف على كرسيِّها المتحرّك مثل إلٰه خفي تنتهي إليه كلّ خبايا العوالم. لكن سرّها هي، كان الشيءَ الوحيد الذي أخفته في تلك الصورة الغامضة. وصلنا كلّنا إلى البلدة. حجزنا في فندق رخيص وبسيط من ضمن بعض الفنادق البسيطة الموجودة هناك. الجميع أصرّ على ألّا نذهب إلى «أسراري» في أزقّة السيناريو الذي كتبت، إلّا بعد أن نضمن سقفًا لأجسادنا المثقلة باللامعنى. اندهشت حين دخلت الحومة. لم أشمّ رائحة البصل والثوم والزيت البلدي، لم أشمّ رائحة الخبز في الأفران الشعبيّة ورائحة «الملاوي» في وجبات الخامسة مساءً. لم تكن الأبواب مشرّعة كالمعتاد، ولم تكن عتبات البيوت صاخبة بثرثرات النساء، وهنّ ينظّفن طفيليّات جدائلهنّ المحمرّة بفعل الحنّاء، والمسنّين والمتقاعدين وقدماء المحاربين ولاعبيّ الضامة النزقين. حتى ساحة الخرّوب اكتسحها

Twitter: @ketab_n

الإسمنت البارد. كان الحائط القديم الذي فتح شرفة الحياة الفضِّيّة الساحرة، قد اختفى خلف بنايات جديدة لا ذاكرة لحيطانها. أدقّ الباب، وتنفتح اللقطات هاربة من السطور التي كتبت في السيناريو. في عمق المنزل، تجلس أسلين في هيئة امرأة على كرسيٍّ متحرِّك. أعانق الجميع. في البيت رائحة أنوثة لم يستطع الزمان محوها. أقف أمامها، كما وقفت صغيرًا، يوم أدخلتني غرفتها، وفتحت صندوقها الخشبيّ القديم. يصيح المخرج الذي أتقمّصه: أيُّها الصندوق.. افتح.. خالتي بهيجة تحاول أن تتحقّق من الصورة القديمة التي أخرجتها من «أسرارها» البعيدة. شاخَ بصرها كثيرًا. منذ زمن طويل لم أسمع حكاياتها: هل ما زلتِ تذكرينه خالتي..؟! تضع يدها خلف أذنها. حتى سمعها شاخ: آشكلت..؟ أرفع صوتي، فتسمعني. أنتهر أسلين كمخرج قاس: عليكِ أن تكوني امرأة مُسنّة ينهشها سرّ قديم.. أعيدي المحاولة أسلين.. پليز..! أقرِّب الصورة منها. ذلك الذئب الذي رحل، ما يزال حرًّا طليقًا في «أسرارك» خالتي.. تسقط الصورة من يدي. أمّي التي تقف إلى جانبنا منهمكة في صبّ الشاي للضيوف، تتفرّس وجوه هؤلاء البلهاء الذين يسمّون «مبدعين». لم تجد ظلًّا لحيرتها: في الصورة شيء لا أفهمه خالتي.. تنتبه أمّي. بإشارة من عينيها، تحمل أختي دليلة الصينيّة لتوزِّع الكؤوس على الضيوف. دفعها فضول المسنِّين لتناول الصورة من يدي: آش من تصويرة.. أنا عمري ما شفت شي حاجة..؟! تفرك عينيها وتتفرّس في الوجوه التي بدا أنّها تتلاشى في رماد الصورة. فجأة تسقط الصورة من يدها، وهي تصيح: محال.. محال..! وانقطعتْ عن الكلام بشكل نهائي. كانت آخر مرّة تتكلّم فيها أمّي. أسعفناها على قدر ما نستطيع، وعندما كنّا نتوجّه بها إلى قسم المستعجلات، كانت خالتي بهيجة تندفع نحونا بسرعة غير

Twitter: @ketab_n

عاديّة بكرسيِّها المتحرِّك. أدرَكتْها أختي دليلة في اللحظة التي كادت أن تنقذف من أعلى الأدراج.

كان هو. اختفى مدّة، وعاد. كأنّ شيئًا لم يحدث. لا أحد كان يعرف السرّ الذي أخفاه طويلاً وستتكفّل صورة قديمة بفضحه. هو لم يرحل نهائيًا. هو اختفى مثل كلّ المهزومين الجبناء، ريثما تهدأ العاصفة. كان يتسلّل إلى فراشي كلّ ليلة، منذ طفَرتْ «تفّاحتاي» فوق صدري. بقبضته القويّة وأسنانه الصفراء ونظراته المرعبة، كان يخرسني. كان قريبًا منّي جدًّا قبل الواقعة. كان يأخذني للنزهات والتصوير بستوديو الشاوي الوحيد بالبلدة. لكنّي لم أكن أعرف أنّ الغريزة لا تعترف بـ «زنا المحارم». حين اغتصبني أوّل مرّة، كانت آخر مرّة أعرف فيها أنّ لي أخًا اسمه.. آه لا أستطيع حتى تذكّر اسمه. ليس لاسمه شجرة في أعماقي..

أنتِ لم تتكلّمي خالتي بهيجة. تركتِ خلفك صورة ناطقة. لكنّها كلّفتني «فحولة باردة». في اللقطة كانت أسلين تتلوّى تحت جسم أخيها المغتصِب، وهو ينزع عنها ثيابها مثل ثور هائج. وأنا أصبح خلف الكاميرا:

c’est ça.. c’est ça...

عندما رفعت إيميلدا عينيها بعد الانتهاء من قراءة السيناريو، قلت لها: هل وجدت جوابًا لسؤالك..؟ طوت المسوّدة، وأسندت وجهها على نافذة القطار. كنّا نقترب من الحدود الإسبانيّة: **سدوم** هناك، تنتظرنا.. أغمضت عينيّ. كانت ساحة الخرّوب تتفحّم في الذاكرة..!

انتهى

الخميس ٣١ ـ ٠١ ـ ٢٠١٣

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ابنةُ مَنْ هي كاميليا الشابّة الثريّة؟ وكيف يرى نوري تسامحَ أستاذه الجامعيّ مع شريكة حياته؟ تطرح روايةُ سدوم مسألةَ الهويّة الممزّقة والبؤس المغربيّ، وتفشّي الدعارة، وتقول — على لسان مثقّفيها من شعراء ومخرجين وروائيين — انْ لا إبداعَ من دون تحرّرٍ كامل.

"أيّها العالم.. نحن الذين ندمنُ النهارَ كأبديّة لا ترحل.. اترك لأجسادنا أن تعيد حكايةَ "سدوم" التي لم يدمّرها فسادُها، بقدْرِ ما دمّرها عدمُ قدرتها على رفع شهواتها إلى مقام القوانين التي لا ترتفع. لم تكن سدوم موغلةً في دركَ الرذائل في الأسفار التوراتيّة فقط؛ كانت سدوم راقصتَنا التي نتلوّى تحت خصرها في الليل ونرجمُها ألفَ مرّةٍ في النهار.. ".

عبد الحميد شوقي: مغربيّ الجنسيّة — أستاذ فلسفة. صدر له ديوانُ شعر وثلاثُ روايات: خراب الحلم، الموت في رابينه، والموتى لا يعودون من السماء.

تصميم الغلاف نجاح طاهر

دار الآداب
هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-480-5
9789953894805